قبل حلول الظلام

حين يصير الدمُ ماءً...

أبو عبدو البغل

معبد الحسّون

رواية

قبل حلول الظلام

حين يصير الدم ماء...

قبل حلول الظلام.. حين يصير الدم ماء

المؤلف: معبد الحسّون

الطبعة الأولى: 2019

الرقم الدولي (ISBN): 978-9933-577-52-0

نون 4 للنشر والطباعة والتوزيع

المنشية القديمة – حلب – سورية

خليوي: 00963944889078

00905372864656

هاتـف: 00963212121332

بريد إلكتروني: m-wahab45@hotmail.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

معبد الحسّون

قبــل حـلول الظـلام

حين يصير الدم ماء...

روايـــــة

إهــــــداء

إلى الرجال الرجال..

محمود عبد الهادي شرُّوف، وعثمان أصفر، وشعبان خطاب، وزاهي العبادي..

وكثيرٍ من رفاقهم الذين أستذكرُهم في الطريق الطويلة إلى الجُلْجُلة..

التي سقط أثناء الصعود إليها شهداءٌ وشهود..

كم من مقصلة..!

وكم من جُلْجُلة..!

وكم من شاهدٍ ومشهود..!

سأظلُّ أتذكرُ قبل أن يُخاطَ جثماني على جسد الأرض..

وقبل حلول الظلام..!؟

معبد

حِبْرٌ على ورق

المادة 1. يولد جميع الناس أحراراً ومتساوين في الكرامة والحقوق. وهم قد وهبوا العقل والوجدان وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضاً بروح الإخاء.

المادة 2. لكل إنسان حقّ التمتّع بجميع الحقوق والحريات المذكورة في هذا الإعلان، دونما تمييز من أيّ نوع، ولا سيما التمييز بسبب العنصر، أو اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين، أو الرأي سياسياً وغير سياسي، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي، أو الثروة، أو المولد، أو أي وضع آخر. وفضلاً عن ذلك لا يجوز التمييز علي أساس الوضع السياسي أو القانوني أو الدولي للبلد أو الإقليم الذي ينتمي إليه الشخص، سواء أكان مستقلاً أو موضوعًا تحت الوصاية أو غير متمتع بالحكم الذاتي أم خاضعًا لأي قيد آخر على سيادته.

المادة 3. لكل فرد الحقُّ في الحياة والحرية وفي الأمان على شخصه.

المادة 4. لا يجوز استرقاقُ أحد أو استعبادُه، ويُحظر الرق والاتجار بالرقيق بجميع صورهما.

المادة 5. لا يجوز إخضاعُ أحد للتعذيب ولا للمعاملة أو العقوبة القاسية أو اللاإنسانية أو الحاطّة بالكرامة.

المادة 6...

المادة 7...

المادة8...

الفصل الأول

احتضان الهاوية

– 1 –

سيارة زيل عسكرية قديمة ضخمة الحجم، كانت تقطع صحراء البادية في ذلك الليل. الليل ليليٌ خريفي. وأمامها وخلفها حرسٌ مرافق مدججون بالسلاح، ملؤوا سيارات المرافقة بأعدادٍ تفوق عدد السجناء الذين كانوا يتلوون في القيود في صندوقها الخلفي. وهي تترنح وتترجرج كطائرِ الدُّرّاج السكران. السجناء كانوا حوالي ثمانية عشر سجيناً، وقد أُوثِقوا بالحديد من أيديهم المشدودة خلف ظهورهم ومن أقدامهم. وجُمعوا جَمعاً بكبل حديدي، اخترق كل جوامع الحديد الفردية، وربطهم ربطاً مُحْكماً بعضهم إلى بعض.

بعضهم كزَّ على أسنانه بصمت. وبين الفينة والفينة، كان يصدرُ حفيفٌ خفيضٌ يشبه عواء ذئبٍ مكلومٍ تمزقَ بعضُ لحمه. وسيور جلدية سميكة كانت تلتف كالعصائب حول العيون، بحيث يتساوى الليل والنهار، والنور والظلام.

لستُ أدري ما الذي يحفِزني على الكتابة عن هؤلاء اليوم. فهي ذكريات انصرمت منذ عشرات السنين؛ ذكريات طواها الزمان مثلما طواها المكان. فأنا الأبعد عنها بجسدي، وإنْ ظلت عالقة في ثنايا الروح وخفاياها، وفي شقوق الذكريات التي لا تنطفئ. وكم تمنيت لها في سري أن تنطفئ.! وكم رجوت وتضرعتُ إليها. لكنها أبت.

أحياناً يغشاني نزوعٌ غاشمٌ إلى التشاؤم. فهل تكون تلك الغاشية، هي السبب الذي يجبرني على أن أكتب؟ إذ ما فتئتْ تلك النزعة التشاؤمية المحمومة والمستبدة، والتي لها وطأة غير حميدة على النفس، تحرضني على أن أدَوّنَ ذكرياتٍ قلّل من أهميتها دهرٌ طويلٌ عدا عليها، أو سطا سطواً خفياً، مثلما عدا على باكورة العمر، وأنا في استفاقة مُتَقحمِة، وهبوبٍ مفاجئٍ محمومٍ، من الهبات التي تسبق الموت، ذات مزاج أسود، عصفت بإرادتي التي كنت أباهي بها يومَ كنتُ صبّاً قوياً، حتى أرغمتني

على أن أدوّن كلَّ شيء. أو الأصدق: أن أكتب ذاك الذي أبْقتْ عليه الذاكرة المنحدرة والمتهالكة، من بقية ما تبقى من كل شيء، وأن أجمعَ الثُمالات من الذكريات.

سيارة الزيل العسكرية تهدرُ هديراً مختنقاً، وكأنها توشك أن تنفجر. ولم يعدْ معلوماً لدى السجناء، الذين بدأت رحلتهم من فرع التحقيق العسكري في دير الزور، إلا أن الوجهة المقصودة هي دمشق.

أن يتم نقل بعض السجناء، فرادى أو جماعات، إلى دمشق، هذا فألٌ سيئٌ. معناه أن "الفرع" تخلى عن مهمته لـ "الأصل". وأنّ التعذيب والتحقيق، قد أخذ منذ تلك اللحظة وجهةً أخرى: ربما كان أحد معانيها، أن العذاب قد دخل مسباره النظامي، وفلكه الدائر، بعد أن كان صدفة شاردة، وحادثاً طارئاً.

نزعة من التشاؤم القديم، كانت بائتة، تنام كاليعاسيب الموسمية في سباتٍ مضت عليه سنون طويلة، كأنه دهر لا حدود قصوى لنهاياته. هذه النزعة الشؤومة قدَّرت وقرَّرت، دون إرادة وقصد مسبق، أن سورية، هي الوطن الماضي اليوم نحو مصير مجهول، لا يُدرى ما هو، ولا أَيّانَ تنتهي عثرته، أو مبلغ سيره في ذلك النفق الطويل الغشوم الأربد، الذي يتهاوى فيه، وإنني، في المقابل أيضاً، سوف أتردى في الحافرة المجهولة ذاتها، وليس في هذا بدعة من بِدَع مصير الأحياء كلهم، فنحن ماضون نحو نهاياتنا، سواءٌ أقرَرْنا بذاك، أم أعرضنا.

ولئن كان كلانا: أنا ووطني الذي ولدتُ فيه وتربيتُ وترعرعت، نمضي نحو ذلك المجهول، دون حولٍ ولا طَول، ولا تدارك للنهاية المحتومة، فلِمَ الكتابةُ إذن؟ وما غاية تدوين سيرة حياة مضت؟ أهو أسف التاريخ؟ أم الإغراء بترداده واستحيائه؟ أم هي غريزة الإبقاء على ما كان يوماً ما، نابضاً بالحياة والحيوية، مُسْتَحِرّاً ومُستَعِراً بالرغبات والتمنيات، والأمل الذي انطفأ، وأسْلَمَنَا: أنا والوطن: إلى اللاجدوى؟

سيارة الزيل تبحر كهوام البرية، وهي ترجُّ السجناءَ رجّاً منكراً. تقتلع الأحشاء من خلف الحجاب الحاجز، حتى ليُخَيَّلَ لركابها أنها على وشك أن تتفتتَ قطعاً، وأن تنفرط أجزاؤها الشائخة في كل الاتجاهات. هذا الجزءُ الفاجعي، وهذا الوجلُ والارتياع من ألا يبقى منا شيء، سوى سديم أحداث غابرة، لم تعد أكثر من ذكرياتٍ تتردد خجولة، في أسماع

التاريخ الذي فقد اليوم دَوِّيَه وصخبَه، وفارق ما كان متسلِّطاً من قبل، يجلجلُ كل يوم بكل ما هو مريع، في ذلك الماضي الزائف الزائل. هذا الوجل غير المشروح، ولا المفهوم، هو الذي يبسط إغراءً ودافعاً لي لأن أكتب، وقد أيقنتُ بحلول الظلام قريباً.

إن الذين يدونون كثيراً من سرديات حياتهم؛ أحرفاً على سطور الورق، لم يعيشوا السعادة قطعاً؛ ما من ريب في ذلك. ولو أنهم عرفوا ذائقة السعادة أو بسطة العيش، لما سطّروا الحياة أسطراً. بل لاستبدلوا الكتابة عن الحياة بعيشها، بدلاً من تدوينها في سطور. فالحياة إما أن نعيشَها، أو أن نكتبها ذكرياتٍ وآمالاً مفتقدة، ولُمَعَاً من رغباتٍ مَهيْضة. وليس بعد هذين الخيارين وراء ذلك، من شيء البتة.

همس أحد السجناء للمعتقل الذي كان بجواره، والذي كان يشاركه قيد الحديد وبعض أعضاء جسده:

– مثانتي توشك على الانفجار من البول.

وصرخ بعضهم لأحد الحارسين اللذين رافقا السجناء بداخل الصندوق:

– أريد أن أتبول.. لم أعد أحتمل.

عاجلته ضربة بعقب البارودة الروسية، وهمس يشبه النصيحة:

– تبولْ في ثيابك. ولا تعاود الشكوى..

وأردف الحارس الآخر، بعد أن قطعت سيارة الزيل حوالي أربع ساعات من الطريق:

– لم يبق الكثير. أقل من ثماني ساعات وسنصل. مَنْ لم يعد منكم يحتمل احتقانَ البول أو الغائط، فليتبول أو يتغوط في ثيابه، وفي مكانه.

لست حريصاً اليوم على مكانة واعتزاز اجتماعي. ولا على مكسب مادي. ولا على شهرة وفخر شخصي. لم يعد يهمني أي شيء في هذا العالم. فأنا مِلْكُ نفسي، والعالم كله مِلكي. وأنا ونفسي والعالم من بعض أملاك الحقيقة. الحقيقة فحسب. فهذا سَويقي الذي أجدْحُ منه.. جَدْحَ من يحسب نفسه يلتهم، لا لذيذ الطعام، بل ما يُشبِع من تفريغ الحروف، وهو يتحسب من ظلامٍ سوف يَرْبَدُّ قريباً ويدلهم، ويغطي بسواده كل شيء، حتى يذوب هو وظلمته مع حروف الذكرى. وأية ذكرى. ذكرى ذلك السجن الطويل الطويل. ما يجعل المرء ينفض

عنه مَيْعة التكاسل، ورغدة التأويل والتأجيل، ويغدو في توثيق ذكرياته غدُواً، قبل أن تحول بينه وبين رغبته، سطوة النهاية الأكيدة، غير المستراب بها، وقبل حلول ذلك الظلام الكثيف العميم.

وصدح صوت أحد السجناء من داخل سيارة الزيل العسكرية:

– سيدي..

– ماذا هناك بعد..

– هناك شخص يُحتَضَر.. أو لعله فارق الحياة..

– فليحتضر، أو ليمت.. ماذا تريد أن أفعل له في الطريق، ونحن في وسط الصحراء؟

وسمعت صوتاً يوشوش:

– الله يلعن كل..

– أين يمضون بنا؟

وتردد صوت الحارس، وقد نهض مرة أخرى وراح يرفس السجناء، لا بعقب البندقية هذه المرة، وإنما بحربتها المسنونة:

– اخرس "ولاك.. أنت وإياه.." لا أريد أن أسمع همساً مرة أخرى..

الوعد في ذروة السعادة، كالقرار في قمة الغضب. كلاهما خطأ مبين.

لقد تشاطرنا أكثر أجزاء عمرنا مع ذلك الطاغية، الذي كانوا يسمونه نظامنا وسلطاتنا. لقد وَعَدَ ووعَدْنا نحن. وقرر وقررنا. فلا هو أوفى ولا نحن أوفينا. فكيف تعايشنا مع كل ذلك الظل الكثيف، الذي لا أستسيغ أن أسميه نظاماً، ولا دولة ولا سلطة مستبدة؟ وأجد كل حرج لغوي في أن أشرحه بكلمات مقررة وبسيطة. فالمرء عادة ما يظل وفياً لأفكار الماضي المسبقة، لا لأنه يسرف في اعتناقها ويألف صحبتها، بل – بصراحة أبلغ – لأنه لا يعرف غيرها من طرف، ولأنها – حسبما يرى – تقدم له أماناً زائفاً، وثقة موهومة بالنفس، من طرف آخر.

مضى أول المساء وهزيع من الليل، على السجناء الذين كانوا داخل صندوق شاحنة الزيل، كالمقبورين في جوف لحدٍ مُصفّح بأثقال من الحرارة والبراز والبول. وتمكن بعضهم من التغلب على طرف العصابات المشدودة على العيون، فعرفوا من الفجر ضياءه الأول، وشقوق النهار الذي كان يتبلج. سمعت أحدهم بجواري يتمتم لنفسه:

– والليلِ إذا عسعس، والصبح إذا تنفس..

نحن وهذه السلطة المتوحشة نساعد بعضنا بعضاً. هم يساعدوننا لأن نصل إلى النهاية بأسرع الطرق وأفضلها، ونحن نساعدهم بإبراز وحشيتهم، وإطلاقها على أحسن ما يتوقع، وما هو ممكن. كلانا نتخادم سراً وبصمت.

نحن مرعوبون منذ الولادة وصولاً إلى الموت. حكاماً ومحكومين. مرعوبون من أنفسنا، ومن كل ما يحيط بنا. غالباً ما نتزوج دون حب، أو نتعثر بحب عابر قبل الزواج، وسرعان ما نشعر بخيبة الأمل، وبشعور مفجع بالفقد. نتكاثر بدافعية الغرائز لا غير، وننجب أطفالاً لا نعرف كيف نربيهم، ولا كيف نُنَشِّئهم. نشعر بالملل والضيق من بنائهم، لأنه ليس لدينا فكرة نهائية كيف نبني أنفسنا أولاً، قبل أن نربي أبناءنا.

هل تظن أن أمي أنجبتني لأنها تحمل فكرة أو رسالة؟ أم إنها أرادت أن تفخر بنسلها، وأن تستثمر غرائزها الأرنبية في صناعة حياة، أية حياة! كائنة ما كانت؟ وإذ كانت حياتنا محض قضية غير جادة، ولا مفحوصة بخبرة واثقة، فهل نتعاطى معها كمسألة غير خالصة الجدية؟

نصلي أحياناً، أو لا نصلي. نصلي ولا نؤمن بشيء، ونؤمن ولا ندري إن كنا واثقين تماماً مما نؤمن به. لا نعمل.. بلى نعمل، ولكن قلما أخلصنا لعمل، ولا نكاد نَصْدُق، إلا عند الضرورة القصوى أو المصلحة. لا نقرأ.. بلى نقرأ، ولكن قلما حفرت الحروف في وجداننا، وفي نفوسنا وعقولنا، شيئاً متميزاً بالضرورة.

- سيدي.. الرجل الذي كان يُحتضر يبدو أنه قد مات.

- يلعن روحك وروحه.

وردد الحارس الآخر:

- قال مات قال..! جميعكم سوف تموتون بعد قليل.

كان الوقت قد قارب الظهيرة، وقد توقفت الشاحنة قرب مكان، لم يكن متاحاً أن يُسمع من خارجها إلا الشتائم المتبادلة، والاعتراضات، والعبارات الغاضبة. وسمع بعضنا عبارة طائشة من أحدهم تقول: "خذوهم إلى فرع فلسطين". فكرر بآلية ورتابة وخوف:

- فرع فلسطين؟

– فرع المنطقة لا علاقة له بهم.. انقلعوا من هنا..!
– انتهت مهمتنا، وسنعود إلى الدير ثانية.
– قلت لك انقلع أنت وإياهم إلى فرع فلسطين.. ولكن انتظر.. هل معكم دخان زيادة؟ نحن مقطوعون من الدخان..

ماذا أقول؟ الثورات التي حلمنا بها طويلاً في الماضي، وأورثتنا الأمل بأن نُغير ونتغير، لم تتأسس إلا في لحظة ارتجال أقرب الى النزق، فكانت كالزبد الطائف على وجه سيلٍ لا اتجاه له، ولا معدلات حركة جارفة. فمن المُتَعذّر أن تخطف المجتمع، أو تتناوله في حمأة خيالات مجنونة، وحشوة خرافات متهافتة.

ها نحن إذاً قد امتلكنا اليوم حقَّ ان نُستعبد إلى الأبد. وأن نَستعبد بعضنا إلى الأبد. وأن نظل شعباً مُستَرَقّاً ومستغلاً، كمهرج السيرك الذي يظل يلوب في متاهات غير الممكنات. مقابل أن يستعطي جزاءً وأجراً. يواجهنا في كل ذلك، طغيان هذا العالم وفتكه الذريع المستمر بنا، ونحن ضارعون: "خذوا حريتنا.. لقد تنازلنا عنها. فقط استبقوا لنا ذلك السحر الغامض الذي نتقوت به، ونعيش من أجله. استبقوه لنا قبل حلول الظلام".

وحين تفقد الشعوب حقها في مقاومة الاستبداد، وتُفَوّت على نفسها كل فرصة لمقاومته، سوف تُعطى عملاً بديلاً، تشتغل عليه الأنفس والعقول والقلوب والمواهب: أن تثرثر بلا طائل، وأن تستهلك العمر في عد النجوم، وأن تفخر بما هو ليس لها، وما هي ليست أهلاً له.

وعادت شاحنة الزيل العسكرية أدراجها، وهي تصرُّ صريراً منكراً في الساحات والشوارع الدمشقية، حتى توقفت أخيراً عند محطتها الأخيرة. وسمعنا صوتاً ينادي بلهجة آمرة:

– أنزلوهم على مهل.. واحداً واحداً.. وسوقوهم جميعاً إلى زنزانة القبو.

كيف يُستعاد الطفل الحقيقي من أمه المستعارة، ويرد إلى أمه الحقيقية؟ بدائرة طباشير قوقازية جديدة؟ ليكن إذن. ولتكن هذه الدائرة عملاً بطولياً شجاعاً. سيستفيق التاريخ مرة أخرى وهو ينزف دماً، ويذرف دموعه دماً. وهل استفاق تاريخ شرق المتوسط، يوماً ما، استفاقة؛ إلا وهو يُهَوُّم تهويمة شبحية، وينضح دماءً كالجداول الدفاقة؟ وهل سينهض

الناس من سباتهم؟ أم سيستفيقون كما يستفيق الموتى من رقادهم؟ ويبصرون أن من كانوا يتعبدون في محرابهم ليسوا سوى آلهة من زجاج..! أو من الخزف الرديء الهش، والفاقد الصلابة؟

دخلنا زنزانة القبو. كان العدد مكتظاً، ولكن مهما كان الأمر سيئاً، حيث لا نافذة ولا إضاءة، إلا أنه هوَّن علينا أخيراً أنهم فكوا الأغلال الموثقة عن أيدينا وأرجلنا، وحشرونا حشراً، ماعدا الشخص الميت الذي ذهبوا به، لا ندري إلى أين، أول نزولنا من الشاحنة. حتى أصبح حجم الزحام لا يطاق داخل تلك الطبقة الأرضية التي تشبه قبراً محجوباً عن المكاتب وبقية الزنازين التي يوصَل إليها عبر درج ضيق قديم، متآكل ومتسخ، بيد أن الأمور كانت انفراجاً ملحوظاً بالنسبة للجميع، فوجود دورة مياه إلى جانب القبو، كان ترفاً، ورفاهية يصعب تصديقها.

عليك أن تقوم بالبادرة، وأن تضحي أولاً. ستجد الآخرين يتبعونك ويلتفون حولك. هذه حكمة قديمة ووصفة مجربة. إذا كنت تخشى الذئاب فلماذا ذهبت تحتطبُ في الغابة؟ فنحن نحيا في صحراء قاحلة رغم كثافة الأشجار من حولنا، واكتظاظها بالثمار والأزهار، والمُعَرَّف لا تستطيع "الـ" التعريف أن تعرفه، المُعَرَّف يبقى نكرة حتى يجمع العلماء، والناس جميعاً على تعريفه. والأمل معقود على أن تُمطر السماء نسياناً ينسينا كل شيء، مما كان قبل.

لقد تذكرت الآن. قبل أن يلقوا القبض علي، سألتُ أحد أعز أصدقائي سؤالاً:

– إنني أتلقى معارفي السياسية جميعها من الأستاذ إسماعيل..

– وأنا أيضاً.

– هل تظن بأن هذه سذاجة منا كلينا..؟ وسلوكاً سطحياً؟ قال:

– الأستاذ في التدرب على استعمال السيف، قد لا يكون محارباً جيداً، ومدرب الرقص قد لا يكون راقصاً بارعاً. قلت:

– نعم.. هذا مفهوم وصحيح.. أضاف:

– والمِشْحذ الذي يسنّ السكاكين.. قطعاً لا يقطع..

كان العجوز أبو إبراهيم، الذي رافقنا في سيارة الزبل، والذي كنت أراه وأتعرف عليه لأول مرة، هو أول من تشجع وشجعنا على الانطلاق

في التحدث مجدداً، بعضنا إلى بعض. راح يفرك معصميه المتورمين من حديد "الكلبشات"، التي خلفتها رحلة شاحنة الزيل العسكرية. وبضحكة مرنانة قال ساخراً:

– "عَ هدير البوسطة.. الكانت ناقلتنا.. من ضيعة.."

وابتدأ رئيس مهجع زنزانة القبو في فرع فلسطين، يخطط بالشراكة معنا الأمكنة المتقاسمة بالسنتيمتر، للوقوف والجلوس والنوم ليلاً، حسبما تحتمله مساحة الزنزانة التي تشبه القبر..!

– 3 –

لا أتذكر اليوم؛ أأنا من تعرف على العمل السياسي أم العكس؟

لعل ذلك جاء في مرحلة قريبة جداً من بدايات يفاعتي الأولى ومراهقتي، وفي سن غير معقولة أبداً لإدراك أي وعي، أو امتلاك أية حاسة سياسية، أو إحاطة بأية خبرة عملية أو معرفية بها. هذا أمر أستطيع تأكيده بسهولة. ولا تبعد هذه المرحلة عن مرحلة تكوني الدراسي، في الصف السابع أو الثامن، في مرحلة الدراسة الإعدادية.

أستطيع أن أتذكر اليوم المؤثرات الأولى، التي عملت على تسويغ واستحباب الانصراف الكلي إلى السياسة. ربما كان لوالدي الذي كان دائم النقمة والكراهية للسلطة الحاكمة، بشكل خاص، بل ولجميع الأنظمة الحاكمة في المنطقة العربية والشرق الأوسط عامة، الدور الحاسم في تصميم ذهني على نسق من التعاطي مع الأداء السياسي وفعله. ليس في هذا ما يفاجئ أو لا يفهم. لكن المكان – مدينة الرقة – كان له خاصية الدفع الحثيث، والمشجع لكل أنواع النشاطات يومذاك، بسبب ما تمتلكه الرقة من بساطة.

هي خليط بين مدينة شبه بدوية رعوية، وبين شبه قروية، وشبه مدينية. مدينة مدمنة على الطيبة والبراءة المطلقة، كالمسيح شبهاً من بعض الأوجه، إلى حد يجعلك تغتاظ منها لإفراطها في تلك الوداعة الطفولية، وداعة الملائكة.

لقد حسبتُ في لحظات، وأنا ما زلت أقرب عهداً إلى الطفولة، أنها الأكثر شبهاً بباريس عشية الثورة الفرنسية، أوسان بطرسبورغ عشية

ثورة أكتوبر، كما تخيلت وتوهمت لحظتئذٍ. لكنه كان ظناً فاسداً خائباً، خيبة الخواء الذي آلت إليه مآلات الأمور.

ولدت في الشهر الأخير من عام 1957 في الرقة، وثبَّتَ والدي قيودَ ولادتي المدنية في تاريخها الحقيقي، رغم أن والدتي عارضت ذلك، واقترحت عليه أن يثبت قيودي في أول العام، من سنة 1958، لكي "لا تضيع على الولد سنة من عمره" كما كانت تقول. ولست أدري حتى اليوم، لو أن والدي سايرها واستجاب لها في هذا الأمر، كيف كان يمكنني أن "أكسب سنة من عمري!؟" وأحَسَنُ ما في الأمر، أنه لم يفعل.

كان هنالك من المؤثرات التي تغري الفتى بالانغماس في حمأة العمل السياسي، والانخراط فيه في تلك المرحلة، هو ذلك الطيف الكبير من نشطاء الحركات السياسية الكثيرة، المتعددة، المختلفة. لقد كان ذلك العدد الضخم جداً، من الشباب والفتية والرجال الكبار المسيسين، المعارضين للبعث، ولنظام حكم الأمر الواقع في سورية، أكبر بكثير من أن تحتمله مدينة صغيرة كالرقة. أستطيع القول، وأنا مرتاح جداً من إقراري هذا، بأن الرقة كانت تنطوي على عديد أحزاب وجماعات وتكتلات سرية، ربما ينوف على بعض المدن الكبرى في سورية.

لقد استوعب المجتمع كله، في فترة مبكرة من ظهور البعث، واعتلائه السلطة، أن الحق الوحيد المتاح له في الحرية والكرامة الإنسانية، في هذه البلاد المتوحشة، هو حق شمّ الهواء العليل، والاستمتاع بزرقة السماء الصافية، لا أكثر.. دون إكراه وإجبار.

الآن شوَّلت شمس حياتي، ولستُ أعدُّ تجميع الذكريات عن ثورتين؛ الأولى بدأت عام 1979، ولا أدري متى ولا كيف انتهت. والثانية بدأت عام 2011، وأيضاً لا أدري متى ولا كيف انتهت. أقول: لا أعد توثيق الأحداث المفصلية في حياتي، عملاً أدبياً، من جنس الروايات التاريخية التوثيقية. فنحن السوريين، لا نصلح للتاريخ، يكتبنا أو نكتبه. ولا هو كذلك بالاسترجاع الذي يشبه السِير الذاتية. فضلاً عن أنني لم أحب يوماً ذلك النوع من الكتابات التي تسمى سيراً ذاتية، أو قصص الحياة الشخصية للمشاهير. كذلك أيضاً، نحن السوريين، لسنا أشخاصاً مميزين بما هو ملفت، ولسنا مشاهير، ولم نعرف من الحياة إلا كل ما هو كئيب ومضجر ومتصحر، ولا من المجد إلا

سردياته التي تصلح للتغني والتآليف، أكثر مما تصلح لأن نتذوقها، أو نشتم عبقها وعطرها الزكي.

فلا ينتظرنَّ قارئي مني أن أسرد عليه: لا سيرة شخصية، ولا تاريخاً متماسكاً لبلد غير متماسك، ولا رواية من روايات الأدب الممتعة التي تفعم قلوب القراء. لا شيء من ذلك كله. حتى مشاهير الرجال الذين تورطوا في هذا النوع من الكتابات، كانوا دوماً عرضة لخطر الاستشعار بالأنا العميقة، أو انزلقوا في منزلقات الإغراق في النزعة الذاتوية الطافحة. لاسيما أن الإنسان بطبعه مفطورٌ على شهوة الحديث عن نفسه، ومغرى دوماً إغراءً بالتحدث كثيراً عن ماضيه وذكرياته ومفاخره. هذا ما كان يثير في نفسي الامتعاض والسأم والتضجر، من مجرد الاستماع أو القراءة في كتب، تدور حول دوائر حلزون الذات التي تسمى (أنوات) أو سيراً ذاتية. بل إن الإغراء، باختصار شديد، أصبح يختص بشيءٍ اسمه مضمون تلك الرحلة من الحياة، أو الفكرة العميقة القائمة وراء أحداثها.

ربما كنا في الشرق عامة، وفي سورية خاصة، لا نجد كبير فرق أو تمييز بين هوس الإنسان، ودينه الخاص به. وأعني بدينه: ذلك الشيء العميق العميق في نفسه الذي ما إن تتوافر النفس على نزحه من قاع بئرها العميقة، ولجتها الدفينة، حتى تُنَضِّدَ فلسفتها الخصوصية النهائية، بوصف هذه التجارب وهذه الحياة الخاصة، هي ذلك الشيء الوحيد الذي قاله، أو الذي فعله. كموقف نهائي من تلك الحياة الخاصة والعامة.

بداخل قبو التحقيق في فرع فلسطين، واجهتني أولى المشاكل غير المحسوبة، ولا المفطون إليها. كان هنالك شاب في مثل عمري لا يتجاوز الثالثة والعشرين، قد تفطر جسده من التعذيب المستمر، اسمه عدنان مستو. وبحكم أن موضع رقدته كانت حداً طبيعياً بيني وبين شاب آخر، لم أكن قد تعرفت عليه، فقد كان لزاماً، من باب الواجب، أن نكون أنا والشاب الآخر، الذي أخذ موضعه على يمين عدنان مستو، أن نظل في حالة تشبه الاستنفار، وبصورة دائمة في مساعدة الشاب الجريح والمتهالك، والذي لا يقوى على النهوض، أو حتى على تعديل هيئة نومه وضجعته. فكنا نتبادل مناوبة التوقيت على الاعتناء به أحياناً، والمشاركة في مساعدته على الطعام، أو على الدخول إلى الحمام.

قال الشاب الآخر، فؤاد:

– أرى أن نجعل لنومنا، أنا وأنت، توقيتاً معيناً، نتبادل فيه الأوقات، للعناية به في الليل. أما في النهار، فالأمر لن يحتاج إلى توقيت. جميع من في الزنزانة سيسعون لمساعدته.

كان صوت عدنان ينوس نوساً كمن هو في النزع الأخير، وهو يتحشرج ويئنُّ من الألم، قائلاً لنا، أنا وفؤاد، كمن يتحدث إلى نفسه:

– لن يطول عذابكما كثيراً معي. أعتقد بأنهم سوف يصفونني جسدياً، حتى قبل أن يحين موعد ترحيلي إلى سجن المزة، وقبل أن أُعرَض على المحكمة الميدانية.

– لا توسوس كثيراً.. سوف تتعافى وتتحسن.. أنا واثق من أنك لن تموت.

– قاومتهم قبل أن يعتقلوك..؟

هز رأسه هزة خفيفة، مشيراً بتأكيد. ثم أضاف:

– لم يتمكنوا من اعتقالي إلا بعد أن حطم رصاصُهم جسمي. وبعد أن قبضوا عليّ، اقتحموا منزلنا، واعتقلوا كل من كان في داخله. بمن فيهم أبي وأمي وشقيقاتي البنات.

قال له فؤاد:

– طول بالك، لا تتشاءم كثيراً. سمعت بقصص كثيرة تشبه قصتك، وعرفت قضايا أسوأ من قضيتك، ومع ذلك..

– عثروا على كمية من الأسلحة كانت مخبأة في المنزل.. و..

ألمحت قبلُ، بأن أولئك الناس الذين يتاح لهم أن يعيشوا حياة هانئة وسعيدة، عادة لا يكتبون شيئاً عنها، بل يعيشون تفاصيلها السعيدة فحسب، ولكن لا يعني ذلك أن الأشقياء والتعساء في هذه الدنيا، هم وحدهم، من يسردون تجاربهم ويفضون إلى كتابتها متأخرين. ليس في هذه التقابلية، لا دقة المعنى، ولا دقة الحقيقة، بل الأصدق أن فحص مضمون هذه الحياة واختبارها كفكرة، هو الذي يشجع على كتابة بعض مراحلها في حياتنا، وليس (الأنا) الشخصية التي تحاول أن تنحت في صخور أيامها المندثرة، وذكرياتها الغابرة، ما يمكن أن تُصَنِّع منها تمثالاً ذاتوياً، لتخلده وتعبده.

الآن، وأنا أبدأ بكتابة هذا الشيء الذي لا اسم له. هذا الذي يشبه

بعض السير الذاتية، تكون قد انقضت ثورتان عابرتان في تاريخ سورية الحديث. كلا الثورتين قامتا ضد نظام واحد، وديكتاتور واحد، أورث كامل مهامه وسلطاته لابنه ليسير في مساره إلى آخر الشوط في إبادة شعبه. ولقد أورث لذاك الابن، شبه المعوَّق والمعدوم الضمير والذكاء والمواهب، مهام استكمال ما لم يتمكن الأب الطاغية من تحقيقه في حياته.

لقد اختبر النظام الفاشي تلك المهمة، وحملها على عاتقه، كما اختبر كيف يروِّضُ شعبه الأعزل، وكيف يصل به إلى مسيرة الإذلال، حداً لم يعرفه ديكتاتور من قبل، ولا عانى منه شعب مثلما عانى منه الشعب السوري. ولقد وَقَرَ في نفسي، وفي أنفس بعض تلك المجموعة القليلة، التي أطلق عليها مسمى مجموعتنا واجتمعت حول مبادىء خاصة بها منذ وقت مبكر، أن هذا النظام هو قرين العدم والموات القادم.

– 4 –

لا أدّعي أننا، أنا ومجموعتنا، كنا أجلى فهماً مبكراً لما حدث لهذه البلاد، بعد انقضاء أربعين عاماً مضت قبل اليوم، وليس لديّ الكثير لأقوله أو أفسره حول هذه النقطة بالذات: نبوءتنا المبكرة في أن هذا النظام، الذي يشبه الأفعى العملاقة المرعبة، التي تلتف حول سورية، سوف يأتي عليه حينٌ من الدهر، يلتهم البلد وسكانها، ويبتلعهم دون شفقة. ولقد فعل حقيقةً ما كنا توقعناه.

ولست أدري إن كان في هذا بعض ذكاء سياسي، أو جلوة نبوءة صوفية باطنة، تنبأت بالمصير الذي انتهينا إليه جميعاً في وقت مبكر جداً. هذا ما لن أخوض في تفسيره. إن استشعار بعض الكائنات الحية بوقوع الزلازل مبكراً، لا يمنحها حق الادعاء بأنها أذكى من بقية المخلوقات، بل لعل الأصدق في الأمر أن متراكبة رادارها، وحسَّها البنيوي بالأشياء، هي طبيعة كامنة فيها. ليس في هذا كبير غرابة.

كان صوت عدنان مستو يبدو ويختفي. وجسده ينطفئ بسرعة قصوى، وبأكثر مما كنا نتوقع أو نقدر. وقبل أن ينقضي الأسبوع الأول في زنزانة القبو، جاء الحرس ليلاً، وفتحوا الباب، فهب جميع من كان في الزنزانة واقفاً، كما جرت العادة. وسرعان ما هتفوا باسم عدنان،

وطلبوا منه أن يرتدي ثيابه ويمضيَ معهم. لم يكن عدنان يملك شيئاً يرتديه، زيادة على ما كان يستر بدنه. أخبرناهم بأنه لا يستطيع السير لأن أقدامه محطمة، ولا يستطيع حتى أن يستعين بيديه على الوقوف أو الاتكاء، فطلبوا منا أن نحمله في بطانية، حتى نهاية الدرج الموصل إلى ملتقى نهايات الزنازين بأطراف المكاتب، وأن نضجعه في الممر المفضي إلى مكاتب التحقيق.

وفعلاً، فقد حملناه ونقلناه في بطانية، وتركناه مسجى في الممر. ثم عدنا، وعاد بعض الحرس، وأطبقوا رتاج باب الزنزانة ثانية، ومضوا. كانت هذه المرة الأخيرة التي نرى فيها عدنان، حيث لم أعثر له على أثر أو خبر.

لقد مات العديد الأكثر من الرجال الذين عرفتهم، والذين أعتز بهم وبصداقتهم، وأقعد المرض واليأس عديداً آخر، وغَيَّبَ النزوح والهجرات طائفة ممن عرفت، دون أن أغفل أن كثيراً ممن لقيت وعرفت، من أهل التجارب الذين كان لي صلة مباشرة وعميقة بهم، لم أعد أسمع بهم، أو أعرف شيئاً عن مصائرهم، وأين انتهت بهم الأحوال. نعم، فإن الكثيرين منهم باتوا اليوم، بالنسبة إليَّ، مجهولي المصير والعاقبة، ولست أعلم إن كانوا ما يزالون أحياء، أم غيبهم الموت.

المجتمع تطور، والعالم تغير، والحقائق باتت أكثر سجالية، وفي حركة دائبة، مستمرة، بات دعاة الشمولية السالفون، اليوم يصرحون علناً، ودون خوف أو حرج، بأنهم طلاب حرية وديمقراطية. هذا كسب لا يستهان به. جميع السوريين اليوم، أصبحوا، لا مطلب لهم ولا منشد أو منتجع، إلا واحة الحرية وظلالها.

قال لي فؤاد، وقد قرب موضع نومه بعد ترحيل عدنان، حتى صار جاري في الجلوس والمبيت، ملاصقاً للزاوية التي كنت أنام فيها:

– أظن أننا لن نراه بعد اليوم.

وكان يتحدث عن عدنان. ثم أضاف محذراً:

– انتبه كثيراً من ذلك العجوز الذي لا يصمت أبداً عن الكلام عن نفسه، وكيف اعتقلته دورية الأمن. احذره..

كان العجوز يحكي بصوت مرتفع:

– لقد خطفوني من مزرعتي وجلبوني إلى هنا؟

– خطفوك؟ أأنت إنسان أم راديو ترانزيستور؟
سأله أحدهم من جواره..
– المسألة كلها لم تكن تتعدى بعض الشتائم والمسبات، التي لم أكن أتحرج من إطلاقها على الملأ.
– أنت شجاع جداً.. شجاعٌ أكثر مما يجب.
– هذه أول مرة أسمع فيها بصدق، مثل هذه الإطراء من إنسان.
– أنا لا أمزح.. أنت فعلاً أشجع كثيراً مما أتصور.
– لست شجاعاً كما تظن. لكن أهل الأمثال كانوا يقولون في السابق: يا روح ما بعدك روح، والميت لا يموت مرتين.
ثم قرب فؤاد فمه من أذني، وهمس قائلاً بحيث لا يسمعه الآخرون:
– أتوقع أنا أيضاً، أن يأتوا فجأة دون إنذار وينقلوني من زنزانتكم. كل العجب أنهم سمحوا باختلاطي معكم كل هذه الفترة. قبل ذلك مكثت حوالي ستة أشهر في زنزانة فردية، في فرع التحقيق العسكري، والعجيب أنهم لم يسألوني أي سؤال. ولا حتى بدؤوا تحقيقاً معي.
– غريب فعلاً.. ماذا تظن؟
– أتوقع أنهم لن يفعلوا.. ولكنني لا آمن على نفسي من أن يقوموا بتصفيتي.
– مسلح..؟ أم قضيتك سياسية؟ أم.. كتم معلومات..؟
– لا هذا ولا ذاك.. إذا حصل معي أي شيء، أتمنى أن تكون على اطلاع وبينة من قضيتي، لأنني أتوقع أن يخفوا كل أثر لها بموتي الوشيك، كما أتوقع.
– مرعب ما تقول.
– لا مرعب ولا.. هذه هي الحقيقة.. سأقول لك بصراحة: أنا درست في الاتحاد السوفياتي موفداً على حساب الدولة السورية، وحصلت على الشهادة الجامعية من هناك. لكنني بعد عودتي تابعت تخصصي في جامعة دمشق.. القضية أن بعثتي الدراسية تحققت بمساعي رئيس الوزراء السابق.
– خليفاوي؟
– نعم. ارتبطت بصلة وثيقة به، عن طريق أحد أصدقائه المقربين، وكانت كل هذه الصداقة قد حصلت بتدبير وتخطيط من ضابط أمني

كبير، رفيع المستوى. بعد تدريبات ودروس خاصة، كانت شاقة ومجهدة، علمت ما المهمة المطلوب إنجازها. يجب أن أتقاسم مع الرجل علاقة حميمة..!

– رئيس الوزراء؟

– نعم.

– وقبلت؟

– لم يكن ثمة مجال للرفض، فلقد هددوني تهديدات ما كان ليصمد إزاءها أي إنسان آخر.

– ولماذا.. فعلوا برأيك؟

– أرادوا تصويره بكاميرات خفية، زرعوها في مزرعته وبيته، وفي فندق كنا نتقابل فيه.

– وحصلوا على أشرطة مصورة؟

– خلال أكثر من سنة ونصف.. جمعوا قدراً من أفلام تستوعب مسلسلاً تلفزيونياً.

– ولكن لماذا؟ ما غايتهم من الحصول على هذه الأشرطة؟

– حتى الآن لا أدري.. ولست أفهم ما الذي كانوا يبغون من الرجل القوي، الذي دعموه بكل ما يملكون من قوة.

وغرقنا في صمت يشبه كآبة هبطت علينا. كلانا كان يعلم أن فؤاداً لا يستشعر تلك المخاطر على حياته عن عبث. ولكنه، انتحى جانباً حتى خُيِّل إليَّ أنه يوشك على الانخراط في نحيب مفاجئ. لكنه بدلاً من البكاء، همس أخيراً يقول:

– حتى لا تظن بي ما قد تحملك عليه خيالاتك وتصوراتك؛ أحب أن ألفت انتباهك لمسألة جوهرية في القضية.. أنا كنت "الفاعل" في الأشرطة المسجلة وليس "المفعول به".

وبعد صمت قصير، سألته:

– ولكن لماذا أنت متأكد أنهم جاؤوا بك لهذا السبب؟ طالما أنهم لم يفاتحوك بأية تهمة في فروع المخابرات نهائياً..؟! ألا يُحتمَل أن تكون متهماً بتهمة أخرى، لستَ على بينةٍ منها حتى الآن..؟!

رد على الفور، وهو يكاد يضحك من سذاجة قولي:

– لا.. أنا أكيدٌ من سبب جلبي إلى هنا. مثلما أنا على يقين من أنهم

لن يتركوني بسلام، لن يسألوني شيئاً مما جرى، لكنهم لن يخلوا سبيلي. طالما عشتُ ومعي هذا السر. أنا واثق من ذلك.

عقب ليلتين بعد ذلك الحديث، جاؤوا بعد منتصف الليل. ومن كوة الباب الحديدي لزنزانة القبو، نادوا بصوت عالٍ على فؤاد. وحين نطق بالقول: "حاضر"، قالوا له:

– هات معك أغراضك الخاصة، إن كان لك. واقطع صلتك بالمهجع وتعال معنا.

ذهب مخفوراً مع الحرس، ولم أسمع به بعد ذلك اليوم البتة.

– 5 –

بعد أقل من أسبوعين، كان التحقيق قد انتهى مع معظم الأفراد الذين كانوا محشورين في تلك الزنزانة الجماعية، زنزانة القبو في فرع فلسطين، فتحوا باب الزنزانة نهاراً، في وقت قريب من العصر، وراحوا ينادون على أسماء معظم أفراد تلك الزنزانة الجماعية بصوت عالٍ، ولمّا اكتمل العدد، طلبوا من الجميع أن يُحضِّروا أنفسهم ويستعدوا للرحيل إلى مكان آخر.

كنا نعلم مسبقاً، من خبرة من سبقونا، وممن باتوا على بعض دراية ومعرفة بنسق النظام العام الذي يجري على مراحل متسلسلة، أن المكان الذي سوف نذهب إليه، هو سجن المزة العسكري، كما بدأ الهمس يتردد بين المعتقلين. ولقد شجعَنا، بما يشبه أن يكون تهنئة وجدانية، بعض ذوي الخبرة وأهل المعرفة بطبيعة تلك الأمور، قائلين للجميع:

– مهما يكن من أمر، فإن الأوضاع في سجن المزة أفضل بكثير من هذا القبر الجحيمي الذي لا يطاق.

قبل اعتقالي بثلاث ليالٍ تذكرت تلك الليلة.

كانت ليلة ليلاء حقاً، وكان حلماً مدهشاً مرعباً، فطنتُ له في زنزانة القبو تلك. فطنت للمنام فجأة، إذ كان أحدهم يتساءل مستفهماً:

– وبعد سجن المزة.. ما المتوقع برأيكم؟

– سجن المزة، هو الآخر مستودع مؤقت للمعتقلين الجدد. لأنه سجن

صغير، لا يتسع للأعداد الكثيرة من المعتقلين. سوف تقضون فيه بضعة أشهر، ريثما يتم تحضيركم للمحكمة الميدانية العسكرية، في فرع آمرية الطيران. ثم تُجلبون بعدها إلى المحكمة الميدانية والقاضي الميداني العسكري، وبعد أيام أو أسابيع سوف تُبلغون الأحكام الصادرة بحقكم. ثم..

– ثم ماذا؟

– ثم ينتهي كل شيء.. سوف يعدمون من يحكمون عليه بالإعدام، ويُرَحِّلون الباقي إلى سجن صحراوي.. يقع في نهاية العالم..

– نهاية العالم؟

ألفتُ في السنين التالية من حياتي أن أسمي ذلك المنام بـ "منام الأفعى". تلك الليلة، أويتُ إلى فراشي باكراً على غير عادتي. كنت قلقاً ومنهكاً، وأعيش حالة من الهمود وعدم اليقين، والريبة مما كان يجري حولي.

تمددتُ في الفراش، وفتحتُ صفحة الكتاب الذي كنت أقرأ فيه. فإذا بي أغفو فجأة خلال دقائق. لم تكن غفوة عادية، قدر ما كانت هفوةَ مَوَاتٍ خاطف، غشي القلب والعين، وكلية المشاعر والأحاسيس المتناوبة. رأيت باب الغرفة – وأنا ثاوٍ في مضجعي ومتدثرٌ باللحاف – وقد انشق عن انفتاحة بسيطة، ثم سعت ناحيتي، وباتجاهي مباشرة، أفعى طويلة، يصل طولها حسبما أتذكر، إلى أكثر من خمسة أمتار. ويبلغ غلظها قريباً من غلظ معصم اليد العادية. وهي تهدرُ وتنسرب انسرابة الريح، في مثل سرعة مخلوق عاصف غاضب، تكاد في سرعتها تمحو المسافات التي قطعتها باتجاهي.

هناك جوعٌ مُفْظِعٌ للنهايات التي لا تبلغ نهاياتها. وهناك عطشٌ أشدُّ إفظاعاً منه للأفق الذي لا يأتي ولا يُنال. وهناك قشعريرةُ خوفٍ من إرباكات عمل أي شيء، ومن تخشب الأمل. وهناك كلُّ شيءٍ يشيرُ بالأصابع إلى اللاشيء. وهناك ينكفىءُ صهيلُ الخيلِ وينكصُ زهوُ الشبابِ ومَيْعَتُهُ إلى رجفة الشيخوخةِ وزمهرير الموت. وهناك حطبٌ جَزْلٌ يُرَاكَمُ للحريق. وجزعُ الغريقِ حين يعجزُ أن ينقذَ صاحبَهُ الغريق. وهناك كلُّ آلاءِ ربكم حين تُصَدِّقون وحين تُكَذِبون. وحين تُمسون وحين تصبحون. وهناك سوريون لا شيء قبلهم. لا شيء بعدهم. لا شيء معهم. لا شيء يسمعهم. لا شيء ينظرهم. لا شيء ينتظرهم. وسوى السوريين في هذا العالم، لا شيء هناك.

انسلت الأفعى انسلالاً خفيفاً لا مهادنة فيه ولا تردد. ثم راحت تلتف حول العنق. ثم اشتدت في التفافها حول البطن والصدر، ثم غمرت سائر الجسم غمراً خانقاً منكراً، حتى صرتُ في جوفها، مثل محارة غاطسة متكوّمة على نفسها، وهي تلتفُّ حول أضمومة حبل غليظ وطويل جداً، وقد جعلت تلتف وتشد الوثاق، وهي تضغط ضغطاً بئيساً، حتى أوشكتُ أن تُزهَق روحي، وأن ينقطعَ نَفَسي من هول ضغطها الشديد.

وفي محاولة مستميتة لأن أصرخ، أو أطلب نجدة من أهل بيتي في الغرفات، انقطع الصوت وخمدت كل نأمة، وكلُّ استجابة لطلب النجدة كيفما اتفق، وفيما أنا أعتصر وإياها عراكاً متبادلاً، حيث لا تكافؤ فرص في القوة فيما بيننا، وفيما جعلتُ أخمد وأتهاوى مستسلماً لها، وهي ماضية في ضغطها على جسدي حتى النهاية، التي تأكدت أنها سوف تكون خنقاً وشيكاً، لم يعد يفصلني عنه سوى ثوانٍ معدودات، إذا بي أهب هبَّةً مفاجئة من الفراش، وقد استفقت استفاقة أنهت الكابوس وختمته، وأنا في موقف يكاد يقع بين الموت والحياة.

في فرع فلسطين كنا نعد الثواني والدقائق والساعات، في انتظار تبليغنا لحظة السعادة الكبرى في الحياة: لحظة ترحيلنا إلى سجن المزة العسكري. وفي المزة كان التهديد مستمراً فوق رؤوسنا، ليل نهار تقريباً، بأن أي خطأ أو مخالفة، سوف تعيدُنا مرة أخرى إلى فرع فلسطين.

فيما بعد، وفي سجن صيدنايا الذي سوف أتعرف عليه بعد أكثر من سبع سنوات من تلك اللحظة، كانوا يهددوننا يومياً على وجه التقريب، بأن ارتكاب أي خطأ أو مخالفة تغضب "المساعد نزيه"، أو مدير السجن، سوف تكون نتيجتها إعادتنا إلى سجن تدمر. كنا نُصَدِّق، وكان ذلك التهديدُ يُجَمِّدُ الدمَ في عروقنا، ويثير في أنفسنا الوجع والمواجع، ويحرك في قلوبنا المخاوف. حتى تستحيلَ وجوهُنا إلى الصُفرة.

وكما كان أهلونا يهددوننا حين كنا صغاراً، بإلقائنا في "جب الفار"، إذا ما تصرفنا بخطأ أو بقلة تهذيب، كذلك كنا نصدق ونحن صغار، وكنا نصدق ونحن كبار. الخوف والتهديد شريكان، ورفيقا دربِنا في هذه الحياة، من المهد إلى اللحد.

أن تكون سورياً، يعني أن يكون التشاؤم والتفاؤل متساويين في

ميزانك. وأن يكون الحزن والفرح في ميزانك واحد. وهو باب من أبواب الغموض، لم يفتحه الله فيما سبق لبشر من قبل. ولا أعتقد أنه سوف يفتحه في المستقبل لبشر أبداً. ففي هذه البلاد التي اعتدتُ عليها واعتادت عليَّ، وألفتها وألِفتني، وأعلنتُ عليها الحبَّ فيما أعلنتْ هي عليَّ الحرب، لست أدري ما معنى البكاء، وما بواعثه وأسبابه. حتى الورقة الصفراء التي تسقط في خريف بلادي من شجرة، كنتُ أحسُّ بها تخاطبني قائلة: امضِ في البكاء من أجلي، فإنني أستحقُّ دموعك. فإن لم تبكِ فتباكَ، وإن لم تسعفْكَ دموعُ العين، فيكفيني منك دموعُ القلب. قطِّرْها قطرةً فقطرةً بين صفاق الشغاف. واجعلْ من الدموع بحيرةً تتذكرُها عندما ستُلوحُ بيديك للوطن الأخير، تلويحة الوداع الأخير. وحذارِ، ثم حذارِ أن يَهْمَدَ القلبُ أو يستكين، فإن خفقَه حفظُ أمانة. وهمودَه محضُ خيانة.

في سجن المزة العسكري، كان يتوجب عليّ أن أعد ثلاثة أسابيع أولى. لأنني سمعت ذات يوم خرافة تقول: إن الإنسان يبقى كائناً غير متلائم مع السجن، وبنيته النفسية والجسدية تظل مثل بنية أي كائن غير قابل لاحتمال السجن، حتى تمرَّ الأسابيع الثلاثة الأولى. بعدها تتحول الفيزيائية والكيميائية والجينية لديه تحولاً غير مدرك، إذ تتحول بنيته النفسية تحولاً جذرياً، ليصبح كائناً مفتوح النفس والعقل والجسد، على كل الاحتمالات المتوحشة المتخيلة.

يا للإنسان كم يختزن من أسرارٍ؛ لو انفتحت عليه فجأة، واطّلع عليها رأيَ العين والقلب والعقل، ربما لتغير سيرُ قاطرة الحضارة بصورة جذرية..!

بعد ذلك التاريخ بفترة، وفي سجن تدمر العسكري، ولد في نفسي سؤالٌ إشكالي معضل، بدا وكأنه لا جواب عليه. أو أن الترقي العلمي، والخبرة المعرفية الطويلة بتفاصيل الجسد الإنساني وأسراره، لم تتوصل إلى معلومة علمية حاسمة في الجواب عليه. سؤالٌ بات كالهاجس في نفسي، مؤداه هو: كم هي قدرة الإنسان القصوى على احتمال التعذيب..؟! ثم تعقدت الإشكالية أكثر، حين توَّلد من السؤال نفسه سؤالٌ آخر: كم هي قدرة الإنسان القصوى على أن يحتمل ممارسة إيقاع التعذيب بإنسان آخر؟

الواقع أن السؤالين لم يخطرا ببالي قبلُ، واكتشفت أن فرق الخطأ

في التصور لا يستهان به، فبين تقديراتي السابقة للمسألة، وتقديراتي لما رأيت بأم عيني، بدا وكأن الفارق ليس ضِعفاً أو ضعفين أو ثلاثة، بل ربما كان بمئات الأضعاف. وحتى هذه اللحظة لم أتوصل إلى جواب ولا نتيجة، ولا أعتقد أنني سوف أتوصل يقيناً.

– 6 –

رأيتُ كثيراً من الأشخاص يُجلدون على مركز العينين ومساحتهما حصراً، ولساعات طويلة، وبكبل غليظ، في غلاظة معصم اليد، كبلٍ متين، قادر على كسر العمود الفقري لحمار. بحيث يحول الوجه والأجفان وحواف العين، إلى كتلة متفحمة من السواد بحجمٍ أصغر من كرة القدم بقليل. والمثير للجنون حقاً، أن أكثر المعذَبين كانوا يُشفون خلال شهرين أو ثلاثة بصورة طبيعية، وبدون أي علاجٍ من أي نوع كان. كذلك فقد بات معظم السجناء، يرون الأمر عادياً، لا يستحق حتى مجرد التفكير فيه أو الاهتمام.

لو كنت أمتلك في تلك الأيام أوراقاً، أو دفتراً وقلماً، ومتاحاً لي أن أكتب ما أرغب وأشاء من ذكريات وانطباعات، لكنت قد سجلت أربع ملاحظات مهمة، كما أتوقعها اليوم؛ وما زلت أجد حتى اليوم أنها ماتزال محفورة في ذهني رغم مرور تلك السنين. أربع ملاحظات سوف تؤكدها الأيام والأشهر والسنون القادمة التي سوف أمضيها، ولم أكن أتوقع يومذاك، أنني سوف أمضي كل ذلك الوقت.

أولها: أن أكثر القادرين على التعامل مع توحش السجن ولا إنسانيته، وأشدُّ صلابة من يصمدون حتى النهاية، ويبدون حراناً وعناداً تجاه السجن، هم النساء، والأشخاصُ الشديدو الإيمان بالله، والشديدو الإيمان بالحقيقة المتجذرة في نفوسهم. لا أقصد بقولي من كانوا سجناء فقط، في التعامل مع هذا الوحش الحقيقي المسمى السجن، بل أذهب كذلك إلى أولئك الأشخاص الذين يحيون خارجه. أعني أقرباء السجين، أمه ووالده وزوجته وأطفاله وأخوته وأخواته، والأقرباء والقريبات.

ثانيها: أن السجين يبدأ مباشرة (بعد الأسابيع الثلاثة طبعاً)، ببناء قضايا حب كبيرة غير مفهومة، نحو أشياء كثيرة غير مفهومة، ويشيد

في الوقت نفسه أحقاداً وكراهية لكثير من الأشياء المستبطنة وغير المفهومة. ثم يشرع في التغذي والاقتيات من هذا الحب وهذا الحقد "المستعارين"، لغذاء شخصيته، مثلما يتغذى على الخبز والماء والهواء.

ثالثها: أنه يبدأ لدى السجين بعد فترة قصيرة نسبياً، نزوع نحو بناء علاقات وصداقات، تصل إلى حد التماهي الروحي مع بعض الأشخاص. بينما يخصص جزءاً من طاقة الكراهية والحقد، التي بات يتغذى عليها، ليصرفها نحو أشخاص آخرين. وغالباً دون أسباب معللة منطقياً. بعض هؤلاء الأشخاص هم ممن يعايشهم داخل السجن ويعانون معه، وبعضهم ممن يعيشون خارجه. مع ملاحظة شديدة الأهمية وجديرة بالتسجيل؛ فقد تظهر بمرور الأيام كثير من السلوكيات النبيلة والعظيمة جداً، من قبل بعض السجناء إزاء بقية السجناء، ومن بعض أشخاص غير متوقَعين البتة، كما تظهر كثير من السفالات والدناءات أيضاً، من قبل أشخاص غير متوقَعين أيضاً بالمرة.

أما رابع ملاحظاتي، فأستطيع أن أخصصها للزعم بأن الأشخاص، أصحاب المبادئ والإيديولوجيات، أو أولئك النفر الذين جرت العادة أن يُنظر إليهم كقادة، أو بمثابة موجهين من حصفاء الرأي، أولئك الذين يحثون الناس كثيراً قبل السجن، ويشجعونهم على التضحية والبذل، والمعلمين النظريين الذين يشرفون على مهام تصليب الشعب، وتعوده الصبر والكفاح، هؤلاء هم أضعف حلقات السجناء، وأكثرهم هشاشة، واحتياجاً إلى العطف والعناية، من قبل أولئك الصغار الشأن والعاديين، الذين يتولون غالباً كِبَرَ المسؤوليات وأعباءها، ويتحملون الشطر الأعظم من المعاناة والعذاب.

لابد من تسجيل ملاحظة أخرى خامسة، لأنني أجدها أيضاً جديرة بالأهمية، وهي أن السجين يحتاج إلى كثير من الشهور، وربما إلى سنوات حتى يتحول إلى "سجين حقيقي"، إذ عليه أن يتدرب تدرباً شاقاً، وأن يتمرن على ذلك حتى تلين طبيعته، ليغدو سجيناً حقيقياً فلا يتحطم. ومنذ اليوم الأول لوصولنا إلى سجن المزة العسكري، تمهيداً لتقديمنا للمحكمة الميدانية العسكرية الأولى، شعرنا بذعر وخوف من مجهول ينتظرنا، ولقد ساعد الشباب المعتقلون في المهجع على تهدئتنا بشتى الوسائل، وعملوا على بث روح الطمأنينة، بغية رفع المعنويات، التي

يفتتها التنقل المتواصل من فرع إلى فرع، وشيئاً فشيئاً بدأت النفوس تثوب إلى رشدها بالتدريج، والأعصاب تبرد قليلاً.

– 7 –

كل أنواع العذاب والشقاء والتنكيل الذي سمعت به أو شهدته، سواءً في سجن المزة، أم فيما بعد، في سجن تدمر، أم في سجون وفروع تحقيق أخرى، كلها لا تكاد تساوي شيئاً إذا ما قورنت بحكاية ذلك الرجل، الذي كانوا قد اصطلحوا على تسميته في سجن المزة باسم: (الذي يعلم كل شيء ولا يقول).

لقد ذُكرت هذه الحادثة أمامي مرات عديدة، ويبدو أنها ترجع إلى تاريخ أبعد من هذه المرحلة. ففي النصف الأخير من السبعينيات، حين كانت السلطة قد صرفت جلَّ نشاطها الاستخباراتي لاجتثاث المجموعات السرية الصغيرة التي تتبع للشيخ مروان حديد والقضاء عليها، كان ذلك المعتقل الذي عرف فيما بعد باسم: (الذي يعلم ولا يقول)، قد جُلب إلى التحقيق في سجن المزة، وبحكم قربه من الشيخ مروان، وتقدمه في قيادة تنظيم جماعة الشيخ، فقد اجتمعت عليه كل القيادات الأمنية الأشهر في سورية: علي دوبا، ومحمد الخولي، ومحمد ناصيف، وهشام الاختيار وحسن خليل. فضلاً عن مدير سجن المزة، وفريق كبير من الجلادين الذين شاركوا في التحقيق معه وتعذيبه.

في البداية قالوا له في منتهى الوضوح والصراحة:

– لا تتعبنا ولا تتعب نفسك. أنت تعرف كل شيء عن تنظيم الشيخ. ومطلع على معظم خلاياه وعناصره. تستطيع أن تختصر الوقت علينا، وأن توفر على نفسك مشقة العذاب الذي ستعانيه بلا أي طائل. لأنك في النهاية – طال الوقت أم قصر – سوف تعترف بكل شيء..

فتفاجأ طاقم المحققين والجلادين جميعاً بجواب الرجل، حيث انبرى يقول لهم بتحدٍ منقطع النظير:

– يشهد الله عليّ، أنني أعلم كل شيء تريدونه مني. وكل شيء تبتغون معرفته، وليشهد الله عليّ الآن، أنني لن أفتح فمي بكلمة، ولن أقول أي شيء. فافعلوا ما بدا لكم.

في البداية ضحكوا منه، وتغامزوا ساخرين:

– كثيرون قبلك قد قالوها. وكثيرون قبلك قد ظنوا كما تظن الآن بأنهم رجال، ولا أي رجال.. ثم مع الوقت، انهاروا ولم يحتملوا. فلا تعذب نفسك أكثر مما تحتمل.

– بل أنتم لا تعذبوا أنفسكم. فلقد سبق مني القسم، بأن يشهد الله عليّ: أنني أعلم كل شيء، ولن أقول شيئاً.

– ستعترف ستعترف. هذه مجرد "يباسة راس" مألوفة لديكم جميعاً. ولكن حين سوف تطّلع على أسلوبنا في التعامل معك، سوف تغير رأيك بالتأكيد.

في البدايات مارسوا عليه وسائل تعذيب وضغط مألوفة ومعروفة، مما كان تقليدياً ودارجاً، ويمارس بحق كل المعتقلين. لكنه إذ أصرَّ على قوله الذي لم يتزحزح عنه: يشهد الله أني أعلم كل شيء، ولن أقول شيئاً. اضطرهم إلى تجربة جديدة، لم تكن قد جُرِبتْ بحق أحد من المعتقلين في السابق (ولا أحسب أنها قد جربت على سواه فيما بعد).

فقد أمر طاقم التحقيق بإحضار صاج معدني، مثبت على جهاز تسخين كهربائي، وتُرك الصاج على النار حتى حمي، واستحال لونه إلى اللون الأحمر. ثم رجعوا إلى الرجل، يقولون له:

– قلنا لك لا تضطرنا إلى هذه التجربة التي لن تحتملها بكل تأكيد. ولا تعذبنا معك أكثر. اعترف بكل شيء، وستريحنا وترتاح منذ البداية، ولا أمل لك في إنكار أي صغيرة أو كبيرة.

فرجع الرجل يكرر في وجوههم:

– وأنا بدوري أقول لكم، وأُشهد الله على ما أقول: إنني أعرف كل شيء، مما تريدون السؤال عنه، و أُشهد الله أنني لن أعترف لكم بشيء مهما فعلتم بي.

فقالوا له:

– حتى لو أجلسناك على هذا الصاج المُحَمَّى؟.. أجابهم:

– جربوا وانظروا.. قلت لكم، وسأعيد عليكم؛ وأنا أشهدتُ الله أنني أعرف كل شيء، وأنني لن أنطق بحرف، ولن أبوحَ بشيء، مهما فعلتم.

أمروا بعض العناصر بأن يحملوه، وأن يجعلوه معلقاً في الهواء، فوق الصاج بقليل. فلم ينطق الرجل بحرف، بل كزَّ على أسنانه،

وخضع لصبر وصمت قاتلين. واستعدَّ للحظة الرهيبة، التي كان يتوقعها بعد هنيهة. فكرروا السؤال:

– هاه.. ماذا قلت..؟ الصاج صار لونه أحمر، ولن تحتمل أن تقعد عليه. ما يزال أمامك فرصة.

كانت آخر كلماته لهم:

– أعلم كل شيء. ولن أبوح لكم بحرف واحد. لقد أشهدت الله على ذلك.

أخيراً جاءت اللحظة المتوقعة الرهيبة. وصدر الأمر بأن يُترك لمصيره، فوق الصاج المعدني المحمى حتى الاحمرار. أُسقِطَ جسدُه إسقاطاً، وبدأت رائحة شواء لحمه تتصاعد. كان لسقوط بدنه، ونشيش اللحم الذي علا وملأ الفضاء، هو ما جعل حتى الجلادين يتراجعون من الذعر، ويولُّون عنه. ثم صدر الأمر فوراً بإنهاضه من فوق الصاج. كانت ثواني معدودة، لعلها لم تتجاوز النصف دقيقة، وكان الرجل قد دخل في غيبوبة، وفارق وعيه. ثم راح يغطُّ تدريجياً في موات سريري. بينما عبق المكان بالرائحة، رائحة اللحم ورائحة الدم الذي تخثر. رائحة غير مألوفة لبشر، ولا يمكن تمييزها بحال. ثم حُمل الرجل، وأعيد إلى زنزانته. وفي المساء تفقدوه، فإذا به قد فارق الحياة.

في أول ليلة، وفي منتصف الليل سمعنا صرخة قوية مرعبة، وغير مألوفة، ثم تلتها صرخة ثانية فثالثة. صراخ مزيج بين الإنساني والحيواني، وبين الجنون والعقل، وبين التوهم والواقع. فلأول وهلة ظننا أن سجيناً يعذب تعذيباً شديداً، لذا خمدت الحركة نسبياً، وسكتت الأصوات بارتجاف وترقب. نهض أحد السجناء القدامى في المهجع، وخاطبنا مبتسماً مشجعاً:

– شباب خليكم طبيعيين كما أنتم. عودوا إلى ما كنتم. عادي، ما في شيء مو طبيعي.

ازداد الذهول من عباراته، إذا كان هذا كله عادياً، فما هو غير العادي؟ ثم أضاف:

– هذه الأصوات صادرة من السواليل الداخلية، وهي لسجين قديم أصيب بالجنون منذ سنوات، وهو منذ أكثر من عشر سنوات معزول عن العالم في زنزانة خاصة.

منذ أكثر من عشر سنوات؟ ماذا يعني ذلك؟ هل هو معزول عن العالم منذ ما قبل انقلاب حافظ الأسد، واستيلائه على السلطة؟

بعد الاستفسار من عدة أشخاص من قدامى المساجين، صرنا على معرفة تفصيلية بكثير من شؤون هذا السجين، صاحب الأصوات والصرخات التي تتردد ليلاً بين جدران السجن، اسمه (عقل قربان)، وهو ضابط مخابرات سوري برتبة نقيب، من محافظة السويداء، وكان مقرباً من الكتلة العسكرية التابعة لمحمد عمران وصلاح جديد والأسد وحاطوم، وقبل هزيمة حزيران عام 1967، حضر اجتماعاً سرياً بين وزير الدفاع حافظ الأسد وضباطٍ اسرائيليين، ولقد قيل بأنه كان الشاهد الوحيد على اتفاق بيع الجولان، أو هو على الأصدق واحد من أولئك الثلة القليلة التي كانت مقربة من الأسد التي اطلعت بحكم ظرف الملازمة الدائمة، والمرافقة المقربة من الأسد، على أكثر مما ينبغي أن يُدرَك ويُعلَم من أسرار الحاكم الذي قاد أكبر هزيمة وطنية أمام العدو، ثم استولى على السلطة في انقلاب عسكري وراء ذلك أو جراءه.

أثقله عبء ووطأة تأنيب ضميره، ولم يقوَ عقل قربان على احتمال الصمت والسكوت، على ما دار وجرى في كواليس تلك اللقاءات السرية، وما انتهت اليه من نتائج، ففرَّ إلى لبنان وتوارى عن الأنظار لفترة من الزمن، وبعد مدة قصيرة أصدرت إحدى دور النشر اللبنانية كتاباً له بعنوان: (ثمن الجولان)، سرد فيه كل تفاصيل ما دار في تلك اللقاءات السرية، بين الأسد والإسرائيليين، فجُنَّ جنون الأسد شخصياً، وثارت ثائرة كل أعضاء القيادة، التي كان من أبرز أركانها، ووزير الدفاع فيها حافظ الأسد. فأسرعوا يطلبون رأس الرجل المختفي، وجدُّوا في طلبه، دون كلل، في لبنان. تفتيشاً وتحصيلاً حتى تمكنوا من العثور عليه بعد ملاحقات ومؤامرة استخباراتية، أو خطة محكمة، شاركت فيها حتى المخابرات الإسرائيلية، وبتعاون مع عملاء سريين للنظام السوري على الأرض اللبنانية.

تمَّ جمع كل نسخ الكتاب، الذي لم يُتَحْ له أن ينتشر ويرى النور، وإتلافها. وخُطف عقل قربان، وأحضر إلى فرع المخابرات العسكرية، فأودع في زنزانة خاصة. وصدرت الأوامر إلى كل طاقم العاملين في سجن المزة، بعدم الاقتراب منه أو التحدث إليه، بما في ذلك مدير السجن

نفسه، كما تمَّ فرز عناصر خاصين لمتابعة شؤونه، من إدخال الطعام إلى زنزانته أو حلاقته وحمامه. أما لماذا لم تقدم السلطات على تصفيته تصفية جسدية، منذ أن عثرت عليه، فهذا ما لم أبلغ دركه ولا فهمه حتى اليوم. وبعد مضي عدة سنوات عليه في زنزانته الفردية، أصيب عقل قربان بالجنون المطبق. فكان يصمت أياماً لا يكلم أحداً، أو ينفجر بالبكاء والصراخ والضرب بقبضته على باب الزنزانة.

ولم أعرف المدة التي قضاها عقل قربان في الزنزانة، لكن الأخبار المؤكدة التي وصلتنا، بعد رحيلنا من المزة إلى تدمر بعدة سنوات، أكدت وفاته داخل زنزانته، وأرجح تاريخ لوفاته هو النصف الثاني من الثمانينيات، أي إنه قضى ما يقرب حوالي سبعة عشر عاماً في زنزانته وحيداً.

الفصل الثاني
شعبان خطاب
"للعقلِ ألفُ عينٍ، وللقلبِ عينٌ واحدة"

– 1 –

سوف أعود إلى أشهر البداية. في سجن المزة العسكري، والاختلاط مباشرة بتلك المجموعة التي سوف أسميها: مجموعة العميد شعبان خطاب.

نظر السوريون غالباً، نظرة خاصة إلى الانقلابات العسكرية والانقلابيين، نظرة مشبعة بالريبة والاحتقار وعدم الشعور بالرضى. لم يختلف هذا الشعور سواء بالنسبة لمرحلة انقلابات ما قبل البعث، أو مرحلة انقلابات البعث وما تلاه. لذلك كان يحلو لكثير من الانقلابيين، أن يستبدلوا المفردة الدميمة في أعين السوريين، والكريهة في قلوبهم، بمفردات أخرى مبتكرة: التصحيح – مبادرة الإنقاذ – الحركة التصحيحية..

بالطبع فإن هنالك أمثلة كثيرة، تتوافر على أن كثيراً من الانقلابيين، وفي مرحلة من المراحل، قد وسموا انقلابهم بأنه "ثورة" شاملة على كل ما سبقها من المراحل. وأبرز مثل طريٍ في ذاكرة السوريين، على أمثال هذه الانقلابات الممكيجة بمكياج الثورات، هو "ثورة 8 اذار"، من عام 1963.

غير أن المحاولات الانقلابية التي بذلت، أو خطط لها في عهد الأسد الأب والابن، جميعها تستحق لقب ثورات. (أو هي في جوهرها وحقيقتها كانت كذلك)، لكنها ثورات يتيمة، لا مؤرخين لها ولا بواكيَ. والمتعاطفون وجدانياً معها يكادون يقاربون الصفر، أو ما هو قريب من الصفر تقريباً. أما سبب كراهية واحتقار السوريين لتلك الانقلابات والانقلابيين، ونظرتهم الثابتة إليها، بكونها مبادرات عسكرية هدفها الرئيسي هو التسلط وامتلاك السلطة، والتصرف فيها بإرادتهم وكما يحلو لهم – بغض النظر عن النوايا الحقيقية لعناصر الانقلاب الفاعلين والمؤثرين – فيعود برأيي إلى سببين: الأول أن جميع تلك الانقلابات – دون استثناء – لا شرعية لها، ولا مرجعية وطنية. والثاني:

أن جميع تلك الانقلابات، وأيضاً دون أي استثناء، كانت مرتبطة بقوى خارجية، نافذة واستعمارية ومتسلطة، دخلت في صراع مع بعضها بعضاً، من أجل السيطرة والتحكم بالقدر السوري؛ استراتيجياً واجتماعياً واقتصادياً.

كما يُحسب لتلك الانقلابات، أنها جاءت ردة فعل على واقع، أو وضع أو حال سابق عليها. فهي أشبه بسلسلة من القوى المتسلطة التي صادرت الوطن والشعب، فكل انقلاب يكاد أن يقول بلسان الحال: أنا الأقوى، إذن أنا الشرعية. الأمر الذي سحب شرعية السياسة، كفعل من أفعال التغيير والتأثير في الجمهور العام، وجعلها تتقلب دون استقرار، أكثر من ثلاثة أرباع القرن الماضي تقريباً، فترة ما بعد الاستقلال عن الامبراطورية العثمانية، وفترة الانتداب الفرنسي.

هذا مدخل الولوج في تفاصيل محاولة العميد شعبان خطاب، للإطاحة بنظام الأسد. وهي ضرورية لأن الحركة لم تكن محاولة أو فعلاً انقلابياً لا وطنياً، أو مرتبطاً بالمعنى المعروف والقريب من المخيلة العامة للسوريين؛ في الصورة النمطية المبتذلة لاستيهام أو فهم المحاولات الانقلابية؛ فالحركة في أصل بداية نشأتها وولادتها، لم تكن عملية مدفوعة من الخارج، وإن تسلط الخارج عليها في لحظة من لحظات التاريخ، وراح يراقبها ويحاول أن يستأثر بها لصالحه ولأجندته الخاصة.

ولأن الحركة، انقلاب العميد شعبان خطاب، هي حركة وطنية من حيث الجوهر، لا يقلل من وطنيتها، لا درجة ومستوى العلاقة الهشة التي نشأت ما بينها وبين القيادة القومية لحزب البعث في العراق، ولا كذلك تلك النافذة التحاورية فيما بينها، وبين الطليعة المقاتلة للأخوان المسلمين.

ولو تساءل القارئ: كيف تستطيع أن تقرر أمراً كهذا؟ لأجبت على الفور، ودون تردد: لأنني بتُّ، في وقت من الأوقات، أعرف المرحوم العميد شعبان، معرفة شخصية وثيقة. أعرفه وأعرف جميع الضباط الذين كانوا معه، وشاركوه تلك المحاولة اليائسة، أو قاسموه شرف تلك المغامرة المحبطة. وقد خالطتهم جميعاً على المستوى الشخصي، كرفقاء مهجع، وكأصدقاء شخصيين، توثقت فيما بيننا عرى المحبة والمودة والعيش معاً، بضعة شهور، مع بعضهم. ولفترة سنوات طويلة مع بعضهم الآخر. الأمر الذي منحني إلماماً بمعظم، إن لم أقل بكافة، تفاصيل ونوايا المجموعة،

التي قُدِّر لي أن أحتك بها، لفترات ليست قصيرة أو طارئة داخل السجن.

أول من استأثر بانتباهي في تلك المجموعة من الضباط، كان العميد شعبان نفسه. ذلك الرجل الهادئ المتواضع الكثير الصمت. فقد كان جبلاً من الوطنية والإخلاص لوطنه وشعبه. كائناً روحانياً يمشي على الأرض، هائماً بالتغيير وبالمستقبل المشرق الأفضل، أكثر من كونه ضابطاً تقليدياً. ولو أنني لم أعرفه ضابطاً، ولو أنني التقيته خارج هذا المكان، وفي ظروف مختلفة عن هذه الظروف، لحسبته متعبداً أو صوفياً، أو شاعراً ملهمَاً انقطع عن الحياة والأنام، ليتأمل في محراب نفسه وذاته.

كان أثيراً ومحبوباً من قبل جميع أقرانه أو رفاقه في المجموعة. واللافت أنهم جميعاً، كانوا – على اختلاف ما بينهم – يقايسون الوطنية والشرف به، ومرجع الذكاء والنجابة والصحيح، كله يرجع إلى ما يقاربه أو يشبهه، والخطأ والنقص يقاس بما لا يشبهه. أليس من الجشع أن يكونَ المرءُ نبيلاً وجيداً أكثر مما ينبغي؟ ألا يأخذ حقه، وحق جميع الآخرين في أن يُمتدحوا مثله أيضاً؟ صدقوني إن جمال النفس قوة. قوة حقيقية كالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة. كالصواريخ النووية العابرة للقارات. قوة لا يمتلكها إلا حفنة من الأشخاص القلائل. فما الفائدة المرجوة من عالم لا يملك إلا بضعة أفراد قلائل، من أولئك الجميلين الأنقياء النفوس؟ بصراحة، يجب أن نقول وبصوت واضح: إن هؤلاء يلوموننا على بشريتنا. كأنهم يقولون لنا: عيبكم الخُلُقي الذي فطرتم عليه، هو أنكم ولدتم من سلالة بشرية، ولا أمل لكم في تحدي تلك الإعاقة، إلا بأن تتجاوزوا ضعفكم وبشريتكم.

أكثر المشاهد إيلاماً للنفس في السجن، ربما كانت مشاهد أولئك الشيوخ المسنين. ولعل حضورهم في المشهد كان أشد استرجاعاً لآلام

الذاكرة، من حضور مشاهد الأطفال الصغار واليافعين من الأحداث، ومعاناتهم في سجن تدمر التي سأتعرف عليها لاحقاً.

أكثر ما لفت انتباهي عندئذ، وأنا أتفحص مجموعة العميد شعبان خطاب، هو ذلك الشيخ المسن، المهرب، أحمد عمر العسل، أو أبو عمر كما كنا نناديه.

أحمد عمر العسل الرجل الأمي البسيط، والذي كان على مشارف السبعينات في أواخر عام 1980. مهرب لم يعرف طيلة سني عمره الطويل مهنة له، إلا التهريب عبر الحدود السورية/التركية. وجلُّ بضاعته الصادرة والواردة عبر الحدود، هي التبغ المفروط والشاي والمتة والتوابل والمكسرات. أو كل ما يقولون عنه مجازاً: ما خف حمله وغلا ثمنه. وليفُهُ وصديقُ عمره في القرية المجاورة لقريته الحدودية، "زرزور"، الواقعة شمال جسر الشغور، هو المقدم بولس مستريح، ابن قرية "اليعقوبية" المحاذية لقريته. وحيث تواشج أبناء القريتين المسيحية والمسلمة، برباط الأرض، وجذور الأحراج الوعرة، وأفضت قربى الروح والتاريخ الطويل، إلى أن خالط الإخاء بينهما حلاوةَ التين ومرارة الزيتون، في وحدة الدم التي سرت في جسد البلد الأمين.

– 2 –

بولس مستريح كان برتبة مقدم ركن في القوات البحرية، وكان على ارتباط سري وثيق بتلك المجموعة من الضباط الملتفين والمرتبطين بالعميد شعبان خطاب، الذين كانوا نواة صغيرة لثورة عامة في البلد، وراحت خلال سنتين تقريباً، تعمل سراً على الإطاحة بنظام الأسد. الأمر الذي اضطر بولس للتواصل مع شقيقه الذي كان لاجئاً ومطارداً من قبل استخبارات النظام، لمساعدتهم في التحضير لخطة الثورة على النظام، في ذلك الزمن الذي لم يكن فيه النِتْ قد عُرف بين الناس بعد، ولا ظهر السكايب والواتس إلى حيز الوجود، ما جعله يجد ضالته في حمار أبي عمر العسل، الذي كان يملأ خرجيه بالبضائع المتنوعة، ويمرره تهريباً عبر الحدود السورية التركية، وذلك ما بين تلك المسارب الجبلية المتعرجة، والكثيفة الأحراج، قرب دركوش والجانودية

والحسينية والزعينية واليعقوبية وزرزور. كانت حاجة بولس إلى واسطة التهريب التي يعتمدها أبو عمر العسل، هي في نقل الرسائل، بين بولس وشقيقه الديبلوماسي، الذي كان يعمل في السفارة العراقية في تركيا، ثم العودة برسائل الأجوبة المنتظرة، عبر نفس الحدود وخطوط التهريب إياها. لقد كان على حمار أبي عمر العسل أن يلعب دور الحمام الزاجل في تلك الظروف المحدودة والضيقة والحرجة. حتى أن العميد أبو معاوية، قال لـ أبي عمر مرة ممازحاً:

– الحمد لله أنهم لم يعتقلوا حمارك أيضاً يا أبا عمر.

فاستأنف الجواب عليه عثمان أصفر:

– بتهمة كتم معلومات خطيرة تتعلق بأمن الدولة.

– حمار أبي عمر العسل، هو الآخر متآمر على أمن الدولة وخيانة الوطن، وضرب منجزات الاشتراكية في البلد.

لقد تحمل بولس، في كثير من وطأة الضمير وثقل مسؤوليته، وبعد أن حُكم عليه بالإعدام من قبل اللواء حسن قعقاع، رئيس المحكمة الميدانية العسكرية، ذلك الحمل الكبير من مشاعر الإثمية الثقيلة، بسبب اعترافه تحت التعذيب على أبي عمر العسل، وحماره الناقل لرسائل ضباط الانقلاب، وهيضَ جناحُهُ لشدة اللوم والندم بسبب اعتقال هذا العجوز الطاعن في العمر.

فيما بعد، وحين توادعا للمرة الأخيرة في المهجع، ضم بولس إلى صدره صديقه وحبيبه وابن قريته الشهم الوفي، أبا عمر، الذي كان بمثابة شقيقه الأكبر، وابن قريتيهما الوادعتين الجارتين، اليعقوبية وزرزور، النائمتين بين أحضان كروم وبساتين الريف الإدلبي، وبكى كما يبكي الرجال. بقهر مفرط جعل المقدم بولس الذاهب إلى حبل المشنقة، يعتذر بإلحاف من المحكوم خمسة عشر سنة، والتي سوف تكلفه فيما بعد، سجناً في سجن تدمر، اثنتي عشرة سنة من عمره الذي لم يبقَ منه إلا القليل.

هتف به وهما يتعانقان، مودعين بعضهما:

– سامحني يا أبا عمر.. سأموت وأنا أحمل الإثم في ضميري. أنا من ورطّتك معي يا أخي. وأعلم أنك قد خلَّفت وراءك عائلة كبيرة، لم يكن لها معين أو معيل إلا أنت بعد رب العالمين.

بينما أبو عمر يهدىء من روعه ويثنيه عن انفعالاته:

– بل أنت الذي يجب أن تسامحنا أخي بولس. أنا من جهتي، لا أحمل في نفسي لك إلا المحبة التي أحملها لأخي الصغير، فكلُّ ما جرى هو أمر الله وقدره.

وظلا يذرفان الدموع متعانقين، حتى نضبت دموعهما وانقطعت.

فيما بعد، في تدمر تطوع أحد أفراد المهجع بتحفيظ أبي عمر العسل، وهو الإنسان الأمي، القرآنَ أو أجزاء منه، عن ظهر قلب، على ما في هذه المهمة من مشقة ومكابدة.

تمَّ الاتفاقُ بأنَّ أبا عمر العسل لا يستطيع أن يحفظ في اليوم الواحد أكثر من ثلاث آيات، وهذه محصلة كبيرة في الحقيقة، ومبشرة بالخير الكثير، إذا حسبنا أن مدة اللبث والبقاء في سجن تدمر لن تنقضي قبل سنين طوال.

وذات مرة، في تدمر، وبالصدفة، سألتُ ذلك الشاب الموكل بتحفيظ أبي عمر بعض أجزاء من القرآن:

– وأين وصل في حفظه اليوم؟ وما هي آخر النتائج؟

فقال لي:

– والله ما هو ماشي الحال يا أخي. صار لنا أسبوع نعيد ونكرر الآية: (متكئين على فُرُشٍ بطائنُها من إستبرقٍ وجنى الجنتين دان). وأبو عمر مصر إصراراً كلما راجعها معي أن يقرأها:

(بطائنها من "يبرق" وجنى الجنتين دان).

أقول له:

– يا أخي يا أبا عمر.. والله بالجنة مافي لا محشي ولا يبرق. فيقول لي:

– لا تحاولوا معي، ياخي.. أنا ما بتطلع معي إلا هَيك. بطائنها من يبرق. هديك الكلمة مستحيل أعرف أقولها. أشو بدي أسوي يا خاي؟

وبعد سنوات طويلة، عقب خروجي من المعتقل، زرت أبا عمر العسل في قريته زرزور. فرحت به وفرح بلقائي كما لم نفرح لشيء في حياتنا. وحمّلني سلامه وتحياته لكثيرٍ من أصدقائنا المعتقلين، من الذين تعايشنا وتقاسمنا معاً المحنة، وصحبة المعتقل سوية لسنوات.

كان الرجل قد أمسى على أعتاب التسعين عاماً من العمر. وبعد انقطاع أخباره طويلاً عني، منذ بضعة أشهر مضت، وقبل أن أبدأ بالكتابة، بلغني من أحد الأصدقاء من معارفه القريبين من قريته، خبر

وفاته منذ زمن طويل. ولعله قد تجاوز مئة السنة من العمر.

أما محمد صِدِّيق شْخَيْص المعروف بلقبه الأكثر شيوعاً: "أبو يحيى"، فهو رقيب أول مجند. يعمل في الجيش تحت إمرة ضابط مميز، تنقل بين عدة قطع عسكرية مختلفة، هو المقدم خالد جزماتي.

والمقدم خالد جزماتي بعثي قديم، من مدينة حماة. ولاؤه الأيديولوجي المطلق لأكرم الحوراني، والذي يرتقي إلى مصاف التقديس الأوحد في ولاء معتقداته السياسية، والتحول بها إلى سلوكية نضالية أبدية، غير قابلة للمراجعة أو إعادة النظر. والمقدم الجزماتي رجل ذكيٌّ جداً، ومثقف كبير، كما أنه شديد الاعتداد بنفسه وبمقدراته، وبشخصيته الكارزمية المتكبرة والمستعلية كثيراً، والمؤثرة في الوقت نفسه. هذا ما يميزه عن جميع الآخرين، من أعضاء مجموعة العميد شعبان خطاب.

كان شخيص – كما يُنادى – يعدُّ المقدم خالد الجزماتي معلمه الوحيد والمطلق، والجدير بالخدمة، وقد راهن على مطلق الثقة به، وعلى حكمته وطرائق تفكيره وسمت توجهه العام. وبكل تأكيد فإن سلطات الأسد وأجهزة استخباراته لم تكن ذاهلة عن هذا الولاء شبه المطلق، الذي ربط رقيباً مجنداً هو شخيص، بضابط عامل في الجيش السوري، ويتمتع بخبرة عسكرية ومقدرة كارزمية عالية القيمة في التأثير على مجمل ذلك الوسط (السُني) المحيط، لا الحموي على وجه أخص، بل السني السوري بالمجمل، داخل قطعات الجيش وتنظيماته المختلفة.

– 3 –

حين شرع المحققون يلقون بالأسئلة تباعاً على شخيص، ظناً منهم أن شخصية شخيص سوف تكون الشخصية المفتاحية، والحلقة الأضعف التي سوف تفكك لهم كل ألغاز المقدم خالد الجزماتي، وحلقات الانقلاب الأخرى، فوجئوا بأن شخيص يمتلك مقدرة ودراية عالية على الروغان من الوقوع في فخهم، فلقد كان شخيص يلعب على طريقة خلط الهزل بالجد، بطريقة تمثيلية شديدة الإتقان والبراعة، لا مع محققيه في فرع التحقيق العسكري فحسب، بل مع "جميع الناس دون استثناء".

وهكذا، حين طلبوا منه أن يذكر جملة، أو بضعة جمل أو

ملاحظات، أو معلومة ولو صغيرة عن بعض الأسماء، وماذا يحتفظ في ذاكرته عنها؛ أمثال المقدم طراد الصالح، أو العقيد عبد السلام حكواتي، أو العقيد حسن دالي، أو غيرهم. لم يزد على الجواب:

– أنا أعرف كثيراً من العسكريين والمدنيين، الذين تواصلوا في فترة من الفترات مع معلمي المقدم خالد. ولكن ما الحيلة إذا كان كل سوري يختبئ وراء اسمه الحقيقي، بلقب من مثل أبو حسن وأبو محمد وأبو عبد الله وأبو عبد الكريم؟ نحن السوريين نعرف ألقابنا أكثر مما نعرف أسماءنا الحقيقية.

لكن المحققين لم ييئسوا من شخيص، بل حاولوا أن يصطادوه بطرائق أخرى، ومن زوايا مختلفة بعيدة. حيث بلّعوه طعماً آخر بغية اصطياده، زاعمين له:

– ولكن جميع من سألناك عنهم يعرفونك شخصياً. يعرفون عنك كل شيء. لقد اعترفوا عنك بكل شيء. فهم يعرفون اسمك ولقبك ودرجة قربك من المقدم الجزماتي، ومن بديهياتهم أيضاً أنك موضع سره وسكرتيره الخاص ومرافقه، بل وحاجبه في نفس الوقت. وقد اعترفوا جميعاً بأنك مُلمٌّ بكل تفاصيل الاجتماعات واللقاءات التي جرت فيما بينهم. فكيف يَصحُّ أنهم يعرفونك وأنت لا تعرف أحداً منهم؟ ولست على دراية حتى بمقدار الثقة التي يمنحها لهم المقدم الجزماتي، أو درجة الارتباط فيما بينهم؟

لم يتأثر شخيص بكل هذه المناورات اللفظية من قبل المحققين. وإنما اكتفى بأن أغلق باب الولوج من هذه النقطة بطريقة "الكوميك" المألوفة والمعروفة عنه. قائلاً:

– شوف.. كثيرٌ من الناس يعرفونني. هذا صحيح.. في الجيش، وفي الحياة المدنية. ولا أبالغ لو أخبرتك بأن هنالك العشرات والمئات من الأشخاص الذين سمعوا عني "لشهرتي". ولكن أنا شخصياً، لا أعرف إلا أقل القليل من أولئك الناس، ولست على دراية بما يعرفون وما لديهم من انطباع عني.

قال له المحققون:

– كيف ذلك؟ فسر لنا هذه النقطة الغامضة جيداً.!

فأجاب شخيص:

– حسناً. سأضرب لك مثالاً. الرئيس حافظ الأسد، ربما كان يعرف مئة، أو مئتين من السوريين، وليس أكثر. ولكن أليس الذين يعرفونه من السوريين يُعدون بالملايين؟ في هذه النقطة تستطيع أن تعتبرني مشابهاً للرئيس الأسد؛ من حيث أنه معروف من قبل الجميع، وهو لا يعرف إلا القليل من هذا الجميع.

انتفض المحققون من الدهشة. وراحوا ينظرون إلى بعضهم بعضاً، محاولين قياس ردود أفعالهم على كلمات شخيص المفاجئة، ومستنقذين الموقف المريب والمتوتر بأن هتفوا قائلين، (متصنعين الغضب منه طبعاً وهم يبتسمون):

– شوف الخرا شوف.. ولاه..!؟ هنت عم تشبه حالك بالسيد الرئيس القائد المفدى ولاه..؟

– لا يا سيدي. أنا ما شبهت حالي بحدا. انا لا أشبه أحداً. أنتم سألتم، وأنا أجبت إجابة لتقريب الفكرة لا أكثر. وقلت بأن هذه الفكرة، تحتمل أن أوّضح ما أريد توضيحه. أنا شخص يعرفني جميع الناس، ولكنني لا أعرف إلا أقل القليل من الناس.

– والعميد شعبان خطاب. ألم تسمع باسمه ايضاً؟ أو باسم ابن عمه النقيب نصر خطاب، أبي محمد؟ أو المقدم عبد الله شاكر، أبي عمار؟ أو الرائد فوزي العزاوي، أبي جلال؟ هؤلاء جميعاً قريبون جداً من معلمك الجزماتي؟ على الأقل كانوا زملاء معاً في سلاح المشاة في الجيش؟

– لا.. لم أسمع بأسمائهم ولا أعرفهم. قد أكون سمعت بالمقدم عبد الله شاكر، أبي عمار، بالصدفة. لكن عبد الله شاكر اشتهر لسبب أنه كان من ألمع ضباط البحرية، ولا علاقة له بسلاح المشاة. ولقد حاز على وسام البطولة بعد حرب تشرين.

– ولكن كيف ستكون ردة فعلك وإصرارك على هذا الإنكار، إذا ما علمت بأنك الآن متهم بتهمة خطيرة، قد تطيح برأسك؟ أنت متهم، أنت ومعلمك الجزماتي، بالاشتراك والضلوع في مؤامرة كبيرة وخطيرة، ضد الوطن والدولة السورية والثورة؟ وبماذا سوف ينفعك الجزماتي حينئذٍ، عندما سيلتف حبل المشنقة على عنقك، وحين سيصل بك إلى مواجهة حكم الإعدام؟

– وماهي هذه المؤامرة الخطيرة التي اشتركتُ بها أنا والمقدم خالد؟ أنا لا أتذكر أنني انخرطت، أو شاركت في أية مؤامرة ضد الوطن.

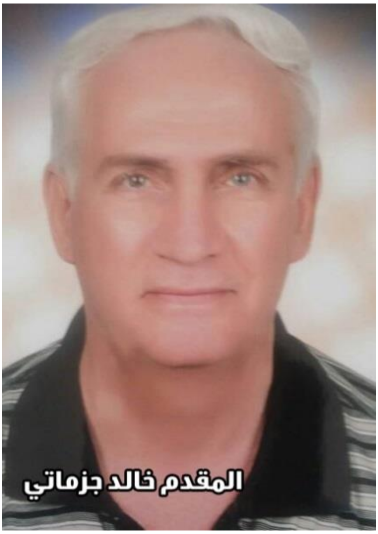

- بلى. مؤامرة كبيرة يقودها العميد شعبان خطاب؟ ألا يُذكّرك هذا الاسم بشيء؟ ألم تفكروا مثلاً، في إيقاف عجلة الثورة وتقدمها في هذا البلد؟

وبطريقته الخاصة أجابهم شخيص:

- شفتوني مثلاً، أنا والمقدم خالد، عم نحاول ندعس على فرينات الثورة، أو نكبس على فراماتها حضرة المحقق..؟ مثلاً يعني؟

في نهاية الأمر، استطاع محمد صدّيق شخيص، أن ينجوَ من أي حكم أو تهمةٍ يُحتمل أن توجه له. لقد دافع عن معلمه بما يكفي، وإلى الحد الذي حال بين المقدم خالد جزماتي، وبين حكم الإعدام المتوقع بحقه، وأن يستبدل حكم الإعدام بحقه بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة، وإن يكن قد أضيف إلى حاشية الحكم بالمؤبد، عبارة شديدة الغموض: مع التشديد بعدم تخفيف الحكم عليه، تحت أي ظرف.(قضى المقدم خالد جزماتي من فترة عقوبته اثنين وعشرين عاماً في سجن تدمر، قبل أن يطلق سراحه).

أما أبو يحيى، محمد صديق شخيص نفسه، فقد تلقى حكم المحكمة الميدانية بالبراءة، وإن لم يُطلق سراحُه إلا بعد عدة سنوات أخرى تالية.

كما صدر حكم المحكمة الميدانية بسجن الرائد فوزي العزاوي لمدة خمس سنوات، (فقط لأنه كان صديقاً قريباً من المقدم خالد الجزماتي)، وبالسجن مدة خمس سنوات أخرى بحق النقيب نصر خطاب (فقط لأنه كان ابن عم العميد شعبان خطاب)، وبالسجن لمدة خمس سنوات، بحق المقدم البحري عبد الله شاكر (فقط لأنه كان صديقاً شخصياً لنصر خطاب، ابن عم قائد المحاولة الانقلابية).

- 4 -

ينبغي أن أنوه بإشارة مهمة جداً، وذات مغزى عميق، لم يذهل حتى النظام عنها يومئذٍ، بعد أن استطاع اختراق الخلية العسكرية الانقلابية المستغلقة بإحكام وحرص وحذر شديد؛ وهو أن معظم هؤلاء الضباط - غالبيتهم الساحقة، إن لم أجازف بالقول جميعهم - كانوا قد حازوا العديد من أوسمة البطولة، في حرب تشرين التي وقعت فيها المواجهة مع إسرائيل عام 1973. هذه الإشارة تبرز أهميتُها، لأن اعتقال مثل هذه النخبة العسكرية التي باتت معروفة، وأسماؤها متداولة، حتى في الأوساط الشعبية الأشدَّ نأياً وبعداً عن الأحداث العامة، فهي مُشتهَرَة لأبطال من رموز الحرب، ووطنيين حازوا على شرف التكريم في أجلى ساحات القتال.

من ذلك مثلاً، كان معروفاً أن ضابطاً في مستوى المقدم عبد الله شاكر، أبي عمار، يمكن أن يكون واحداً من أبرز الضباط في قيادة القوى البحرية، وأنه درس فنون الحرب البحرية، موفداً كضابط مختص لفترة جاوزت ثلاث السنوات، في أبرز جامعات الاتحاد السوفياتي. فضلاً عن أنه أُرسِل أيضاً في بعثة رسمية من قبل الدولة السورية إلى اليابان، لدراسة قيادة الأساطيل البحرية في العلوم العسكرية البحرية. كل ذلك لم يشفع له من الاعتقال والخضوع لأبشع أنواع التعذيب، وكذلك لم يشفع له أيضاً - وهذا الأهم - أنه لم يكن له أية علاقة، أو ارتباط تنظيمي بالمجموعة الصلبة، التي كانت تخطط وتقود الانقلاب. وإنما كل الريبة قد حامت حوله، والنزعة الانتقامية ضده، لمجرد أنه كان صديقاً ملازماً ومقرباً من النقيب نصر خطاب، والذي كان هو الآخر، على غير علم ولا دراية بأي تفصيل بالمخطط الثوري الانقلابي، الذي قرره وبدأ مشروعه ابن عمه العميد شعبان.

ولعل أبرز الأمثلة على الحرج الذي وقعت فيه السلطات الأمنية، هي إقحام اسم الرائد عثمان أصفر، وظهوره الصريح كشخص يعمل في دائرة صغرى تتبع لمجموعات العميد شعبان. هذه الدائرة كانت تتجمع وتكبر بجهد ضابط سابق في الجيش، مطرود طرداً تعسفياً بسبب فترة اعتقال سابقة قبل سنوات، وبرتبة رائد اسمه حسن وزان.

كان حسن وزان قد عمل على تجميع بعض الضباط السابقين، الذين طُردوا من جيش النظام الحاكم، أو تمَّ تسريحُهم في الفترة ما بين حرب تشرين وبداية تحرك الطليعة المقاتلة للأخوان المسلمين، التي كانت أولى استشعاراتها المبكرة قد بدأت تلوح في الأفق عام 1978.

حافظ الرائد حسن وزان على قناة الاتصال المفتوحة بسرية تامة، بينه وبين العميد شعبان خطاب، واستطاع أن يجتذب عدداً من الضباط المُسرّحين، أو المطرودين طرداً تعسفياً من الخدمة في الجيش، بسبب مواقفهم السياسية المعارضة، ما بين رتبة ملازم وملازم أول ونقيب ورائد. ولم يتمكن ضباط المخابرات أن يثبتوا عليه، إلا أنه استطاع أن يضم إلى التنظيم، ضابطين سابقين في الجيش، هما: الملازم أول غسان السيد. وهو من بلدة دركوش في شمال إدلب. والرائد الطيار عثمان الأصفر. وهو من مدينة اللاذقية.

والواقع أن الذي أجبر الرائد حسن وزان، أبا عمار، على الاعتراف بصلة الضابطين به، هو أنه أُسقِط في يده، فالضابط المخبر، الذي نجحت المخابرات العسكرية في زرعه وتجنيده داخل المشروع الثوري الانقلابي، وهو المقدم مصطفى حماض، وهو من مدينة حلب، قد تمكن من الوصول إلى هذه المعلومة، وتوصيلها مباشرة إلى الضباط الاستخباراتيين، المتابعين للحدث لحظة بلحظة، الأمر الذي لم يعد يفيد فيه الإنكار، ولا كان مجدياً أو مفيداً الصمود في وجهة آلة التعذيب الجهنمية، التي تعرض لها المرحوم الرائد حسن وزان، خاصة أنه كان رجلاً أميل إلى الكهولة بعض الشيء، ومتقدماً في السن.

كان عثمان الأصفر من نخبة الضباط المتميزين في سلاح الجو السوري، جميل الطلعة، مشرق المحيا، ويتمتع برهافة اجتماعية وثقافة وأدب جم وفير. وعلى درابة عسكرية وقدرة قتالية عالية وشجاعة وتضحية. كان رجلاً قومي النزوع، يدين بحسه الوطني وولائه السياسي للقيادة القومية للبعث، التي كانت قد انتقلت في معظمها إلى العراق، وأصبحت تحكم في العراق بعد الانقلاب عليها عام 1966، إثر انقلاب صلاح جديد وحافظ الأسد، الذي دُعي في ذلك الوقت بحركة 23 شباط.

كل هذه الميزات التي تميز بها الشاب المتفجر بالذكاء والوطنية والعنفوان، قد خفضت سقف التوقعات المرجوة فيه من جهة سلطات

الأسد، وزاد عليها الريبة الطائفية الطبيعية من ضابط سني متفوق ومميز، وله كارزما شخصية، فضلاً عن كونه متديناً تديناً شعبياً بسيطاً. وهذا وحده قد يجعله في موقع المثير لغيض ضباط الأمن العلويين، الشديدي الحساسية الطائفية، من أي ضابط متدين ولو قليلاً.

في حرب تشرين عام 1973، أنيطت مهمة خطيرة جداً ببعض الضباط، وعلى رأسهم الرائد عثمان الأصفر، وكانت المهمة أشبه ما تكون بعملية عسكرية انتحارية لا تتعدى فرص النجاح والسلامة فيها، إلا أقل ما يُتصور من احتمالات. هذه المهمة الحربية كانت تقضي بأن يتوجه سرب مكون من مجموعتي طائرات سوخوي و(ميغ 21) – وكانت يومها أكثر الطائرات في سلاح الجو السوري تقدماً، وأحدثها في تكنولوجيا الهجوم والقتال الجوي – في مبادرة هجومية في داخل العمق الإسرائيلي، حتى حدود ميناء حيفا، وقصف منشأة النفط المعروفة باسم مصفاة بترول حيفا – وهي المزوّد الأساسي للوقود لسائر قطعات الجيش الإسرائيلي – ثم العودة إلى قواعدها في المطارات السورية بعد التأكد من انتهاء المهمة.

وفعلاً، فلقد طار السرب الذي كُلِّف الرائد عثمان الأصفر بقيادته، ونفذ المهمة ببطولة ونجاح أسطوري، من ثاني أيام بدء الأعمال القتالية في حرب تشرين. ودمر مصفاة النفط في حيفا، في حادثة ماتزال حتى يومنا هذا تُعدُّ الأجلى والأشهر بين المواقع والصدامات، التي منحت شهرة للجيش السوري، وتركت أثراً وحضوراً ما يزال يُذكر به حتى اليوم.

لكن طائرة الهجوم التي قادها الرائد عثمان الأصفر، تعرضت لنيران ومضادات طائرات سلاح الجو الإسرائيلي، فأصيبت طائرته، وبدأت النيران تشتعل فيها. لكنه تمكن من القفز بالمظلة، والهبوط في عمق الأراضي الإسرائيلية، حيث وقع أسيراً، ولبث في أسر القوات الإسرائيلية فترة ثمانية أشهر، ولم يفرج عنه، إلا بعد أن بدأت مهمة وزير الخارجية الأمريكية هنري كيسنجر، في السعي بين الطرف الإسرائيلي

والسوري، لتثبيت وقف إطلاق النيران على جبهة الجولان، وإطلاق جميع الأسرى من الطرفين، في مبادرته المشهورة والمعروفة.

قصة اسر عثمان الأصفر لدى الإسرائيليين، والتحقيق معه لدى الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية – بينما الحرب مازالت رحاها دائرة أثناء فترة ذلك التحقيق – ثم بثّ جزء من ذلك اللقاء المطول، بينه وبين المحققين، على أثير هواء الإذاعة الإسرائيلية مباشرة، هي في الواقع حكاية باتت معروفة ومشتهرة، ويلمُّ بكثير من تفاصيلها معظم السوريين. وعلى الأخص حين وُجِّه له سؤال من قبل المحقق الإسرائيلي، على الهواء مباشرة في إذاعة إسرائيل، التي نقلت المقابلة مباشرة:

– ماهي الطائرة (الميغ 21)؟

– وكم صاروخا هجومياً تستطيع أن تتزود به؟ أجاب عثمان:

– خمسة صواريخ.

قال له المحقق:

– لكن معلوماتنا أن الميغ 21 لا تحمل أكثر من أربعة صواريخ؟

فبادر عثمان إلى القول:

– صحيح.. ولكن أحياناً قد يكون الطيار الذي يقود الطائرة، وصواريخها الأربعة، هو الصاروخ الخامس.

يومها تم قطع البث الإذاعي مباشرة عن المقابلة، وتحولت الإذاعة فوراً إلى موضوع آخر. لكن الكلمة التي خرجت وانداحت في مطلق الأثير، قد سجلت للتاريخ اسم الرائد عثمان الأصفر باسم (الصاروخ الخامس)، وكتبت جرأته وبطولته في التضحية والشجاعة والوطنية، بحبر لن يمحى إلى نهاية الدهر.

عثمان أصفر، صاحب وسام بطولة حرب تشرين، اعْتُقِل بعد عودته من الأسر لمدة سنتين. ثم أفرج عنه، حيث قضى ست سنوات مُسرَّحاً من الخدمة. ثم اعْتُقِلَ للمرة الثانية، وقضى فترة اعتقال أخرى، بين سجون المزة وتدمر وصيدنايا، قريباً من اثنتي عشرة سنة أخرى.

- 5 -

أكثرُ ما حفزني على الكتابة حول هذا الموضوع، كثيرٌ من الحديث المتداول حول قضية الجاسوس الإسرائيلي "إيلي كوهين"، وإعادة جثمانه من قبل نظام الأسد إلى إسرائيل. تعطي هذه الحادثة انطباعاً عاماً بأننا، نحن السوريين، مُحصّنون تقريباً. ومنعزلون عن إسرائيل، إلا من حوادث اختراق بسيطة تجري أحياناً، وعلى فترات متباعدة خلال سنوات متفرقة. فالسابق في أذهاننا، أننا كتلة متراصة محارِبة "للعدو الصهيوني"، وأن اختراقات هذا العدو لنا، ماهي في الأغلب، إلا اختراقات استثنائية وحوادث متفرقة، ولا ينبني عليها إلا ما ينبني على أي اختراقٍ بين صفي عدوَّين تاريخيين.

الحادثة التالية، أو الحكاية البسيطة التي سأرويها، شكلت انطباعاً خاصاً، انحفر في ذاكرتي مدى الحياة. ولسوف أترك للآخرين حرية تشكل انطباعهم الخاص بهم، كما يشاؤون ويحكمون عليها. ودون أية محاولة مني لصناعة خيال خاص للقارئ المتابع للحكاية.

الحادثة سمعتها مكاشفة شخصية وشفاهية من صاحبها مباشرة، في أحد مهاجع سجن تدمر. ومحدثي كان ذلك الضابط الطيار في سلاح الجو السوري، عثمان أصفر نفسه، أثناء قيام حرب تشرين عام 1973، فقد كان بطلاً من أبطال تلك الحرب، وقد نفذ بطائرته الميغ 21 أولى المهام التي أوكلت إلى سلاح الطيران، وذلك بالتوجه إلى قلب العمق الإسرائيلي، وضرب مصفاة تكرير النفط في حيفا، كما ذكرت قبل قليل. وذلك قبل العودة ثانية لاستلام مهمة عسكرية جديدة. السرب العسكري المقاتل الذي نفذ المهمة كان بقيادته هو. ولقد سقطت ثلاث طائرات منه أثناء تنفيذ المهمة، أو خلال طريق العودة إلى المطارات السورية، فيما نجت بعض الطائرات الأخريات. ومن سوء حظه، وحظ طائرته، أن كان نصيبُها من بين الطائرات التي اشتعلت فيها نيران المضادات الجوية الإسرائيلية، مما اضطره إلى القفز بمظلته والنجاة بروحه، حيث وجد نفسه بعد هنيهة، وقد وقع أسيراً في قبضة الإسرائيليين، فأُخِذَ إلى مركز تحقيق، في أحد مقرات الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية، وهنالك شرع الإسرائيليون في التحقيق الأولي

معه، عاجلاً وميدانياً؛ فالحرب في يومها الأولين، وما تزال ثمة أيام عديدة حتى تضع الحرب أوزارها، ويعلن عن وقف إطلاق النار.

قال الرائد عثمان اصفر:

– في التحقيق بدأ الإسرائيليون يسألون الأسئلة الروتينية المعتادة؛ كل ما يتصل بالاسم الكامل وتفاصيل الهوية الشخصية. والرتبة والقطعة العسكرية التي أعمل فيها. أسماء المطارات، والمراحل التي تدرجت بها فترة التدريب. الضباط الذين أعرفهم، والأصدقاء والمعارف والعناوين المتعلقة بكل تفصيل دقيق، وكل غير ذي بال. لم يتركوا أدق تفصيل مهما بلغ من عدم الأهمية والجدوى، إلا وسألوا عنه، واستفسروا بإلحاح. وكنتُ طوال الوقت أراوغهم وأضللهم قدر الإمكان. هكذا درسونا في الكلية الحربية: (في حالات الوقوع في الأسر، يجب عليك أن تضللَ العدو. لا تعطِهِ شيئاً من أسرارك العسكرية مهما مورس عليك من ضغوط).

استطرد محدثنا معلقاً حول هذه النقطة الأخيرة:

– للأمانة أقول؛ لم تمتدّ يدُ الإسرائيليين إليّ، ولا إلى أحدٍ من الأسرى الآخرين الذين عرفتهم فيما بعد. لم يمارسوا ضغوطاً جسدية ولا لفظية. كانوا يسألون بلهجة محايدة تقريباً، أقرب إلى المجاملة والتهذيب. وكنا نجيب اعتباطاً، وكيفما اتفق. ولم يتوقفوا كثيراً عند إجاباتنا.

بدا لي "تحقيقهم"، وكأنني في منتهى الذكاء، بينما بدوا لنا، نحن الأسرى، وكأنهم أغرارٌ، وغاية في السذاجة والسطحية. وأذكر أن أحد أبرز الأسئلة التي بدؤوا بها كانت:

– ما هو نوع طائرتك الحربية؟

فأجبت وأنا مسرور بداخلي من إجاباتي:

– أنا طيار ميغ 17.

لكأن حطام طائرتي التي هوت في محيط جهتم كانت مجهولة عندهم، أو كأنهم لا يدركون بعدُ الفروقات التقنية بين الميغ 17 والميغ 21. وزادني سروراً أنهم لم يدققوا أو يتوقفوا عند هذه النقطة أيضاً، إذ لم يُعَقّبوا عليها.

كان عدد المحققين اثنين فقط، عدا المرافقة والحراسة. وانتابني

انطباعٌ أوليّ، وكأن ضباط التحقيق الذين كانوا يستجوبوننا، لا يكادون يعرفون كثيراً عن سورية، ولا جيشها ولا طيرانها، ولا حتى أين تقع قطعاتها العسكرية ومطاراتها. وفي النهاية، قال لي أحدهم:

– الله يعطيك العافية. هذا كل شيء. لقد انتهى التحقيق معك.

انتهى التحقيق.؟ أهذا يُسمى تحقيقاً مع طيار في جيش عدوهم، قصفت طائرته قبل ساعات مصفاة نفطهم؟ أهذا هو العدو الإسرائيلي إذن؟ خاصةً أن تحقيقهم لا يوجد فيه، لا فلقة ولا كرباج ولا بساط الريح ولا دولاب ولا صعق كهربائي ولا غيره.

في اليوم التالي مباشرة، استدعوني من زنزانتي، وأدخلوني غرفة أخرى غير السابقة. كانت الغرفة مكتظة بالأضابير في كل مكان: على الجدران، وأمام طاولة المحقق. وفي الزوايا، وعلى الأرض. وكان ثمة محقق واحد يجلس خلف الطاولة، وبدا وكأنه منهمك ومشغول جداً، إلى درجة أن دخولي لم يُثِرْ اهتمامه كثيراً. وبعد عدة دقائق صمت، والرجل يقلب في أوراق وأضابير أمامه، رفع رأسه، وبدأ بالسؤال:

– أي يا عثمان.. قلت لي إنك طيار ميغ 17 إذن؟ لن ندقق في كل ما قلته يوم أمس، لأنه لا يهمنا كثيراً بصراحة. ولكن يجب أن ننتهي بسرعة، فلا وقت كثيراً عندي: أنت فلان بن فلان. مكان وتاريخ الولادة كذا. درست الابتدائية في مدرسة.. والاعدادية في مدرسة.. دخلت الكلية الحربية شهر كذا من عام كذا.. ثم راح يسرد عليَّ قريباً من نصف ساعة، كل تفصيل عن حياتي، منذ الطفولة وحتى قبل أيامٍ من بدء الحرب؛ تاريخ ترقياتي العسكرية، وأسماء قادتي وزملائي في المطار. حتى علاماتي المدرسية في المراحل الابتدائية، وحتى نهاية المرحلة الثانوية، ذكَّرني بها وهو يسردها بالتفصيل، مادة مادة، وكذلك أسماء أقاربي جميعاً، حتى الموتى منهم، وحتى أقرباء الدرجة الثانية والثالثة، وأسماء زوجاتهم وأبنائهم.

أخيراً، صمت لحظة، وقال:

– هل أدركتَ الآن لماذا نحن لم ندقق عليك في التحقيق الأولي يوم البارحة؟ ببساطة؛ لأننا لا نحتاج منك أية معلومة تزودنا بها، لا مدنية ولا عسكرية، ولا فيما يخص أي جانب اجتماعي، أو شأن عام أو شخصي.

ثم أردف وهو يبتسم ساخراً:
– يا... يا طيار الميغ 17..
وقبل أن يفرغ من مهمته في التحقيق معي، سألني المحقق فجأة، ودون مقدمات:
– يا فلان.. أنت ابن مدينة اللاذقية.. ولا شكّ أنك تعرف أين يقع مبنى "مديرية الأوقاف في اللاذقية"؟
الحقيقة أنني لم أكن أعرف قبلُ؛ أين يقع مبنى مديرية الأوقاف تحديداً. قد يكون تناهى إليَّ بالصدفة موقع الحي العام، أما الشارع وعين المبنى وعنوانه، فلم يكن لديّ فكرة أو معرفة مسبقة، ولا دخلت مبنى مديرية الأوقاف طيلة حياتي. وحين نفيت علمي بمعرفة الشارع والبناء الذي تقع فيه مديرية الأوقاف، نهض المحقق، ونشر أمامي صورة كبيرة بحجم جدار غرفة التحقيق، مسقطة عبر راشق عاكس الصور. صورة مجسمة لمدينة اللاذقية. وكانت تعكس أطراف المدينة الأربعة. ثم عاد إلى سؤالي ثانية، وهو ينتقل بالمؤشر خلال تفاصيل الصورة:
– تعتقد المديرية هنا مثلاً؟ أم.. في هذا الحي..؟ قرب السجن..؟ على مبعدة كم كيلو متر من..؟ بجانب الحديقة الصغيرة..؟ أو..
أجبتُ وأنا أحاول التخلص من السؤال، والانصراف من التحقيق على وجه السرعة:
– لستُ على يقين. قد تكون بناية الأوقاف هذه أو هذه.. لستُ متأكداً.
وانتهى التحقيق، وأعادوني ثانيةً إلى الزنزانة.
بعد ثمانية أشهر من مكثي في الأسر في إسرائيل، تمَّ تبادل الأسرى بين الجانبين؛ السوري والإسرائيلي، وعدتُ إلى الوطن محرراً، وأنا أشعر بكامل الفخر والاعتزاز والرضى النفسي. جرى التحقيق معنا في سورية أيضاً، وتمَّ سؤالنا عن كل التفاصيل التي واجهتنا، والظروف التي عشناها خلال الأسر. ونسيت حادثة أسري بتقادم الوقت.
وبعد زمن، كنا نتحادث، أنا وبعض أصدقاء من الضباط السوريين، ممن شهدوا حرب تشرين، فأعدتُ على مسمعهم بعض الحوادث الطريفة من قصتي في الأسر، وكان بين المستمعين ضابطٌ كبير في سلاح البحرية. وما

إن أتيتُ على ذكر حكاية سؤال الإسرائيليين عن بناية "مديرية الأوقاف"، وأنا أضحك من السؤال، حتى بادرني ذلك الضابط قائلاً:

– هل تعلم لماذا سألوك عن بناية وزارة الأوقاف؟ .. قلت:

– لا.. حتى اليوم لا أعلم، ولا أكاد أستوعبُ سبباً وجيهاً يدعوهم للسؤال عن "مديرية الأوقاف"، والحرب ما زالت مشتعلة في أيامها الأولى؟

قال الضابط:

– الحقيقة يا صديقي، أنا كنت من بين الضباط الذين رُشِّحوا لأركان قيادة القوى البحرية قبل الحرب. وقد بُلِّغْنا أن مقر قيادة أركان القوات البحرية سيظلُّ سرياً لفترة، لضمان عدم تسرب، أو معرفة مقر القيادة، حتى لحظة بدء المعركة. وفي الساعة الأولى لإعلان ساعة الصفر، تمّ نقلُنا إلى بناية غريبة ومجهولة، علمنا فيما بعد أنها تحتوي على قبو واسع تحت الأرض، وأن المعركة البحرية ضد الإسرائيليين سوف تدارُ وتقاد من قبو هذه البناية. ثم علمنا فيما بعد، أن البناية تعود لمديرية "أوقاف اللاذقية"، وأن المديرية تقع في نفس تلك البناية. وهكذا، حسب تاريخ وصفك لتلك الحادثة، فإن الاستخبارات الإسرائيلية، كانت على علم بتغيير مقر قيادة أركان القوات البحرية قبلنا، نحن ضباط قيادة الأركان. بل وحتى قبل أن ننتقل إلى مقرنا الجديد في ذلك القبو، وبدء الإشراف على المعركة البحرية أول أيام الحرب.

– 6 –

ليس قليل دلالة أن سائر مجموعة العميد شعبان، عدا الضباط المسرحين من الجيش منذ وقت طويل، كانوا جميعاً مُرَسَّمين أبطالاً، حازوا على أوسمة البطولة بعد حرب تشرين، عام 1973. فالعقيدان حسن دالي وعبد السلام حكواتي، والمقدم طراد الصالح، كانوا من خيرة وألمع الضباط العاملين في الجيش، فضلاً عن كونهم من أصدقاء العميد شعبان ومن تلامذته النجباء. حسن دالي، أبو ضياء، هادئ بسيط، طويل البال، شديد الفهم، ومسدد القناعة الشخصية بالصبر على الملمات، وتطويع الذات الشخصية بكل ما يملأ الروح إيجابية. كما يميل إلى الروح الشعبية، وإنكار الذات إنكاراً مفرطاً. أما عبد السلام حكواتي، أبو معاوية، فهو صاحب الصوت المجلجل، والنكات والضحكات التي لا تنقطع. وهو المحبوب، لفرادة حكمته وخبرته التي تجعله محط اهتمام من قبل الآخرين دوماً، وله جاذبية خاصة.

كانت القيادة القومية، والسلطة البعثية في العراق، تراقب كل شيء، ومُطَّلعة على سير كل تفاصيل الأوضاع الداخلية للمجموعة الانقلابية، التي ربما وصل أعداد المنتسبين السريين إليها، قد قارب مئة الشخصية عسكرية، أو قريباً من هذا العدد. العميد شعبان، وبرغم كل صنوف وأنواع التعذيب التي مورست بحقه، على يد كبار ضباط الأمن، والتي احتملها بشجاعة وجَلَدٍ وإنكارٍ تام، ، لم يعترف إلا بأسماء الضباط الذين باتوا معروفين للسلطة بفضل الجاسوس الذي تعهدت السلطات الأمنية بدسّهِ بينهم، وعملت على زرعه في وقت لاحق، وهو المقدم مصطفى حماض. وقد شارك في التحقيق مع سائر أعضاء المجموعة عدد كبير من ضباط المخابرات العسكرية. وبالطبع، كان الأسد قد فتح خط اتصال ساخن، بحيث يوافى بنتائج التحقيق لحظة بلحظة.

كانت حرب المخابرات قائمة على أشدها بين البلدين سورية والعراق. وكان الأخوان يستفيدون كلما اشتد أوار النار بين الطرفين. أما الطليعة المقاتلة، فكانت دائماً ما تلعب دور الذي يأتي أخيراً، ليخرب اللعب على الجميع. والسلطة السورية كانت تراقب الوضع عن كثب، قبل الانقضاض على المجموعة واعتقالها.

بعد أن نجحت الخلية الأمنية المتابعة للمجموعة، في مراقبة الجميع عقب إدخال أحد عملائهم، الذي كان يتبع للمخابرات العسكرية، وتحت التصرف المباشر للواء علي دوبا، (رئيس المخابرات العسكرية)، كان ذلك الطعم الأمني مصطفى حماض، برتبة مقدم في مشاة الجيش، وهو من مدينة حلب. كان من رأي الأسد ومكتب رئاسة الجمهورية والقصر، أنه رجّح فكرة الهجوم المبكر على كامل تنظيم شعبان خطاب. وكانت الذريعة أن مزيداً من الانتظار تعني مزيداً من تجنيد عناصر ضباط الجيش، وبالتالي مزيداً من كرة الحريق الذي بدأ يلتهم قطعات الجيش، بسهولة وعدم تردد أو اكتراث. الأمر الذي أثار تعجب مكتب الأسد شخصياً.

أما المخابرات العسكرية، فقد كان لها رأي آخر؛ ألا وهو الصبر والمزيد من الانتظار، حتى تضع يداً على المغارة السرية الضيقة، التي انفتحت على شبكة الطليعة المقاتلة للأخوان، والخيط الذي ربط مصير شبكة العميد شعبان بالطليعة. وذلك بعد أن أمسكت خيوط الاتصال ببغداد، عن طريق المقدم بولس مستريح وشقيقه الدبلوماسي في تركيا.

مصطفى حماض كان جحشاً سكيراً، ولم يكن يتحلى بمواهب ومؤهلات كافية. كل مافي الأمر أنها الصدفة والاضطرار، بحكم صداقاته المتشعبة والقديمة مع الرائد فوزي العزاوي، والمقدم خالد جزماتي، والرائد محمد العبد الله، الذي لم يكن له أي دور سوى صداقته الشخصية مع النقيب نصر خطاب، ابن عم العميد، قائد المحاولة الانقلابية – والمقدم البحري عبد الله شاكر، "أبو عمار"، والذي لم يكن له هو الآخر أي دور أو علاقة سوى فرضية الاشتباه به، لكونه صديقاً حميماً للنقيب نصر خطاب، ودائم الصحبة له.

مع العلم أن عبد الله شاكر، بخبرته في علوم قيادة القوى البحرية، ودراسته وبعثاته التي أوفد فيها إلى عديد الدول، لدراسة علوم الحرب في القوى البحرية، كان يمثل في الجيش السوري، ما يمثله اليوم قادة الأساطيل البحرية في جيوش الدول المتقدمة.

وكذلك أيضاً، بسبب ارتباط حماض وصداقته – بحكم العمل والزمالة التاريخية في الجيش – بكل من المقدم طراد الصالح، والعقيدين حسن دالي وعبد السلام حكواتي.

قال المقدم خالد جزماتي للعقيد عبد السلام، ذات ليلة، وقد انتحينا جانباً، فيما يشبه سهرة من سهرات المهجع الثاني، اليومية المعتادة، في طابق سجن المزة الأرضي:

– ذات مرة، شربنا أنا ومصطفى حماض حتى قريب من مطلع الفجر. سكرنا حتى الثمالة، وقد سألته يومها مازحاً:

– إذا طلبت منك أن تبيعني ضميرك، فهل ستسألني عن السبب؟

أجابني وهو يخور كالثور، من شدة البهجة والترحيب بالسؤال:

– لا.. سأسألك فقط عن السعر!

وقال الرائد حسن وزان:

– إنه أحقر من سكّير يرهن دكّة أسنانه الصناعية، لكي يشتري بثمنها خمراً، أو عاهرة عجوز شمطاء، تبيع باروكة شعرها المستعار، لتنفقه على عشيق مراهق كي تستبقيه في حضنها.

وقال المقدم عبد الرزاق الكبيسي، وهو يضرب بكفيه على الأرض من شدة الغضب:

– ذلك الإنسان.. كم كانت جريمة فظيعة وجوده في هذه الحياة..!

وأكد العقيد عبد السلام، أبو معاوية:

– صحيح. بعد خروج المني، لا يمكن إعادته الى الخصية.

وقال الملازم غسان السيد:

– إذا وضعتَ تاجاً على رأس كلب، فالأرجح أن رسنه سيغدو قليل الفائدة. وإذا أردت التفوق في ظل دولة الأسد، فلا تنسَ نصيبك من البلادة والطيش والجهل.

كان المقدم الجزماتي قد جعل يستشعر بعض الريبة والشكوك، في دور المقدم مصطفى حماض، وازدادت شكوكه أكثر حين أوعزت

المخابرات العسكرية إلى حماض بأن يثير دائرة من الريبة حول زوجة المقدم طراد الصالح الأولى. في تلك الفترة كان المقدم طراد قد تزوج من امرأة ثانية، بسبب علة عدم إنجاب زوجته لأسباب مرضية. وكانت زوجته الأولى قد بلغت مبلغاً من الضيق والغضب بزواجه الثاني، أنها كانت كثيراً ما تتصل تليفونياً بزوجات أصدقاء المقدم طراد، وتشرع في الشكوى المريرة، وتبادر إلى توزيع الاتهامات بحق وبغير حق، حول دور أصدقائه في تشجيعه على هذا الزواج، وفي تسهيل الأمر والسعي مضياً فيه، إلى أن انقضت أيام وأسابيع، والمرأة لا تكف عن التبرم والشكوى، وإطلاق الشتائم والتهديدات بحق كل المقربين من المقدم طراد.

وحين أخذت المخابرات العسكرية تتنصت على التليفونات الكثيرة والمتعاقبة يومياً، أوحت تلك المرأة المنهارة التي فسدت نفسيتها نهائياً، والغاضبة إلى حد التدهور الذي لا حدود له، أوحت بفكرة للواء علي دوبا. وهي أن يرسل التحذيرات المشككة بزوجة طراد الأولى، ودورها في تخريب الانقلاب، وكشف معظم خفاياه التنظيمية.

أما خطة رئيس الاستخبارات فلم تكن محصورة بحماية حماض من التهمة، فيما لو اكتشف أمره فحسب، ولكن لإيقاع نزاع وإحداث فجوة تنظيمية بين جميع الفرقاء، بحيث ينقسم القوم الى فريقين: فريق سوف يُحَمِّل زوجة المقدم طراد الأولى، كامل المسؤولية والذنب في إجهاض المحاولة وكشفها وتخريبها، وفريق آخر من المدافعين المتعصبين للمقدم طراد، سوف يعمل على الاصطفاف إلى جانبه، والتقليل من شأن الغضب ضد زوجته ومراميها الكيدية، وهكذا سوف يكون الجاسوس مصطفى حماض خارج الدائرة، وبعيداً عن أن يكون موضع شبهة أو تهمة.

الفصل الثالث

أنا الذي رأيت

– 1 –

تعلمنا الكثير من الأشياء خلال فترة قصيرة. حفظنا معظم أسرار سجن المزة العسكري، وخبرنا طبيعة العلاقات بين إدارة السجن والمهاجع المختلفة. وبين المهاجع فيما بين بعضها بعضاً. أخافتني في البداية شخصية أولئك المساعدين العتيقين؛ خاصة أبي سومر وبديع وحمدو، وذلك لكثرة ما كان يروج حولهم من همهمات وتمتمات وإشاعات تصيب المرء بالدهشة. حمدو كان متخصصاً بالتنكيل بالسجناء الجدد، والسجناء ذوي الحالات الخاصة التي تلحظها إدارة السجن بشديد المراقبة والمضايقة، وذلك حسب التعليمات التي كانت تصل يومياً من إدارة السجون. وبديع متخصص بسرقات النقود والأغراض والأطعمة التي كانت تدخل إلى السجناء القدامى، المسموح بزيارتهم من قبل ذويهم.

أما أبو سومر، فكانت أكثر مهامه التعذيب والجلد وتنفيذ أحكام الإعدام شنقاً، التي كانت كثيراً ما يجري تنفيذُها داخل السجن. حتى أن الروايات عنه قد تواترت بأنه يقوم على خنق المعدومين قبل موتهم، وهم معلقون على الحبل، وذلك بالتعلق بأجسادهم، كما يتعلق طفل بأرجوحة، ثم مرجحة جسمه بكل ثقله في جسد المعدوم وهو يتخبط متدلياً من الحبل، وذلك كي يبلغ المحكوم ذروة قصوى من عذابات الثواني الأخيرة، حتى مفارقته الحياة. وكان يبرر هذا الفعل بالقول:

– هذه الطريقة لصالح المحكومين بالإعدام لو يعلمون ذلك. أنا أعجل بصعود روحهم بسرعة، لأختصر عذاباتهم.

أما المساعد حمدو، وبعد أن باتت أعداد السجناء الوافدين إلى المزة بالمئات، وبعد أن خضع كل هؤلاء لأحكام المحكمة الميدانية، فقد كان أكبر ولعه في التنكيل بالسجناء الذين تصدر أحكام البراءة بحقهم. أو أحكام مخففة، وما يُعدُّ في حكم البراءة؛ كالسجن بسنة واحدة، أو ثلاث

سنوات مع الأشغال الشاقة، وهو ما كان يُعَدُّ في حكم البراءة. فكان معتاداً على حمل سوطه المجدول القاسي، وفي كل مساء كان يدور على المهاجع ليتفقد السجناء المحكومين، والويل لمن صدر الحكم ببراءته.

كان صوته دائماً ما يجلجل بين جدران المهاجع، صارخاً بغضب وحقد:

– ولك يا عرص.. بدك تقلي ليش انحكمت براءة ليش.. هاه؟

– سيدي المحكمة الميدانية حكمتني براءة لأني ماني مسوي شي. أنا جيت لهون بالغلط..

– وليش جيت بالغلط؟ وليش مانك مسوي شي..؟ مين قاللك انو نحن ما بدنا ياك تسوي شي..؟

– يا سيدي أنا بريء. ماني مسوي أي شي برات السجن.

– ولك يا عرص.. يا كلب يا بن الكلب.. نحن بدنا ياكن تسووا شي وتجوا. ولك الله يلعنك فوق مانك بريء، والله يلعنك لأنك مانك مسوي شي برة.

ثم ينهال عليه بالجلد المتواصل.

قال لي الرائد حسن وزان:

– هنالك غزو همجي كبير تعرضت له سورية. غزو أسوأ بكثير من حملات المغول والتتار على الشرق وتدميره. الأرجح أن كلمة "تعرضت" غير مناسبة هنا، بل الأنسب أن أقول: قد بدأت تتعرض له منذ وصول الأسد إلى سدة الحكم، أما ما سوف يعقب ذلك من حملات هذا الغزو، فأظن بأنها سوف تأتي لاحقاً. ولسوف تأكل كل شيء في هذا البلد. كل شيء. ومثلما يأكل الجراد كل ما أنبتته الطبيعة وخَضَّرَتْهُ الأرض. الفارق فقط هو أن الناس حتى الآن، لا يعلمون شيئاً عن هذا الغزو. هم يظنون أن المسألة لا تتعدى كونها مسألة نظام حكم، وصل إلى سدة السلطة، وهذا كل شيء. أما أن يعتقدوا بأنه جيد أو غير جيد. سوف يستمر في الحكم أم سوف يسقط، فهذا يخضع لما تخضع له طبيعة كل أنظمة الحكم في العالم.

وفي المحصلة، حتى الذين واجهوا النظام وعادوه، بل وقتلوا في الخنادق في سبيل إسقاطه، إنما كانوا يفعلون ذلك لأنهم مجرد مستائين من سلطة وحكم مستبد غاشم. لا يساورهم، ولن يساورهم

يوماً، أنهم إنما تعرضوا لغزو كبير. ربما كان أكبر غزو في تاريخ العالم. غزو تقوده قوى كبرى، أكبر بكثير من الأسد ونظامه ورجالات حكمه. فالغزو في الحقيقة قناعة تشبه أن تكون "ديانة". ولكن حتى الآن لا يوجد سوري واحد مؤمن بهذا الدين.

أنا لست حاقداً، شأن بقية رفاقي وزملائي، على هذا اليهوذا الاسخريوطي، مصطفى حماض، لاعتقادي أن هنالك عشرات الآلاف مثله، بل وربما أسوأ منه، سوف يأتون لاحقاً. فهنالك من يقاتل في الخندق الذي يعتقد أنه يتطوف حول الشرف والمجد، وحماية سور الوطن الذي بدأ ينهار، منذ أن تقرر ذلك الغزو، وهو سينهار لا محالة.

هناك من سوف يظل يقاتل، وإن كان الأمل في الظفر بالنصر معدوماً، والنتيجة محسومة سلفاً، لصالح الغزو الذي بدأ وقطيع جراده الكبير. وهناك في المقابل من سوف يظل يقاتل في الطرف الذي لا يملك سبباً يجعله يقاتل، ويصطف إلى جانب الغزو والغزاة، إلا بكون نتيجة المعركة شبه مقررة ومضمونة النصر سلفاً، فانتصار الغزو والغزاة بات في حكم المؤكد.

كان الرائد حسن وزان، بعد طرده من الخدمة في الجيش قد التحق بالجامعة، وتخرج من كلية الآداب قسم اللغة العربية. ولقد اضطر إلى سد عوزه وفاقته من إعطاء دروس باللغة العربية في المنازل، وذلك في التعليم عن طريق الدروس الخاصة. كان رجلاً مستقيماً، حالماً، متعلماً، وذا ثقافة رفيعة وأدب جمّ. ولقد أَلِفتُ بمرور الوقت الجلوس في حلقته، التي ضمت شباناً كثيرين، كانوا يلتفون حوله معظم الوقت، ويتعلمون منه دروساً شتى.

قال لي مرة:

– الويل لنا لو قادنا التافهون، وقعد وخزي فينا القادرون. ولكن استمع لنصيحتي؛ لا تسأم بسرعة من كل هذا الشر الكثير، ولا تتضجر بنزق من كل هذا القبح الوفير. هذه الأرض كانت وما زالت أفقاً وهاجاً، وماءً ثجّاجاً. رخوة رهوة. وبضة كالقشدة. تحدها من بداياتها اللا بداية. وترسم نهاياتها اللانهاية. رغم كل هذا القتل الكثير الوبيل. رغم كل هذا النور الذي ينطوي انسدالاً فوق صفحة الظلام، ورغم هذا الظلام الذي ينسدل طياً فوق صفحة النور. لا تستسلم لمجرد أنك غدوت

سجيناً وراء الحيطان، ومدفوناً بين صفائح من الجدران. لا تستسلم لمجرد أنك حُكمتَ بالتعليق على حبل مشنقة. ولا تستسلم حتى لمجرد أنك مت، وغدوت في عداد الراحلين إلى الله.

ثم أضاف، ملمحاً إلى مجموعة أبي علي الجندي، وبعض عناصر مجموعات "شغب اللاذقية"، الذين كانوا قد بدؤوا بالتوافد تباعاً على المهجع في المزة:

– تنبعث من خلال السجن تجليات وانطباعات أحياناً صائبة، انطباعات تعجنها تقديرات النفس، بأن محنة بعض القادة، مصدر أوجاعها مجموعات من العوام والرعاع الذين لا يصلحون لشيء. مثلما تكون محنة بعض مجموعات أخرى، مصدر أوجاعها قادة صغار نفوس، ومعدومو مواهب أقرب إلى الطيش. ولا غرو أن بعض هذه التقديرات تخطئ قليلاً..

ثم قائلاً:

– إذا فكرتَ يوما أن تكون القائد، أو الرجل الأول. فأول درس ينبغي عليك أن تتعلمه، هو أن تتعلم كيف يمكن أن تكون لوحدك أكثرية. وكيف تنجح في أن تكون الرجل الثاني. إذ كلُّ سر القيادة يكمن خلف الرجل الثاني. المشكلة أن العميد شعبان، كان الرجل الأول والثاني والثالث والعاشر. انظرْ إلى هؤلاء الضباط جميعهم. ليس أهلاً بينهم من يمكن اعتباره الرجل الثاني.

– حتى أنت؟

– حتى أنا..!

ثم أضاف عبارة لم أدرِ ما الذي وقر في نفسه حين قالها، وما المغزى من ورائها حتى اليوم، حين قال:

– لا تختر قدرك. قم بما ينبغي عليك فعله فحسب. ولا تقترض ما لا تستطيع سداده.!

– 2 –

انضم إلى مجموعة حلقتنا اليومية لدى الرائد السابق، والأستاذ المثقف حسن وزان، في المهجع، سعيد الشيخ سعيد، وهو ابن خالة الرائد عبد الزاق الكبيسي، أو أبو سعيد كما كان ينادى في الشائع. كان الشيخ سعيد شاباً في مقتبل العمر، لم يتجاوز السادسة والعشرين بعد. وهو مهندس في صناعة النسيج والحرير في اختصاصه الجامعي. حصل على شهادته الجامعية من الاتحاد السوفياتي، موفداً من قبل الحكومة السورية، بسبب تفوقه في شهادة البكالوريا. وهناك في موسكو، انضم سراً إلى مجموعة الشيخ مروان حديد، وجعل يتابع نشاطاتها مبكراً. ثم أصبح عضواً مميزاً في جماعة الطليعة التي أسسها الشيخ مروان.

قبل انضمامه، كنت قد سألتُ الرائد حسن وزان، عن الأسباب التي دفعت العميد شعبان، إلى مثل هذه اللقاءات والتفاهمات مع الطليعة المقاتلة. فأجاب:

– نحن لا نعرف الأخ الشيخ سعيد جميعنا. لم نلتقِ بأي عنصر من عناصر الطليعة المقاتلة. لا نعرفهم ولا يعرفوننا. المسألة كلها أنَّ ضعفنا بيّن، وإمكانات ظفرنا ونجاحنا كانت في حدود اليأس. النظام له حلفاء أقوياء، ولا نملك الأدوات الكافية للتوصل إلى الشارع والجماهير، التي لم تكن ترى بدائل حقيقية عن النظام الواقع، سوى في الطليعة، وفي التدخل العراقي المباشر. نجاحنا مشكوك فيه بدون هذه التفاهمات، ولقد أكره العميد شعبان إكراهاً على بناء مثل هذه التفاهمات، والتي لم تتعدَ واقعياً، أكثر من عدة لقاءات لم تسفر عن نتائج واضحة كثيراً. لقد كان الحوار في بداياته.

ثم أضاف:

– الاقتراح كان من قبل الأخ عبد الرزاق كبيسي، فقد قدم هذا الاقتراح بحماس كبير، باعتبار أن الشيخ سعيد، وهو عضو بارز ونشيط في الطليعة، كان ابن خالته، وصديق طفولته وموضع أسراره وثقته.

قلت لحسن وزان، بعد أن توطدت صلة رابطة واختلاط يومي مع الشيخ سعيد:

– الرجل ليس متعصباً، ولا هو بالمحدود الأفق السياسي كما يُتوهم. فهو معتدل وفي غاية الانفتاح على الآخرين.

– لو لم يكتشف المجرم مصطفى حماض هذا السعي، ولم يطلع على هذه الصلة بين عبد الرزاق والشيخ سعيد بمحض المصادفة، ربما لتغيرت طبيعة القضية بصورة كبيرة.

– كنتم ستحسبون على القيادة القومية في العراق. هذا كل مافي الأمر.

– نعم. كانت بغداد في حساباتنا هي المدخل لنيل موافقة ضمنية، وإقراراً من العالم بموافقة على إسقاط نظام الأسد. أو على الأقل عدم التدخل الدولي لدعمه، ولكن يبدو بأن القرار النهائي حول مصير هذا النظام كان بيد الإسرائيليين. النظام يشتغل عند الإسرائيليين منذ بدايته، وهو جواد إسرائيل الذي راهنت عليه وحافظت على وجوده، وحمته من السقوط. الإسرائيليون لا يريدون رحيله. وسقوطه بالنسبة إليهم خط أحمر، غير مسموح تجاوزه. والأمريكان يحذون حذو الإسرائيليين في قراراتهم البعيدة. وبغداد تبلغت هذا القرار الدولي، فقررت أن تبيعنا بصمت، وبعدم التدخل بصورة جدية.

– والآن أنتم تحاكمون في محكمة عسكرية ميدانية، رأت أن تتهمكم بالانتماء لكلا الطرفين: للعراقيين وللطليعة المقاتلة..؟

– تماماً.. رغم أننا لا نكاد نعرف الطرفين إلا مؤخراً. العراقيين بسبب صلة بولس مستريح، والطليعة بسبب صلة عبد الرزاق الكبيسي.

– حاولت أثناء التحقيق معنا في دير الزور، أن أقنع المحققين بأن مجموعتنا التي لم تكن تتجاوز عشرة الأفراد، إنما هي مجموعة يسارية تضم شيوعيين سابقين، ولقد نجحت في ذلك جزئياً. لكن المحققين في فرع فلسطين رفضوا كل نتائج التحقيق معنا في دير الزور، وأصروا بأننا متواصلين مع العراقيين. كانت هنالك رسالة سرية مهربة، تم اكتشافها مع أحد المعتقلين، تذكر بأن لقاءات عدة قد حصلت فيما بيننا. ولقد هُددنا صراحة في فرع فلسطين؛ بقولهم: اختاروا واحدة من اثنتين، إما أن تُحتسب مجموعتكم كطرف ذي صلة بالطليعة المقاتلة، او بالعراقيين.

– واحتسابكم على الطليعة سوف يؤدي بكم إلى تطبيق القانون 49 بحقكم في المؤكد؟

– بالضبط. لذلك كان أفضل الخيارات، هو الإقرار بأننا جزء من شبكة تنظيم تتبع للنظام في العراق. مجموعتنا هي مجموعة سرية مستقلة لا صلة لها بالبعث العراقي. وهي لرفقاء يصل عددهم إلى قريب من عشرة أصدقاء.

– ياله من شتاءٍ قاس هذا الشتاء..

وحقاً كما نطق الرائد حسن وزان. فقد كان شتاءً قاسياً من كانون عام 1980. وكان كلُّ شيءٍ يدعو للبكاء والرثاء.

بعد حوالي شهرين على عرض مجموعة الضباط على المحكمة الميدانية، جاء ذلك الصباح الذي حضرت فيه المحكمة الميدانية لتبليغهم الأحكام الصادرة بحقهم. ولقد كان لافتاً حقاً كل ذلك الحقد عليهم، وكل تلك القسوة في الأحكام الصادرة بحقهم.

كانوا ثمانية عشر رجلاً، أحدهم هو مصطفى حماض – الذي كانوا يسمونه يهوذا الأسخريوطي – وقد أسند له، كجائزة على خيانته لرفاقه ووشايته بهم، منصب الرئيس في أحد الفروع الأمنية، وظل يمارس دوره كضابط مخابرات، فترة من الوقت، حتى دبّرت له السلطات حادث سير مفتعل أودى بحياته. وقد سرت إشاعة فيما بعد، أن الحادث كان بتدبير وبأمر من حافظ الأسد شخصياً.

أما السبعة عشر الآخرون، فقد حكمت المحكمة الميدانية على تسعة منهم بالإعدام، وهم العميد شعبان خطاب، والعقيد عبد السلام حكواتي، والعقيد حسن دالي، والمقدم طراد الصالح، والمقدم بولس مستريح، والملازم أول غسان السيد، والرائد المسرح من الجيش حسن وزان، والرائد عبد الرزاق الكبيسي، والمدني المهندس سعيد الشيخ سعيد.

كما حُكم على المقدم خالد جزماتي بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة. وجاء في حيثيات الحكم الصادر بحقه: مع تشديد العقوبة، وعدم تخفيض الحكم بحقه في المستقبل، لأي سبب كان. (وقد قضى المقدم خالد جزماتي فترة 22 سنة في تدمر).

كما حكم على كل من الرائد نصر خطاب، والرائد عثمان أصفر، والمقدم الركن عبد الله شاكر، والرائد فوزي العزاوي، والمهرب المدني العجوز أحمد عمر العسل، بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً مع الأشغال الشاقة.

وتمت تبرئة متهمين اثنين، هما: الملازم أول محمد العبد الله، والرقيب أول المجند محمد صدّيق شخيص.

وقد نفذ حكم الإعدام بالمجموعة رمياً بالرصاص، بعد حوالي شهرين من صدور الحكم، في موقع عسكري يتبع للجيش، يسمى حقل صنوبر جبلة للرماية.

ولم يكن الفهم ليصعب بأن بقية مجموعة العميد شعبان خطاب التي نجت من حكم الإعدام، أمام محكمة القعقاع في المزة، والتي تمَّ ترحيلها إلى تدمر، قد زُوِّد السجن العسكري بتوصية خاصة، كي تُشدَد جرعة العقاب بحق أفرادها. فقد كانت سرية التأديب في السجن، كلها تنتظر وصول "الضباط"، وهم على أحر من الجمر.

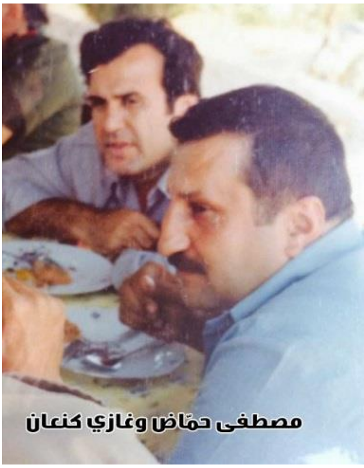

في الباحة الأولى حصلت مجزرة كرابيج فظيعة، يندر أن حدثت لها نظائر أو أشباه، فور وصول الضباط. فقد كاد عناصر الشرطة أن يفتكوا بالرجال الثمانية، المتبقين من سائر المجموعة، فتكاً ذريعاً من هول ما أوقعوا بهم من الضرب المبرح. (بعد أن استُبعِد الرقيب شخيص، والرائد محمد العبدالله من الترحيل مع باقي المجموعة إلى تدمر). وأثناء هذا

الاستقبال المفرط في الوحشية بحق الضباط، جرت حادثة لا تخلو من ندرة أو طرافة. فقد كانوا يسجلون الأسماء، بينما انصرف بعض عناصر الشرطة للاستعلام عن رتب هؤلاء الضباط. وخلال السؤال عن رتبهم العسكرية، أجاب المقدم الركن عبد الله شاكر، أحدهم قائلاً:

– سيدي أنا بشتغل معلم دهّان.

انصرف الشرطي نحو رئيس اليومية لينبئه بالأمر، أو يزفَّ له خبراً تحذيرياً، حتى لا يقع لبس بينه وبين الضباط الآخرين. ولكن فجأة راح أحد العناصر يدقق في ملامحه، متمعناً ممحصاً:

– ولاه.. انت مو كنت رفيقو لفلان؟ هاد قرايبي كان ضابط بالبحرية. وكنت تزوره ويزورك، وتقعدو على طول عالقهوة سوا؟

– صحيح سيدي. عرفته، كان هذا الضابط صديقي الحميم، وأنا معلمه وهو مستجد. انتسب إلى سلاح البحرية بعدي بسنوات.

– لكن كيف عم تقول انك معلم دهان؟ ولك انا بعرفك منيح. انت مقدم بالبحرية.

– والله ياسيدي. بصراحة أنا مصلحتي الأساسية كانت وما زالت معلم دهان. بس لما دقَّرت المصلحة معنا، وخف الشغل شوي، قلت لحالي بشتغل بمصلحة تانية. وهيك رحت تطوعت بالجيش وصرت اشتغل بعد شغلي مقدم ركن بالبحرية.

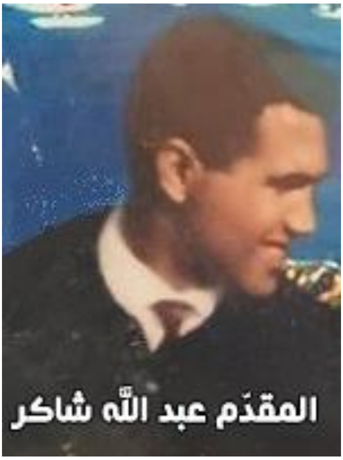

– ولاه..؟ عم تتمنيك علينا ولاه..؟ عم تمزح انت ولا عم تخفف دم؟ مشان ما تاكل قتلة متل رفقاتك بتقول انك معلم دهان؟

– والله انا معلم دهان.. هيك مصلحتي وهادا شغلي.. ليش ما بدك تصدقني ما بعرف..

ثم صاح الشرطي ملتفتاً إلى بقية عناصر سرية التأديب:

– ولك هادا اللي عم يقول بأنو معلم دهان، مشان ما ياكل قتلة متل البقية؛ هادا ضابط من جماعة

شعبان خطاب متلهن. هادا مسوي دورة قيادة أساطيل بحرية، وقائد قوات الطوربيدات، وكمان بقيادة أركان البحرية. ودارس ومسوي دورات بروسيا. ليك العرص، قال معلم دهان قال..!

– صدقوني أنا معلم دهان.. وبرات شغلي بشتغل مقدم ركن بالبحرية بالجيش..

– 3 –

حتى مواعيد حضور هيئة المحكمة الميدانية بطاقمها: اللواء حسن قعقاع، والعميد حسن الجرف، والرائد جودت حبيب، وبعض العناصر من الكتبة والمدونين والمساعدين؛ بات معلوماً لنا جميعاً متى سوف تحضر.! ولم تكن هيئة المحكمة الميدانية لتأتي إلى سجن المزة، إلا لتبليغ الأحكام الصادرة بحق آخر دفعة من المعتقلين تم تقديمها إلى المحاكمة، في مقرها الرسمي: فرع آمرية الطيران، كما كانت تدعى.

كان هنالك شاب عسكري مجند، تم اعتقاله أثناء الخدمة، بسبب تلفظه في لحظة انفعال طائش بعبارة: (الله أكبر.. الموت للطائفيين)، وذلك عقب ورود بعض أخبار أو إشاعات لمعارك يومية، كانت تحصل بين مقاتلي الطليعة المقاتلة، وبين قطعات من الجيش. كان ذلك الشاب دائم القلق، ورأيته يبكي مراراً أكثر من مرة. حاولنا تهدئته وطمأنته بأنه لن يحكم بالإعدام، وأن تهمته في أكثر الأحوال لن تتجاوز أبعد من السجن لعشر سنين، أو عشرين سنة على الأرجح. فلم يكن كل ذلك الحديث ليبعث الطمأنينة في نفسه، أو يريح أعصابه التالفة.

كان قد طالب، أثناء التحقيق معه، بطبيب يثبت بأنه يعاني حالة، أو نوعاً من أنواع الصرع، ولقد زوده الطبيب بالتقرير كما أراد، وذلك بعد أن تضرع إليه ورجاه طويلاً.

لم يكن ذلك الفتى يكفُّ عن البكاء والنحيب، إما علانية أو بصمت، جزعاً وخوفاً من حكم الإعدام. ولم تكن توسلاتنا وتطميناتنا إلا لتخفف عنه بعض الوقت، وبشكل لحظي أثناء التحدث إليه. ولقد قال له الشاب الشيخ سعيد، وهو من مجموعة العميد شعبان خطاب، مرة:

– لا يبكي لدى انتشار الدفء إلا الجليد..

وحين حضرت المحكمة العسكرية، استدعي للمحاكمة، ولم يطل استغراق الأمر حول قضيته أكثر من دقائق معدودة. سأله اللواء حسن قعقاع:

– ولك انت مانك خجلان من حالك ولاك.. ولك انت عربي سوري ولاك.؟

فأجاب:

– سيدي أنا مسلم حلبي كلييسي.. من فصط الكلاسة..

وبعد نطق الحكم بإعدامه، تم عزله من مهجعنا ونقله إلى الزنازين الفردية، كما جرت عليه العادة في مثل هذه الأحوال.

بعد حكم الإعدام بحق ذلك الفتى الحلبي، جعلت أراقب الجزع الكبير الذي اعترى شاباً لبنانياً يدعى قزحيّا شهوان، كان يشاع بأنه ينتمي إلى حزب الكتائب. لقد تحول وجهه إلى صفرة الموت، إثر إعدام الشاب الحلبي.

قزحيا شهوان شاب ضئيل هزيل، محطم البدن والنفس والمعنى، أشقر ذو عينين ملونتين، مركون طوال الوقت في إحدى زوايا المهجع الثاني السفلي. لقد حرصت إدارة السجن على بث أخبار عنه، ودعاية تحرض كراهية السجناء عليه وتمنعهم من التعاطف معه. فقيل بأنه ماروني كتائبي، وأنه قاتل لسبعة عشر جندياً سورياً يعملون مع القوات السورية العاملة في لبنان. وكان الغرض من عزلته المتعمدة من قبل إدارة السجن، أنهم أرادوا إضعاف معنوياته وتحطيمه نفسياً، وهو مقيم بين سجناء مثله. وذلك من خلال اعتزال السجناء له، ليضاعفوا من عذاباته، وليحرضوا عناصر المهجع كي ينبذوه ويحتقروه، ويعاملوه كشيء يشبه الحشرة الدخيلة، أو شيء بغيض ومقزز علق صدفة بمهجعهم.

كان المساعد حمدو، متخصصاً في تعذيب قزحيّا كل ليلة، بعد تقديم العشاء للمهجع، وبرتابة أصبحت سلوكاً يومياً، كأنما ينفذه بأوامر من جهات عليا، والحق أن الأمر كان كذلك على الأرجح.

يدخل حمدو ومعه بضعة عساكر مرافقين يحملون الكرابيج، ويبدؤون حفلة تعذيب سادية لا تنتهي، يرافقها قهقهات وضحكات، مع تقليد ساخر للّهجة اللبنانية المارونية، بإمالة حروف، وتمطيط وتخنيف بعض الألفاظ بطريقة مضحكة، أو نطقها لغاية السخرية والإضحاك.

ثم ينصرفون تاركين الفتى الذي استحال إلى كومة عذاب لا تشبه شيئاً إنسانياً، ينخرط في بكاء مرير، وإجهاش وحشرجة تشبه حشرجة حيوان ذبيح. كان المشهد تقريباً يومياً كل ليلة، وأحياناً كان يحدث في موعدين بعد ذلك الوقت: صباحاً عند الإفطار، ومساءً بعد العشاء.

شيئاً فشيئاً حاولتُ، أنا وبعض شباب المهجع، أن نقترب خطوة وراء أخرى من قزحيّا، وأن نبني معه صداقة، أو نخلق جواً من الإلفة فيما بيننا، ولقد نجحنا بعد عدة أيام، إثر جهد ومحاولات. فألفى الشاب نفسه منفتحاً علينا، ويرتاح لحديثنا، ثم جعل يبادلنا همومه، وسيراً من ماضيه وماضي عائلته.

قال وهو يقسم بأغلظ الأيمان:

– ياشباب أقسم لكم أنني لست كتائبياً، ولا أنتمي لأي حزب آخر، أنا وعائلتي من الضيعة الفلانية. هاجمنا عناصر من الجيش السوري. اقتحموا القرية كالوحوش. نهبوا كل ما نملكه، اغتصبوا فتيات أبكاراً، وقتلوا شيوخاً وعجائز طاعنين في السن. لم تسلم من شرهم حتى الحيوانات والدواجن والماشية.

هل تصدقون لو أخبرتكم أنهم اغتصبوا اثنتين من أخواتي، وضربوا والدي العجوز السبعيني أمام عيني؟ لا أعلم الآن إن كان والدي مايزال حياً أم لا. رأيته آخر مرة ملقى على الأرض، وهو يتشحط بجراحه ويغتسل بدمائه. أمي العجوز ضربوها حتى الإدماء، ولا تسأل عن الشتائم المقذعة والإهانات التي لا تحتملها حتى الحيوانات.

نعم، حملت بارودة الصيد من بيتنا وأطلقت عليهم النار، أصبت واحداً منهم أو اثنين، ولا أدري هل جرحتهما فقط أم قتلا. اعتقلوني بعدها، وأشبعوني ضرباً. نقلوني إلى عنجر، وأماتوني ألف ميتة، في مركز فرع عنجر

من شدة التعذيب، ومن عنجر نقلوني إلى الشام. إلى فرع فلسطين، ومنه إلى فرع التحقيق العسكري، وأخيراً إلى هنا. إلى سجن المزة.

فارقْنا قزحيّا بعد صحبة ثلاثة أشهر. وتم ترحيلنا إلى تدمر. وسمعت من بعض الشباب الذين لحقوا بنا فيما بعد إلى تدمر، أنه جرت محاكمته وإعدامه في سجن المزة.

– 4 –

الأسطورة.. ربما كانت في البدء وستبقى في النهايات..

لا تبعد مادة الأسطورة وعجينتها التي تخلّقت منها عن بسطاء الناس وحكاياتهم، ونبض أحاسيسهم وصَبواتِهم، والفنّان من أصواتهم. تولد في الظلام العاشق، كما يولد الفجرُ من رُبدة الغسق. بقوتهم، وباعتقاداتهم. وتسير مع المأثور الشفهي والمكتوب حيثما سارا.

قد يضيف الذين يأتون في عمر الأسطورة اللاحق ما يزيدون وما ينقصون، وقد يُؤَلَّه أهلُ الأسطورة، فيقدسَون أو يؤبلسَون، أو يعبدون أو يُلعنون، حسب أهواء البشر المتأخرين فيما وراءهم. غير أن المؤكد بأن مادتهم الأولى، هي ضمير الناس الذي ينبض بالموقف والحركة. إنها تلك الحكاية التي يمضي أهلها، كما يمضي سائر الأحياء، لتبقى سيرتهم مشتعلة، متجددة، لا تفترُ على الألسن.

وللأسطورة في اللاذقية نكهتها الخاصة. ربما لأن اللاذقية وذلك الساحل السوري، قد طَمَت أمواجُه على كثيرٍمن الأشياء، ورَسم على رمل شاطئه الأسماء وعطر الروائح العاشقة، ولعل الصحيح أيضاً أن ذلك الساحل، ظل يواصل إنجاب الأساطير منذ فجرها الأول، فهو من أبدع الأبجدية في رأس شمرا قبل البشر جميعاً، لنخطَ بها ما يملي أهل الهيام من صَبَوَاتٍ وبَدَوَات، ولتُختَرَعَ السعادةُ اختراعاً. ولا تبدأ عند أساطير الفينيق المتجددة والمنبعثة من رحم الرماد، ولا تقف عند هانيبعل القرطاجي، لتنتهي كلُّ خيوطِها المتشابكة عند مجموعة أحمد الجندي، (أو أبوعلي الجندي كما يسمونه). حيث المكان لاذقاني بامتياز. فهناك الصليبة. والعوينة. والطابيات. وحي السجن. وقنينص. والقلعة وسوق السمك. وقبل كل هذا وذاك، هناك البحر وشاطئُهُ الفاتن

المتجعد العاشق. ملاذ العالِمين والجاهلين، وموطن قبلة الهائمين على وجوههم والثائرين. والذي يخاطب الله كل صباح نيابة عن السوريين.

حين سمعنا بهم، وجاءت أخبارهم تترى وتزدحم بسير بطولاتهم، من كل مكان اشتعلت فيه اللاذقية، فتهب هبوباً تحرق به كل تاريخها الأسدي، وتزلزل عروشه، طوّرنا صوراً خاصة ومتخيلة، تحاول ملامسة أشكالهم وصور ملامحهم. وظننا لأول وهلة، أنهم يشبهون ذلك الرامبو الهوليوودي، أو ذلك الفارس القرطاجي، المفتول الذراع والقوي العضلات، والذي يحمل بيده سيفاً مرعباً يقدح بالشرر والنار، ويتجلبب بالدروع.

قيل يومها بأنهم أرهقوا السلطات أكثر من جيش مجيَّش، فارتعبت أجهزة الأمن في اللاذقية كلها منهم. سدوا جميع مداخل الحارات والأزقة، واعتمدوا في صناعة سدودهم، على حاويات القمامة والسيارات المحترقة، نشروا القناصين على الأسطحة، بما توافر لهم من أسلحة، وهي عموماً لم تكن تجاوز أسلحة بسيطة خفيفة، مثل بنادق خرطوش الصيد والساموبال، وبعض البنادق القديمة، ولم يوفروا ويألوا جهداً في الاستكثار من صناعة قنابل المولوتوف.

وقد يكون عادياً أن تعلنها ثورة عارمة على السلطات الحاكمة، وتهدد بقتل كل من يقف إلى جانب النظام، ولكن ليس عادياً أن يصل التهديد والوعيد إلى مخادع نوم الظالمين، ومواطن سكناهم في أرياف اللاذقية، فليس لأحدٍ ملجأ أو ملاذٌ، ولا أحد بمأمن من القتال والقتل. لكن غير العادي أن تطور من مجموعة مشاغبين، مهنتهم الأساسية هي صيد السمك والتهريب، وتدوير الحشيش والمخدرات، ليصبحوا مجاميع مقاومة، تتصدى لأجهزة النظام، وتأخذ على عاتقها محاربته على أكثر من جبهة. ذلك هو التاريخ السوري الجديد، الذي يمر من جانبنا فلا يشعر به أحد.

النظام الأسدي، وزيادة في احتقارهم، لم يرتقِ بتسميتهم إلى مصاف القوى السياسية المعلنة والمشتهرة. حتى مصطلح "عملاء وخونة"، الذي اعتاد أن يسمي به كل من ليس له اسم من معارضيه، وَجَدَه غير مناسب لإلباسه لهم، بكل مقاسه الفضفاض، فأعلن أنهم "جماعة الشغب". والتصقت التسمية بهم. وهم ارتضوا بهذا الاسم سعداء أو مرغمين، طالما أنه ليس ثمة إمكانية لابتداع اسم يصفهم، بأبدعَ من التسمية التي

أطلقتها المخابرات الأسدية عليهم. كانوا يرددون بتلقائية مفرطة:

– "آي آي.. نحنا ما أخوان، ولا منتسبين لأي حزب سياسي.. نحن شعب اللاذقية"..

كانوا يرددونها بفخر وخُيّلاء. ولم نكن نحسب، نحن سجناء المهجع الثاني السفلي، أن نجد أنفسنا يوماً ما، وجهاً لوجهٍ أمام أبي علي الجندي ومجموعته، ولا أن نتقاسم المكان والمصير في نفس المهجع. والحق أن إدارة السجن نفسها، لم تكن متهيئة نفسياً لمفاجأة خطيرة وغير سارة بتاتاً، كاستقبال هؤلاء النزلاء في المزة العسكري. لكن المفاجىء وغير المتوقع حصل، فدخل "الشباب" إلى مهجعنا. والله محيي الشباب الكدعان.

كانت المفاجأة ذات رؤوس واستطالات وسياقات متعددة. فأبوعلي الجندي نفسه، يصعب أن يُصدَّق إلا بجهدٍ أن هذا الفتى، هذا الشاب الصغير، هو هو بحق، كان لا يتجاوز الثالثة أو الرابعة والعشرين من عمره يومذاك، حيث بات النظام يعده واحداً من ألد خصومه ومقاوميه. وبقية أقرانه وشباب مجموعته الذين يُعَدون حوالي العشرة، أصغر سناً منه، وأقل هيبة في المظهر.

أبوعلي الجندي، الصموت الهادىء، والمهذب اللطيف، والذي يشبه بطلاً لعشاق السينما الرومانسية، أكثر من شبهه برامبو كما تصورناه، أو بعتاة المجرمين كما توقعناه ورسمناه في المخيلة. ثم كان هنالك فؤاد فواخرجي، وغسان أبو كف، وكامل عبد الواحد وعبد الله طيبة، ذلك الفتى المصاب بشلل شبه مقعد، يجعله يجر قدميه جراً، ويستعمل يديه في كثيرٍ من الصعوبة.

لاحظت، بدايةً، منظر الهلع المرتسم على مَخْبَر السجانين ومنظرهم، حتى أنهم باتوا لا يجرؤون على فتح الباب أثناء دخول الطعام، إلا من شقٍ خفيفٍ سرعان ما يستعجلون في إطباقه. ولقد قدَّرتُ في نفسي أن هذه المبالغة في الحذر من مجموعة أبي علي في غير محلها وموضعها، وأن التضخيم والمبالغة من هول ومحاذر شرهم على عناصر السلطة، فيه الكثير من التهويل المفرط، والأسطرة التي تم تضخيمها بقصد أو بغير قصد. لكنني تأكدت بأن قناعاتي تلك كانت هي الخاطئة، وذلك في اليوم الذي سمعت فيه من جماعة الجندي، كيف خطط هو وغسان أبو كف، لقتل المحقق في فرع التحقيق.

استطاعوا إدخال قراضة الأظافر إلى زنزانتهم، وعملوا على بردها وسنّها حتى استحالت إلى ما يشبه الشفرة الحادة، وفي اليوم الذي قرروا فيه أن يمسكوا بأحد المحققين ليحزوا عنقه بسرعة البرق، كان أحد عناصر الإدارة قد اكتشف السلاح، أو الآلة الحادة بمحض مصادفة. فتم تفتيش الزنزانة ومصادرة كل محتوياتها، وإنزال عقوبة إضافية بهم.

ليس هذا كل شيء، بل الأدهى والأمرُّ أن أبا علي قرر – وهو في مهجعنا – قتل اللواء حسن قعقاع، أثناء المحاكمة الميدانية، وطالب بإحضار شفرة أو آلة حادة ولو كان ذلك من تحت الأرض. قراضة أظافر، غطاء علبة سردين، أو أي شيء يمكن تحويله إلى سكين أو آلة قاطعة. وأقسم وصمم دون تراجع، على تصفيته خلال ثوانٍ معدودة، ما إن يلتقيا وجهاً لوجه.

لكن تلك الآلة لم تتحضر، أو لم تتيسر ظروف إحضارها أثناء المحاكمة، فلم تتم تهيئتها بأي شكلٍ، مما فوت الفرصة لتنفيذ "آخر العمليات" قبل إنزال عقوبة الإعدام بهم – حسبما كانوا يرونها أو يسمونها – ولقد جاء موعد محكمتهم بسرعة، ونجا القعقاع مما كانوا يدبرون ويخططون له. ولكن لم تخلُ المحكمة من مفاجآت. ففي حوار محتدم وشرس وعنيف، دار بين أعضاء المحكمة الميدانية، وبين مجموعة الجندي، جرى الحديث التالي:

انبرى الرائد جودت حبيب، وكان الشخصية الثالثة في المحكمة، وبمثابة طرف الادعاء الأول فيها، مخاطباً أبا علي الجندي:

– طيب.. لنفترض أنو هلق طلعناكن إخلاء سبيل. وعفينا عنكن. شو رح تسووا بعد ما تصيروا برات السجن.؟

أجابه أبوعلي ببساطة:

– يا سيدي كنا "سنعيدها سيرتها الأولى". يعني رح نسوي متل ماكنا نسوي قبل ما ننمسك وننحبس.

التفت الرائد ناحية "غسان أبو كف"، على حين غرة، وهتف بغضب:

– ولك هنت مو أخوالك علويين ولاه..؟ كيف لَكَنْ بتشتغل ضد الدولة مع هالمجرمين هدول..؟

والنكتة البائخة من أبرز مضامينها، أنها وقورة، رصينة، محتشمة،

لا تُضْحِك أبداً. وغير ذات مغزى مفيد، أو معنى عالي القدر والجلال. ذلك لأن النكتة البائخة هي العصارة الحضارية لأنظمة الحكم البائخة والشائخة والمستبدة. في هذا السياق يمكن وصف كلمات الرائد جودت حبيب، وهمزهِ ولمزهِ من "غسان أبو كف"، الذي بادر بالقول مستغرباً:

– شو قصدك بهالكلام..؟

– قصدي إنو أنت نصك علوي ونصك سني. يعني باختصار نحنا العلويين إلنا فيك النص. كيف بتقف ضدنا وبتحاربنا؟

– لا والله ما حزرت حضرتك. انتو لا إلكن في النص ولا الربع ولا الخُمس، ولا إلكن في أي شيء.

– كيف.؟ فسر لي ياها هاي طالما نحنا العلويين أخوالك؟ ما فهمتها منك؟

– أنا ابن أبوي يا سيدي وماني ابن أمي. كلي لأبوي ولا شي فيني لأخوالي.؟

نظر إليه الرائد بحذر، وأراد أن يدخل عليه مُدخل سخرية واحتقار، فسأل سؤال مستفسر:

– أنت عيلتك من بيت أبو كف، ولا أبو كيف؟

أرادها غسان معركة تصفية النهايات، فدلع يمينه في وجه الرائد حتى وازت ما فوق رأسه، وكأنه يطبع إدانة تحدٍ بكفه اليمين، الممتدة والمنفرجة الأصابع:

– أبو كف أبو كف. مو أبو كيف... شو سيادة الرائد بحياتك ما شايف كف؟ بحياتك ما أكلت شي كف من حدا.؟ متل هي الكف يعني..؟

أجاب الرائد، وهو يردد تخلصاً من الموقف الحرج الذي أوقع نفسه فيه:

– ولك آي آي. خلص يا حيوان، فهمنا عليك. شوبك اندلقت هيك دلقة..؟

حين رجعوا من المحكمة إلى المهجع، بعد أن صدرت الأحكام بحقهم، كانوا هذه المرة محملين بأحكام الإعدام الصادرة عن المحكمة الميدانية (كانت الأحكام بديهية وغير مفاجئة بالطبع)، وساد المهجع صمت الموتى. كنا ننظر إليهم بإشفاق زائد، بل ربما بخجل زائد من رجولتهم الزائدة عن رجولة الرجال، وتحديهم الذي فاق الخيال والتصورات، نظرنا إليهم ونظروا إلينا.

وشمَلَنا أبوعلي الجندي بنظرة ماسحة، توشك أن تقول: من سيبدي ضعفاً أو يتصنع إشفاقاً علينا فلسوف أذبحه. إذ الضعف والإشفاق والمسكنة ممنوعة في عُرف أبي علي الجندي، وسأل واحداً من جماعته:

– شو في عنا عشا؟

– ظل شوية شوربة وسردين وخضرة وبندورة و..

فأصدر أبو علي الجندي أمراً استثنائياً صارماً:

– حضروا العشا لحتى نتعشى.. بجوز ينقلونا اليوم من المهجع للزنازين. بهالليل أو بكرة الصبح. وبلشو غنوا.. غنوا أي شي، وبصوت عالي. تا يسمعونا الأوباش وما يفكروا إنو نحن هلأ رجفانين منهن ولا خايفين من حكم الإعدام تبعهن. بدي الغنا يرج الأرض رج. شو كانت هديك الغناية اللادقانية اللي بيغنوها بالأعراس الشعبية؟ شو اسمها.؟

– على روض الحبيب فتنا.. أجابه أحدهم.

– أي بلشوا غنوا، وبصوت عالي. بدي تسمعولي إدارة المزة كلها الغناني.

صدحت حناجرهم بصوت لم يعد يهمّ، إن كان شجياً أو جميلاً، أو لم يكن كذلك. إنه مستفز لإدارة السجن بكل تأكيد. وهذا المطلوب والكفاية. واشتعل الغناء بصوت عال:

(على روض الحبيب فتنا ، قطفنا الورد والفتنه..)

– 5 –

كانت المحكمة العسكرية الميدانية تتردد على سجن المزة فقط لتبليغ الأحكام للسجناء. أما المحاكمات فكانت تجري في فرع آمرية الطيران، حيث يتم نقل السجناء بسيارات مصفحة مغلقة، ومرفقة بحماية أمنية كثيفة تحيط بها من كل الجهات. والواقع أنه كانت هنالك محكمتان ميدانيتان عسكريتان اثنتان، لا واحدة. ويمكن الاستنتاج بسهولة أنهما كانتا تعملان بآليات مستقلة، لا ضوابط لها، ماعدا بعض التوجيهات العامة، التي كانتا تزوَدان بها، من قبل سلطات أعلى، وبحسب مزاج رئيس المحكمة شخصياً، ومساعديه المرافقين.

ولقد كان لافتاً، منذ أن دخل إلى المهجع الثاني السفلي في سجن

المزة، مجموعة "أبو علي الجندي"، وجود رجل عجوز مهيب المنظر والسمت بينهم. ولابد أن الجميع قد لفتهم منظره ومنطقه، ومكانته الخاصة، المتميزة في كل شيء، عن بقية أفراد مجموعة الجندي.

كان مختلفاً عنهم في كل شيءٍ تقريباً. فهم مجموعة شباب لم يكن يتجاوز أكبرهم سناً الخامسة والعشرين، بينما هو قد قارب الخمسين أو تجاوزها. كذلك كان في زيه الشخصي الذي كان يرتديه، وهيئته العامة، كل ما يفتح على الذهن غرابة وجوده معهم في نفس المجموعة، ونفس لائحة الاتهام. فضلاً عن أسلوبه في الكلام، وفي ثقافته التي تتحلى بمنطق خاص ومميز. كل ذلك كان ينطق بفصيح القول إنه ليس منهم، ولا هو من نسيج قماشهم. وإن تكن قد جمعتهم تهمة واحدة.

الرجل كان يدعى "نديم طابوشة"، وهو ضابط طيار سابق، مسرح تعسفياً خلال فترة الوحدة السورية مع مصر. وقد افتتح وكالة تجارية لبيع الأدوات الكهربائية، كما فهمنا فيما بعد. ولم يكن يخفي أن أكثر ما كان يضايقه في مسألة اعتقاله، هو مرافقته لجماعات الشغب في اللاذقية. وللأمانة فإن أكثر ما كان يضايقني منه، تلك النزعة الاستعلائية المترفعة عن الانتماء لأولئك الشبان، جماعة شغب اللاذقية وزعرانها كما يسميهم. وهم أولئك الشبان الذين انخرطوا في ثورة الثمانينات بطريقة اعتباطية غير مفكرٍ بها، ولا مخطط لها.

كانت دوافعهم الوطنية قد اختلطت بحساسية الحالة الطائفية التي تفشت في البلد، وعلى الأخص في المدن الساحلية، خصوصاً أن هذه الروح المترعة بالبغضاء التي تجلت إزاء مجموعات متغطرسة ومستعلية بطائفيتها المعلنة، كانت لها خصوصيتها في اللاذقية، أكثر من أي مكان آخر في سورية. ولم أكن لأستغرب أن بعضهم، قرر المشاركة والانخراط في الثورة، على ما في هذه المشاركة من خطورة بالنفس، لمجرد أن الأمر يشتمل على ميزات وسلوكيات، تحقق له، في الأخص، لذةً وإشباعاً نفسياً وسلوكياً. كالتفجيرات والتشطيب بالشنتيانات وسحب أمواس الكباس وإلقاء القنابل اليدوية.. وغير ذلك.

إن الثورة تحقق للكثيرين، ذلك الجزء الخبيء من ذواتنا، فكيف بالأمر حين تكون ضد سلطة ديكتاتورية، لا يجرؤ أحد على التلفظ باسمها؟

وجدنا أنفسنا نحن بقية المهجع، في موضع الحرَج، الذي يُلزم بحسن

التصرف والمجاراة. ثم وبذات التلقائية التي ساقوا أنفسهم بها، نحو ذلك الغناء العرائسي الصداح، وجدنا أنفسنا مسوقين إلى الغناء معهم، ومشاركتهم ما كانوا يرددونه. كان موقفاً لا سابقة له في السجن، لا من قبل ولا من بعد. كنا نغني بمشاعر عصفور وهو يذبح.

وفي الليل، أطفئت أنوار المهجع، وأخلد الجميع إلى النوم. كانت مجموعة الجندي قد تمددوا في وسط الممر المبسوط بين مصطبتين، لزحمة المكان من جهة، ولأنهم كانوا آخر الواصلين إليه، حسب تقليد رؤساء المهجع في توزيع أماكن النوم. وكان يصادف أن يمر أحد العابرين باتجاه دورة المياه المحشورة في الزاوية فوقهم، فيدوس على رأس أو قدم أحدهم، فلا تسمع إلا عبارات الاحتجاج والتذمر:

– يا شباب. شو هاد. مين داسلي على رجلي؟ ولك خلونا بقا نعرف ناملنا شوي. كلها على بعضها الشغلة كام ساعة، ويمكن تكون هاي آخر ليلة ننام فيها. بكرة رايحين على الإعدام ولسه ناس رايحة فوقنا، وناس جاية.

لم أعد أتحسس اليوم من ملامحهم وذكرياتهم إلا تفاصيل صورة ذلك المشلول المشوه، واللطيف الهادىء، الطيب القلب. والذي كان – ويا للمفارقات العجيبة – يحب الشعر حباً غريباً عجيباً. عبدالله طيبة. حتى عين الشاب وحنكه كانا مشوهين بتأثير شلل أطفال سيء النتائج، ترك آثاراً مدمرة على صحته ومظهره العام.

تعرَّف عليَّ منذ ساعة وصولهم إلى المهجع. وقال لي منذ اليوم الأول:

– سمعت بأنك طالب أدب عربي. وأنك تحفظ كثيراً من الشعر.

أجبته:

– نعم... قال:

– إذا طال مكوثنا في المهجع كثيراً، أريد منك أن تُحَفظني كل ما تحفظه من قصائد وأبيات شعرية... قلت له:

– تكرم أبوعبد الله.

أضاف ببساطة:

– أنا أحب حفظ الشعر أكثر من حفظ القرآن. كما أنني أرغب أن تساعدني على النظم، فأنا أكتب أشعاراً، لكن الوزن والتفعيلات لا أحسنها ولا أتقنها جيداً.

بالفعل، كان عبد الله طيبة، أو أبوعبدالله كما نناديه، يحفظ الكثير من أشعار الغزل، خاصة من ديوان الأخطل الصغير وابراهيم ناجي، وكثيراً من مقاطع الغزل الشهيرة لشعراء الجاهلية والإسلام. مما جعله يكبر في عيني، فلم أصدق، أو لم أرد أن أصدق بأنه كان واحداً من "جماعة الشغب"، صياع اللاذقية وزعرانها.

وفي وقت لاحق، سألت الضابط المسرح العجوز نديم طابوشة، والذي كان يعرفهم معرفة وثيقة منذ فترة طويلة قبل السجن:

– كأن أبوعبد الله هذا لا يشبه جماعة الجندي كلهم؟ إنه ينطوي على روح شفافة وهو مرهف الحساسية. إنه شاعر، أو يعيش في نفسية الشاعر المحلقة.

أجاب الرجل:

– صدقت. فهو لا يشبههم في نقطة واحدة. إنه الحرامي الوحيد، واللص المحترف بينهم، فلم يفلت من شره أي قفل محل، في طول اللاذقية وعرضها، إلا وكسره وسرق صاحبه.

ذُهلت لأول وهلة، ولم أصدق، فتابع الرجل يقول:

– أنا كنت أخصص له إتاوة، على شكل راتب شهري، حتى لا يقترب من محلي ويسرقه.

حين فاتحت أبا عبدالله بما سمعت، أقرَّ بمنتهى الاعتزاز والفخر، وأكد الشاب على صدق كل هذه المعلومات، وصارحني قائلاً:

– كل ذلك صحيح. الشعر موهبة الله وهبته، وتكسير الأقفال وسرقة المحلات باب رزق ومصلحة مثل أية مصلحة أخرى. وشتان بين الموهبة والمهنة، إذ لا علاقة للأمرين ببعضهما.

ثم أضاف في منتهى الصدق والوضوح:

– أنا لست مولعاً في هذه الحياة بشيء، إلا بالشعر الرومانسي الغزلي، وتكسير أقفال المحلات وسرقتها. أحياناً كان يصدف أن أكون داخل المحل ليلاً، وأنا أُحَمِّل بضاعته بشاحنة صغيرة لأسرقه، فيخطر ببالي بيت أو بيتان من الشعر، فأكتب في التو واللحظة ما تبادر على خواطري من أشعار، قبل أن أستكمل عملية السرقة.

كنا نشعر جميعاً بأن لحظة عزلهم عنا، وترحيلهم من المهجع قد بدأت تدنو، وراحت الدقائق تمر ثقيلة على الجميع. لامعنى للدموع

وأنت تسبح وسط البحر، بلْهَ حينما تتخبط في لجته. حتى آلام القلب وأوضاره تصبح لامعنى لها. إنهم فتية حملوا السلاح ضد نظام شيطاني فتاك، يهديهم في سعيهم، حس القلب الذي تشاركوا فيه مع كل أبناء وطنهم، ولقد أقبلوا على مصيرهم النهائي برجولة تختصر كل ما في الكون من عنفوان واقتدار وتحدٍ.

تنتهي الحكاية الشعبية البسيطة والصغيرة، لكن الأسطورة تمضي. بل لعلها منذ أن التفت حبال المشانق حول رقابهم قررت أن تبدأ. وصلتْ إلى مسامعي كلمات هادئة، واثقة، ومتزنة من كامل عبد الواحد، وهو يبثها كوصية أخيرة لأحد شباب اللاذقية المحكومين بأحكام سجن، فكان يقول له:

– إذا خرجتم من السجن سلمْ لي على أمي. قل لها أن ترضى عليّ. قل لها سأشتاق لها كثيراً وأنا في القبر، وسأعدُّ الساعات والدقائق إلى أن تحين الساعة ونلتقي يوم القيامة في الجنة. قل لها أيضاً أن تشتري سجادة تسعاوية من مالي الذي أودعته عندها، وتتبرع به للجامع الذي في حارتنا. قل لها أن ترضى ولا تزعل، ولا تغضب مني، ولا من شقائي. يا إلهي كم شقيتُ وأشقيتها معي.! وكم أتعبتها كثيراً.! فليسامحني الله.

ثم أضاف، وقد تكدر صوته قليلاً، بما يشبه أن يكون إجهاشاً صامتاً ببكاء كظيم:

– هل ستبكي عليّ أنت.. بعد شنقي؟

أجابه الشاب:

– لو قلت لك نعم.. هل كنت ستسمع نحيبي وأنت ميت؟

سمعت أبا علي الجندي، وهو حتى اللحظات الأخيرة، يصدر الأوامر والتعليمات لهم بأن يبقوا رجالاً حتى آخر ثانية:

– لا أريد أن أرى دمعة أو بكاء أو ضعفاً من أحدكم. فلنستقبل الموت برجولة وثبات حتى يظلوا مرعوبين منا. كما كانوا دائماً مرعوبين منا.

الفصل الرابع

الروح تحيا والكلماتُ تموت

– 1 –

قال لي نديم طابوشة بعد أن توثقت عرى الصداقة بيننا:

– كان لي صديق واحد خلال فترة الدراسة الإعدادية والثانوية، لا نكاد نفترق عن بعضنا سائر اليوم. هذا الصديق هو حافظ الأسد. أنا ابن اللاذقية وهو ابن ريفها. جمعتنا مقاعد الدراسة في كل المراحل، وجمعنا الانتساب معاً إلى الكلية الجوية في يوم واحد، والتسريح التعسفي من الجيش، بعد قيام الوحدة بين سورية ومصر.

وبعد وصول البعثيين إلى السلطة أعيد حافظ أسد، ونصحني أن أسوي وضعي العسكري، وأن نكمل معاً مسيرتنا في الكلية الجوية، لكنني رفضت. فضلت العمل في التجارة، على العودة إلى الحياة العسكرية. هو أصبح رائداً، وأنا سُرِّحتُ برتبة ملازم أول، وبقينا أصدقاء رغم ذلك.

أتذكر الآن والدتي التي تظل ساهرة حتى ساعات متقدمة من الليل، تلبي لنا طلباتنا التي لا تنتهي. المتة، القهوة، العشاء، الشاي، الفواكه. لعب الورق الذي كان يشاركنا فيه والدي أو أحد أخوتي. حتى والدي كان يسألني عنه كل يوم:

– ليش رفيقك حافظ أسد ما أجا لعندك اليوم.؟

فأجيب:

– لا أدري. ربما لم ينزل هذا اليوم من القرداحة إلى اللاذقية.

ثم يردف بعد صمت متقطع:

– يبقى فراشه المخصص له في المنزل شاغراً، حتى لو لم يبت فيه إلى اليوم التالي.

غمرات انشغاله بالعمل السياسي والعمل العسكري، بعد وصول البعثيين إلى السلطة، لم تؤثر على صداقتنا التي تجاوزت كل اعتبار، ولم نشعر طيلة تاريخ علاقتنا التي امتدت لسنوات، بأي معنى أو فارق طائفي فيما بيننا؛ أنا السني وهو العلوي، هذه النقطة لم تخطر ببالي

يوماً. كان ما بيننا من قوة العلاقة التي ربطتها الطفولة بميثاق يتعذر فصمه، أبعد من أن تؤثر فيه أية اعتبارات حزبية أو سياسية.

صحيح أنه بعد أن أصبح على قدر من المسؤولية في الجيش، بات يقضي معظم الوقت في دمشق، وترك اللاذقية نهائياً. لكن زياراته الدائمة، كانت جزءاً من برنامجها الثابت، علاقته بالأسرة التي أستطيع أن أعترف بوضوح، أنها كانت وطيدة إلى درجة – ربما في لحظات – كانت أوثق من علاقته بأسرته نفسها. بوالدي، بوالدتي، ببقية أهلي. بنفس القوة التي ارتبطنا بها أنا وهو، إن لم يكن أقوى وأرسخ.

جاء اليوم الذي صار فيه رئيساً لسورية. وكان لابد أن نقتنع جميعاً أن القدر الذي جعله رئيساً، سوف يقدر أن زياراته للعائلة ستقل كثيراً. أصبح السؤال والمجاملات على الهاتف أحياناً هما القاعدة المتبعة. وأحياناً عن طريق رسائل شفهية، بواسطة قادمين من دمشق.

– الرئيس بسلم عليك وعالست الوالدة وعلى عمو الوالد.

مضت الأيام. ولا شيء فيها يتغير. وحين اقترب موعد تقديم مجموعة أبي علي الجندي للمحكمة الميدانية في المزة، عندئذٍ فاتحني نديم طابوشة بسرٍ، كأنما أراد أن يطويه على مضض لأسبابه الخاصة:

– هل تعلم من كان رفيقنا الثالث أو توءمنا الثالث.؟ والذي كان لا يفترق عنا ولا نفترق عنه في تلك الايام؟

قلت:

– من.؟

همس بخجل، كأنه يعترف بماضٍ كريه مقرف، أو هو يريد أن يزيح هماً عن كاهله بالاعتراف:

– إنه هذا اللواء السكير حسن قعقاع.. رئيس المحكمة الميدانية نفسه..

صحيح أن درجة العلاقة معه، كانت أقل مما كانت بيني وبين حافظ أسد. إلا أنه هو صديقنا الثالث في المدرسة والكلية. هذا هو السبب الذي جعل الأسد يتذكر القعقاع، بعد كل هذه السنوات، وينتشله من حمأة الخمارات وضياع أرصفة الشوارع. أعاده إلى الجيش، وساعده على المعالجة من الغَوَل وأمراض السُكْر التي لم يشفَ منها حتى اليوم. والتي دمرت جسده وعقله ونفسيته.

ثم أضاف:
– لقد أراد أن يَمُنَّ عليه بإعادته إلى الجيش. والأهم من ذلك أن يصطنع منه ضابطاً سنياً، يبحث عنه وعن أمثاله، ليوقع له على محاضر هذه المحكمة المهزلة، بالإعدامات الجماعية على الناس بالجملة.
غداً سوف يُفَاجَأُ القعقاع حين يراني أمامه خلف قضبان القفص.
ثم توجه إليّ بالسؤال فجأة:
– ماذا تتوقع أن يحكم عليّ..؟..
قلت:
– لا أتوقع أنه سيحكم عليك بالإعدام. ولكن أيضاً، لا أتوقع أنهم سيفرجون عنك، أو حتى سيحكمونك حكماً مخففاً. أو يطلقون سراحك يوماً ما.
لم تخب توقعاتي. بالفعل تفاجأ القعقاع بوجوده، وهتف به ما إن رآه:
– أهذا أنت يا أبو فواز..؟ حتى أنت طلعت خائن للوطن..؟
فرماه نديم طابوشة بنظرة تحدٍ يتطاير منها الشرر:
– أنا..؟ أنا خائن يا حسن..؟
أسرع القعقاع في إجراءات المحاكمة، دون أن ينظر في وجهه. كأنما يريد أن ينتهي من ورطة ثقيلة على نفسه. وحكم على نديم طابوشة بالأشغال المؤبدة في تدمر، بتهمة تقديم أموال ودعم لجماعة أبي علي الجندي، ومساعدتهم بالمال وتحريضهم على التمرد. ولقد كان حكمه استثناءً مميزاً عن مجموعة أحمد الجندي، التي اتُهِمَ هو بتقديم دعم مالي لها وبتمويلها. إذ حُكِم على ستة منهم من أصل تسعة من أعضاء خلية الجندي بالإعدام، والثلاثة الباقين، إضافة الى نديم طابوشة، حُكموا بالأشغال المؤبدة في تدمر.
في تدمر ساءت أوضاعه الصحية كثيراً، وعانى من أمراض القلب والضغط والشرايين. فيما بعد، وبعد ثمانية أشهر من الصحبة والملازمة بيني وبينه، حتى نهاية فترة مكوثنا في المهجع 27 في سجن تدمر، انفصلنا عن بعضنا، بحيث أصبح كلٌ منا في مهجع.
وعلمتُ لاحقاً بأن عائلته توسلت لصديقه القديم، رئيس البلاد

ودكتاتورها، فسمح للعائلة، أو لما تبقى منها، أن يزوروه في سجن تدمر. ولقد كانت تلك الزيارة الأولى وبالاً وكارثة عليه، إذ علم باعتقال ابنه الأكبر، وسمع بعد عدة سنوات، بطلاق زوجته منه إثر خلاف على خلفية تركة مالية مع أهله. وبعد مرور عشر سنوات جاءته الأخبار عن اعتقال ابنه الثاني، الأصغر، وبطلاق ابنته إثر زواج فاشل. وحين خرجتُ من السجن كانت أخباره قد انقطعت عني.

كنت أحزن لتدهور وضعه الصحي بعد أن أصبحت أمراض القلب وضغط الدم خطراً محققاً عليه، والرجل صار على مشارف الخامسة والستين أو اجتازها. ولما سألت أحد أصدقاء السجن عنه، بعد خروجي بسنوات، اكتفى بجوابٍ مختصر دون شروح:

– مات مريضاً في آخر أيامه في تدمر.

– 2 –

أصبح نقل السجناء إلى خارج سجن المزة، لمواجهة المحكمة الميدانية العسكرية روتيناً شبه يومي. والجميع خضع لرعبٍ قاسٍ مستبد، من تلك المواجهة التي قد لا تُحمد عقباها. والتي قد يواجه المرء فيها حتفه ونهايته، ربما نتيجة كلمة أو عبارة أو خطأ غير مقصود، وأحياناً قد تفضي تلك المواجهة إلى الموت بالمصادفة، حتى وإن لم يتعثر المرء بخطأ أو عبارة سيئة التأويل، أو غير محمودة الدلالة.

من ذلك أنه حصل مرة، بأن أعضاء المحكمة الميدانية، قد أربكهم لبعض الوقت وجود لائحة مؤلفة من ستة أسماء لأشخاص موقوفين في المزة، ولم يكن لهؤلاء الأشخاص أية أضابير، أو مفردات تحقيق أولي يشير إلى تهمتهم أو سبب توقيفهم.

راجعت رئاسة المحكمة السجن بشأنهم، ولكن إدارة السجن أكدت أنه لم يصلها أي شيء مفيد، فيما يتصل بهم، وأنه تم استلامهم من فرعهم الذي أرسلهم بموجب لائحة اسمية فقط، ولا إضبارة تحقيق، أو حتى ملخص مدونة مختصرة يشرح وضعهم، وذلك من خلال جميع الفروع التي تم التواصل معها. حيث لم يتعرف أحد عليهم، ولا لماذا تم توقيفهم، أو في أية ظروف أو حيثيات مبينة وشارحة.

غرق اللواء حسن قعقاع في غضب مستحكم، واستبدت به حالة من الهياج المألوف والمعروف به. وهو الذي كان من عاداته؛ أنه لا يكاد يستفيق من سكره المتعتع. وصرخ في الجميع كالمجنون:

– يلعن دينكن.. بتجيبوا الناس ومانكن عرفانين ليش معتقلين..؟

ثم التفت يسأل المساعدين والإدارة في المزة:

– وإذن..؟

وراح يشتم ويسب كل شيء خطر بباله آنذاك. فقال مدير السجن:

– سيدي نحن ليس من مهامنا أكثر من تنفيذ الأوامر التي تصلنا من خلالكم، أو من التحقيق العسكري.

– مفهوم.. مفهوم.. ستة موقوفين لا أحد يعلم لِمَ تمَّ توقيفُهم، ولا من هي الجهة التي اعتقلتهم، ولا الجهة التي نقلتهم إلى هنا. هذا غير مقبول بالمرة.

– بالتأكيد سيدي. أقرُّ معك بأنها حالة استثنائية غير معتادة، وأن بعض المسائل تحتاج إلى تدقيق بسبب كثرة المعتقلين، وبسبب كثير من هذه الالتباسات الشائكة والـ....

وأردف مساعد قاضي المحكمة قائلاً، كأنما لينتهي الموضوع بطريقة ما:

– على كل حال...

– لا مشكلة.. لا مشكلة..

أضاف وهو يقلب في بعض الأضابير أمامه:

– هل تعتقد أن هؤلاء الأشخاص من النوع الخطير؟ أقصد أنهم موقوفون على ذمة قضية تخريبية، تمس بالأمن القومي؟

– بالتأكيد سيدي.. كل هؤلاء الذين عندنا هم مجرد عرصات وخونة. حتى الأبرياء منهم خونة.

– انقلوهم من المهاجع، واجمعوهم مع المجموعة المحكومة بتنفيذ الإعدام.

– حتامَ..؟

– حتى يحين موعد تنفيذ الإعدام القادم.. و.. اعدموهم مثل البقية..

– سيدي.. ولكن تنفيذ الإعدامات يحتاج إلى توقيع الـ....

– لن يحتاجوا إلى توقيع من أحد. خلص مثل ما قلت لك.. أعدمهم على مسؤوليتي الشخصية..

وكانت إجراءات نقل المساجين من المزة إلى مبنى آمرية الطيران، دائماً ما يتخللها تفتيش دقيق للمساجين. لا ثيابهم فحسب، وإنما كان التفتيش يشتمل حتى على أجسادهم العارية. وبعد عودتنا من المحكمة تناهى إلى سمعي صوت أحد العساكر يخاطب المساعد حمدو أثناء التفتيش، قائلاً:

– سيدي.. هذا معاه ورقة كان مخبيها.. ما بعرف شو مكتوب فيها..

ولم أنتبه إلى أن أحد أصدقائي في المهجع، هو من ضبطت الورقة بين ثيابه، إلا حينما سمعت صوت المساعد حمدو يتناول الورقة من يد العسكري، ويخاطبه قائلاً:

– شو فيها هي الورقة؟ شو كاتب فيها ولاه..؟

لم يجب الشاب بادئ الأمر. لزم الصمت، ثم لم يجد مندوحة عن القول:

– قصيدة شعر..

– قصيدة شعر..؟ أنت تكتب قصائد شعر..؟

– أحياناً..

– متى كتبتها؟

– البارحة.

– ومن أين حصلت على الورقة والقلم؟

– حصلت عليهما.. رأيتهما صدفة في المهجع..

راح المساعد حمدو يقرأ القصيدة في سره، دون أن يجهر بها. وفجأة علا صوتُه:

– شو كاتب هون ولاه؟

– لا أتذكر..

– كاتب فيها:

(أنا لم أخن يوماً بلادي..

لكن البلاد تخونُ أحياناً..)

– لا أتذكر.

– بلادك هي من خانك، وأنت لست بخائن؟

-........

- بلادك هي الخائنة؟ ولست أنت أيها الخائن..؟

ثم التفتَ بأعلى صوته إلى العساكر المرافقين، المدججين بالعصي والسياط، وصرخ فيهم صرخة مرعبة:

- ابطحوه أرضاً يا شباب..

وانهالوا على الشاب ضرباً مبرحاً موجعاً، حتى كسروا له بعض الأسنان، وامتلأ كامل جسمه بالوذمات والبقع.

في تلك الفترة، أَلِفت أن أسمع جاري أستاذ اللغة العربية، الذي اعتقل بدون سبب. حتى هو لم يكن يعلم ما هو سبب اعتقاله، فاعتدت أن أسمعه يردد ويصب في أذني عبارته التي لا يكتفي من تردادها:

- هذا النظام ابن شرموطة. أنت لا تعرفه. جميعكم لا تعرفونه وليس لديكم أدنى فكرة عنه. نظام ابن شرموطة، وقد وقعنا بين يديه. لا أمل لنا بعد اليوم. لا أمل. لا تفكروا في الخلاص يوماً ما. وحين سمعنا بقصة العقيد يحيى السعدي، تبسم نايف ابتسامة الموت. كأنه عثر على البرهان المؤيد لرأيه ونظريته:

- ألم أقل لكم أنه نظام ابن شرموطة؟ ألم أقل لكم أن من سوف يدخل من هذا الباب لن يخرج منه أبداً بعد اليوم، ولن يرى الضوء أو يشم رائحة الهواء بعدها؟

لم يكن العقيد يحيى السعدي ضابطاً عادياً، بل كان ضابطاً مميزاً تعده الدولة ليكون قائد جيش.. أبو زكريا، وهذا لقب العقيد الغالب في السجن، هو طيار يحمل وسام بطل الجمهورية، وهو قائد مطار تدريبي، تخرج كثيرٌ من الطيارين على يديه وتحت قيادته، في مطارات تدريب طلاب الضباط.

كما يُذكر للعقيد السعدي، أنه كان دائم التطواف حول العالم، وقد خضع لدورات عسكرية عديدة ومكثفة، أكثر من مدة لبثه في سورية. فالرجل، بحق، لم يكن في تصوره، ولا سابقٌ في ذهنيته، ما الذي كان يجري على الأرض في سورية. كما كان لابتعاده ونأيه عن ممارسة أي شأن سياسي، وبعده عنها بصورة عامة، أو عدم اكتراثه بأي شيء، سوى اختصاصه العسكري، جعله كل ذلك مفارقاً لبعض التفاصيل

الحساسة، والتي يجب على كل سوري أن يكون حساساً في التعامل معها، مهما بدت سطحية وشكلية، وغير مهمة.

إن بعض الأخطاء الصغيرة جداً، في دولة العائلة الأسدية، والتي قد يستهين بها المرء لضآلة أهميتها، تشبه ضغطة القدم الخفيفة على لغم مجهول. وضغطة القدم على اللغم، قد تطوح بحياتك ومستقبلك إلى الأبد. ولات ساعة مندم.

مثلاً، أن تقترح في الاجتماع العسكري الصباحي، وبعد أداء تحية العلم والنشيد الوطني، وإضافةً إلى هذه المراسيم العسكرية المقدسة والمجيدة، الاقتراح التالي – كما فعل العقيد السعدي –:

– ما رأيكم أن نقرأ الفاتحة على أرواح الشهداء، إضافة إلى الوقوف دقيقة صمت؟

كلمة في الهواء الطلق، وعبارة تذهب مع الريح، ربما بعد خمس ثوانٍ، دون أن يعبأ بها أحد. بيد أنها قد تكون هي ضغطة القدم الخفيفة، على اللغم المدفون في باطن الأرض. كما جرى للعقيد يحيى السعدي، الجنرال المسكين، الذي كان عائداً لتوه منذ أقل من أسبوع، من رحلة إلى الاتحاد السوفياتي، خضع خلالها لعدة دورات في قيادة الجيوش.

كلمة العقيد ومقترحه البريء بقراءة الفاتحة على أرواح الشهداء، وصل عن طريق (تقرير) إلى أعلى القيادة، ويقال بأن التقرير وضع أمام الأسد شخصياً، فجرى الأمر سريعاً باعتقال العقيد، وعدم مساءلته أو التحقيق معه، أو حتى مفاتحته بأي سؤال. كلُّ ما في الأمر أن الأوامر قد صدرت بعزله عن جميع السجناء، وإيداعه في زنزانة إفرادية في سجن المزة.

بقي العقيد يحيى السعدي معزولاً في الزنزانة الفردية من عام 1980 إلى عام 1992. وبالطبع كان من بين القلائل الذين لم يحقق معهم، ولم يقدموا لأية محاكمة، وبعد اثنتي عشرة سنة، أطلق سراحه بعد قرار طرده من الجيش، وتجريده من حقوقه المدنية والعسكرية.

كل ذلك جرى دون أي سؤال أو جواب. باستثناء سؤال عابر من أحد كبار ضباط المخابرات:

– أأنت اقترحتَ أن نقرأ الفاتحة على أرواح الشهداء في الجيش العربي السوري؟ شو شايفنا أخوان مسلمين مثلاً سيادة العقيد؟

عقب إطلاق سراح العقيد يحيى السعدي، بعد اثني عشر عاماً، حُرم من أي تعويض مادي أو راتب تقاعدي. ومُنع من السفر خارج البلاد. فقد كان ضمن قوائم الممنوعين من مغادرة سورية. ولقد عاش لفترة، حياة بائسة يتكفف الناس ويطلب مساعدتهم. كما اضطر أن يشتغل أجيراً مستخدماً في فترة من الفترات، في أحد المكاتب العقارية بحلب، لتأمين حاجته من العوز والفاقة.

– 3 –

تم ترحيلنا لفترة قصيرة لم تتعدَ الشهر، إلى مهجع آخر يقع في الطابق العلوي من سجن المزة، ويدعى مهجع المدرسة. وهنالك تعارفنا على أعداد غفيرة من السجناء الجدد. وقد لفت انتباهي، أثناء الانتقال، سجين عجوز خالط رأسه البياض الشديد، واشتعل وجهه بحمرة متوهجة. كان الحراس يمضون به الى باحة التنفس وحيداً، وهم أشد حرصاً أن لا يتحدث إليه أحد، من الشبابيك المطلة على الممر الطويل العريض، الذي يفصل ما بين صفي المهاجع في الطابق الأسفل.

قال لي سجين قديم كان بجواري يتأمل السجين الأشيب العجوز، وهو يمضي بين أيدي حراسه:

– هل تعرف هذا؟

– لا.

– هذا الأخ أبو هيثم.. محمد وداد بشير.

– لا أعرفه، ولم أسمع به من قبل، بصراحة.

– هذا كان ضابط مخابرات، وهو الذي وصلته إشارة التحذير بوجود جاسوس بالقرب من السفارة الهندية بدمشق، ولقد تكتم على الأمر، وراح يتتبع خيوط القضية، حتى تمكن ذات يوم من اقتحام شقة الجاسوس الإسرائيلي، الياهو كوهين، واعتقله، وكان الشاهد الأول في قضيته.

– ولماذا هو هنا في السجن؟

ضحك صديقي، وقال:

– لماذا هو هنا؟ سامحك الله.. هو هنا لأنه اعتقل كوهين.. حتى اضطرت الحكومة السورية تحت ضغط كبير، إلى إعدامه. إنه هنا يدفع ضريبة اعتقال كوهين.

كان ذلك قبيل ترحيلنا إلى مهجع المدرسة. ولقد قدر لي أن أجتمع مرة أخرى بذلك الضابط أبي هيثم، بعد أكثر من سبع سنوات قادمة، حيث التقينا وتعارفنا في سجن صيدنايا العسكري.

اليوم بات معلوماً وعادياً أن الجاسوس الإسرائيلي إلياهو كوهين، قد أصبح بطلاً قومياً عظيماً لدى الإسرائيليين. وأنه قد قدم خدماتٍ جليلة وعظيمة لشعبه وقيادته التي أرسلته للتجسس على السوريين. ولكن ماذا سيكتب التاريخ غداً عن الأبطال السوريين الذين ضحوا وبذلوا البطولات العظيمة في سبيل بلدهم، سورية؟ من أمثال أبي هيثم، محمد وداد بشير؟

كان محمد وداد بشير من محافظة اللاذقية. ومسقط رأسه من منطقة الحفة التابعة للاذقية. ولقد ترأس في ماضٍ سابق لذلك التاريخ، المجموعة التي أخذت على عاتقها مهمة التقصي والبحث عن الجاسوس الإسرائيلي كوهين، الذي استطاع دخول سورية باسم مستعار، هو كامل أمين ثابت. وقد نجح كوهين في التأسيس لشبكة تجسس تعمل لحسابه، كما تواصل وتعرّف على كثيرٍ من الضباط والمسؤولين السوريين، الذين كانوا في مواقع السلطة والقرار يومذاك. وعلى رأسهم الضابط الصغير حافظ الأسد.

كما أنه زار جبهة الجولان السورية مع إسرائيل، وعرف كثيراً من الأسرار العسكرية عن جبهة سورية مع إسرائيل.

كان محمد وداد بشير هو المسؤول الفني في شعبة المخابرات، عن مراقبة الإشارات اللاسلكية، وعلى أثر رصد وتتبع للإشارات المريبة، التي كان مصدرها حي أبو رمانة في دمشق، وبعد تحديد البناء الذي تصدر منه تلك الإشارات، مصدر الريبة، ثم تحديد الشقة المطلوبة ومداهمتها، وقد ألقي القبض على كوهين متلبساً، وكان في محاولة إرسال بعض الرسائل، عن طريق جهاز اللاسلكي للإسرائيليين.

كانت ضربة اعتقال الجاسوس الإسرائيلي كوهين، التي دفعها المرحوم محمد وداد بشير، ضربة باهضة فادحة. خاصة من قبل أصدقاء كوهين، وربما جزءاً من شبكته التجسسية، والذين كانوا هم أصحاب النفوذ وأولي الطَول، والمواقع الحزبية والعسكرية المتقدمة في سورية. ولعل رأسهم وأبرزهم كان الضابط حافظ الأسد. فقد قضى أبو هيثم شطر عمره، بعد حادث اعتقال كوهين، ملاحقاً طريداً ومطلوباً للأجهزة الأمنية السورية. فعاش فترات ملاحقاً مشتتاً بين العراق ولبنان، حتى تمكنت المخابرات السورية من اعتقاله أخيراً، وزجه في السجن.

عاش محمد وداد بشير في العراق من عام 1968 حتى عام 1971. ثم لجأ إلى لبنان وبقي مقيماً فيه حتى عام 1976. وبالتعاون بين مخابرات سلطات الأسد والموساد، تمكنت تلك الأجهزة من اعتقاله، وزجه لفترة من الوقت في نفس الزنزانة التي سجن فيها الجاسوس الإسرائيلي كوهين.

كما كان هنالك ضابط صغير الرتبة يعمل تحت إمرة الأسد، يدعى محمد ناصيف. هذا الضابط، هو الوحيد الذي كان مسموحاً له التحدث والتحقيق مع الرائد محمد وداد بشير. وهو الذي سوف يتألق اسمه ويبرز نجمه في المستقبل، حتى صار واحداً من أبرز الفريق الاستخباراتي الأمني، الذين أوكل الأسد إليهم قيادة المخابرات السورية خلال عقود الزمن اللاحق.

وكان من أبرز مهام هذا الضابط الصغير، محمد ناصيف، هو مساومة الرائد أبي هيثم، والضغط عليه بشتى السبل والوسائل، لكي يعمل مع فريق السلطة الجديدة، بعد وصول الأسد إلى رئاسة سورية. ولقد ظل الرائد محمد وداد بشير متمسكاً برفضه التعاون مع السلطة الحاكمة، بعناد وإصرار، لمدة خمسة عشر عاماً قضاها داخل السجن. من عام 1976 حتى أواخر عام 1989.

ولم تطلق السلطة سراحه إلا بعد أن بات معروفاً لها أن أمراضه العضال الكثيرة، لن تتيح له أن يعيش خارج أسوار السجن، أكثر من بضعة أسابيع أو أشهر معدودة. وهو أمر كثيراً ما حصل مع معتقلين آخرين غيره. أما إشاعة أن يكون الرائد محمد وداد بشير قد تلقى حقنة مميتة، بسم بطيء التأثير، داخل السجن، أدت إلى وفاته مباشرة بعد

خروجه من المعتقل مباشرة، فهو أمر لا يتجاوز كونه توقعاً، ليس بالإمكان توكيده أو نفيه.

– 4 –

كان مهجع المدرسة رحب المساحة كبيرها، يقع في الطابق الثاني في سجن المزة العسكري، ولقد كان الوحيد في كل السجن ذا الطابقين، الذي لم يكن يحمل رقماً تسلسلياً.

الفرنسيون هم من شيّد سجن المزة، في عهد الانتداب الفرنسي، وعمروه ليكون معتقلاً خُصّ لاعتقال بعض أصوات المعارضين في ذلك العهد. ولقد افتتحت سلطات الانتداب في ذلك الوقت، مهجعاً داخل السجن، ليكون مدرسة يتمُّ تلقي بعض الدروس التعليمية فيها.

منذ ذلك الوقت، غلب على المهجع المخصص للدروس والتعليم، اسم مهجع المدرسة. فقد كان يحق للسجناء في عهد الانتداب الفرنسي، أن يتابعوا تعليمهم داخل سجن المزة. وبعد رحيل الفرنسيين عن البلاد، جاءت الحكومات الوطنية المتعاقبة، فأبطلت كل هذه اللوائح الإدارية السابقة، كالسماح للسجناء بالتعلم وتلقي الدروس في مهجع المدرسة، وألغت دوره كمدرسة خاصة بالمعتقلين.

لكن اسمه القديم بقي محفوظاً، ربما بحكم الاعتياد. وبعد فترة استيلاء الأسد على مقاليد البلاد، حيث تجاوزت أعداد المعتقلين مئات الآلاف، صار مهجع المدرسة، "يستقبل ويودع" معتقلين جدداً دائماً وأبداً، ودون توقف، لا في ليل ولا في نهار.

مهجع المدرسة في المزة العسكري منعزل جانباً عن بقية المهاجع، له باحة تنفس صغيرة خاصة به، ويتشارك معه في الباحة مجموعة غرف صغيرة كانت تسمى في السجن "مهاجع الغرف". ولقد كان لها على الدوام وضع خاص واستثنائي. فقد كان نزلاؤها هم أعضاء الحكومة والقيادة الحزبية السابقة، التي أطاح بهم رفيقهم الأسد، بانقلابه المشهور بالحركة التصحيحية.

كان جيراننا، نحن نزلاء مهجع المدرسة الجدد، في مهاجع الغرف هم: نور الدين الأتاسي، رئيس الجمهورية السابق، وصلاح جديد، الأمين القطري

المساعد، وحاكم سورية الفعلي سابقاً، ومحمد عيد عشاوي، وزير الداخلية السابق، واللواء أحمد سويداني، رئيس أركان الجيش السابق، ومحمد سعيد طالب، عضو القيادة القطرية ووزير التربية السابق، ومحمد رباح الطويل، ومصطفى رستم، وهم أعضاء في القيادة القطرية.

ولا حاجة للتنويه، أن الفارق في طريقة تعامل إدارة السجن، بين نزلاء مهجع المدرسة، وبين النزلاء في مهاجع الغرف، كالفارق بين السماء والأرض، وذلك من سائر النواحي التي تخص طبيعة السجن. كالطعام والتنفس وأمكنة النوم والمراعاة لأولئك، واضطهاد وسوء معاملة هؤلاء بشتى السبل والوسائل. ولكن شيئاً فشيئاً بدأت تتوطد علاقات صداقة ومحاورة، وتبادل أخبار وآراء وتعارف بيننا وبين "جماعة الغرف"، كما كانوا يُدعَون.

أصاب بقشعريرة، وأحس بموات جزئي في عقلي ومشاعري، كلما اقتربت في روايتي من ملف اللواء أحمد سويداني.

أستشعر ظلمة كثيفة تغلف نفسي، وتشل إرادتي وتفكيري. وأتساءل: ترى كم من السوريين اليوم، تفرغ لمدة دقيقتين فقط لا أكثر، للتأمل في هذه الحكاية وهذه السيرة المرعبة؟ والعميقة الدلالة، والبالغة الشجون؟ ثم أوغل في تساؤلاتي أكثر: ترى هل بقي ثمة سوريون مهتمون أصلاً بمخرجات هذا التاريخ القريب العهد والسيرة الغريبة؟ التي لا تشبه شيئاً، وتشبه كل شيء؟ إلا أن تكون حكاية حقيقية، و واقعية.

حكاية حدثت فصولها في واقع هذا البلد الشقي الحزين. وجرت أحداثها جرياً ينضح بالدلالات التي لم يستفد منها أحد، لا وقتها، ولا بعد حين من حدوثها. هذا إن كان أصلاً ما يزال هناك اليوم كثير من السوريين، يتذكرون رجلاً اسمه أحمد سويداني، وأن هؤلاء القلة القليلة، قد طفقوا يتناقصون بالتدريج، حتى أنه قد يأتي على القوم يوم، لا يبقى ثمة من يتذكر؛ لا هذه الحكاية المضجرة وغير المعقولة بالمرة، أو يتذكر صاحبها.

ولد اللواء أحمد سويداني في بلدة نوى، في درعا عام 1932. وأصبح رئيساً لأركان الجيش السوري، قبل سنتين من وقوع هزيمة الخامس من حزيران، عام 1967. ولقد كان سويداني على رأس قيادة أركان الجيش السوري، على الجبهة مع إسرائيل، حين سمع، لأول مرة، (وهو رئيس أركان الجيش)، بسقوط القنيطرة واحتلال الجولان السوري، وذلك من

الإذاعة السورية. وكما يمكن أن يسمع بالخبر أي مواطن سوري عادي، بل وأبعد مواطن سوري مكاناً عن الجولان.

لم يَدُرْ في خَلَد السويداني وقتها، أن سورية بلد ليست لأهله، وإنما هي ساحة جغرافية تتنازع عليها دول عظمى، أبرزها الاتحاد السوفياتي وإسرائيل، التي تصطف خلفها قوة الولايات المتحدة وبريطانيا. وأن كل هؤلاء المتصارعين على السلطة، أو جلهم، إنما كانوا أدوات، تتبع بشكل مباشر لأحد الأجنحة المتصارعة.

حين سمع سويداني ببلاغ الإذاعة السورية، الذي أمر وزير الدفاع حافظ الأسد بإذاعته، عن سقوط الجولان، ووقوعها تحت الاحتلال الإسرائيلي المباشر، كان يحسب أن وراء ظهره حزباً قومياً، سوف يصطف إلى جانبه ويسانده. وأن وراء ظهره شعباً سورياً سوف يقف معه ويؤيده، ويخرج إلى الشوارع مناصراً له. وأن وراء ظهره يساراً تقدمياً. وأحمد سويداني يساري وتقدمي، متطرف متحمس، ظل يتعبد في محراب صلاح جديد، الأكثر تطرفاً يسارياً ماركسياً منه. يساراً يقف على رأسه الاتحاد السوفياتي العظيم والصين العظمى، وأن هذا اليسار، سوف لن يخذله قط، ولن يسمح لأحد، كائناً من كان، بأن يُفَرّط به، وبمركزه وبمكانته الحزبية والعسكرية.

في شباط (فبراير) من عام 1968، قدَّم سويداني مذكرة للقيادة الحزبية والرسمية في الدولة، يشرح فيها ظروف وملابسات هزيمة حزيران، ويُحَمِّل فيها كامل المسؤولية لوزير الدفاع آنذاك، اللواء حافظ الأسد، وكل تبعات الهزيمة وأسبابها ومخرجاتها. ويطالب القيادة باعتقاله ومحاكمته بتهمة الخيانة العظمى، والتفريط بالوطن وتسليمه هدية مجانية للإسرائيليين، والتسبب في احتلال الجولان السوري، من قبل إسرائيل.

اقترح سويداني في تلك المذكرة أحد أمرين: إما قبول استقالته هو، من قيادة أركان الجيش، أو إقالة وزير الدفاع حافظ الأسد. فإذا بالقيادة، قيادة الحزب والجيش وقيادة الدولة – ويا للهول والعجب – توافق على قبول استقالته هو فوراً، وليس على قبول استقالة المتهم الوحيد بالخيانة، اللواء الأسد.

ثم كان من أعجب العجائب، أن رأت القيادة "المصلحة"، في تعيينه

– بدلاً من قيادة الأركان – في مكتب الشبيبة والرياضة في القيادة، بينما تم ترفيع خصمه الخائن علانية، اللواء الأسد، من رتبة لواء، إلى رتبة فريق في 1968/7/1، أي بعد مرور سنة وشهر فقط، على وقوع الهزيمة الكبرى، والتي لم يحدث لها مثيل منذ عشرات القرون.

بعد تقدم اللواء احمد سويداني بتقريره المفصل، الذي يشرح ويفصل فيه أسباب هزيمة حزيران، اختار الأسد بديلاً عنه لقيادة أركان الجيش، أحد مقربيه ونوابه، اللواء مصطفى طلاس، رئيساً لأركان الجيش، بدلاً من سويداني. ثم انقلب الأمر فجأة رأساً على عقب، و"أصبح الطالب مطلوباً"، كما يقول المثل. فبدلاً من اعتقال الأسد ومحاكمته، قام الأسد بتقديم مذكرة اعتقال بحق اللواء سويداني، متهماً إياه بالسعي لقلب نظام الحكم، والتخطيط لانقلاب عسكري مع بعض الضباط الحوارنة المقربين منه. فشعر سويداني بالخطر، فهرب من سورية إلى لبنان.

وعلى هامش الضجة التي أثارها الأسد مع صلاح جديد، حول انقلاب سويداني المزعوم، قام الرجلان بتسريح مائة ضابط من أهالي محافظة حوران، بتهمة ارتباطهم بسويداني وصلتهم به. ولم يطل مقام سويداني في لبنان. إذ تقدم من قيادة البعث التي كان مقرها بغداد، بطلب اللجوء السياسي في العراق. فوافق العراقيون على طلبه، ورحبوا بقدومه.

لكنه لم يمكث طويلاً في العراق، بسبب خلافات كثيرة مع رفاقه السابقين في الحزب، فقرر الرحيل الى القاهرة، وأثناء الرحلة من بغداد إلى القاهرة، توقفت طائرته في مطار دمشق الدولي، بحجة التزود بالوقود (ترى كيف صدف أن توقفت تلك الطائرة بالذات، في مطار دمشق الدولي، لتمكين السلطات السورية من اعتقال سويداني)؟؟!

- 5 -

إذا مَحَّصنا طبيعة التصارع التي كانت قائمة بين الأسد وصلاح جديد، (وسويداني كان من أقرب الشخصيات في السلطة، المقربين من رجل سورية القوي آنذاك: صلاح جديد)، لا يمكن فهم هذه الطبيعة الصراعية، إلا بافتراض جناحين دوليين للصراع: الجناح السوفياتي الذي هُزم باكراً، أو تنحى لصالح الجناح الآخر، لأسباب لا نعرفها حتى اليوم، والجناح الإسرائيلي الذي انتصر أخيراً، ودفع ممثله الأقوى والأوحد: اللواء حافظ الأسد، إلى رأس السلطة في سورية.

ولن يغيب عن ملاحظتنا الجانب الثأري الشخصي، بين إسرائيل والجناح الإسرائيلي، العامل على رأس السلطة في سورية من جهة، وبين اللواء سويداني، من جهة أخرى. فاللواء سويداني، لم تكن جريمته الكبرى والوحيدة أنه ضابط متحمس لقتال الإسرائيلين على رأس الجبهة، تصادم فجأة مع حافظ الأسد، بسبب قراره المفاجئ بتسليم الجولان السوري، والانسحاب منه، والإسراع إلى إعلان سقوط جزء من التراب السوري بيد الإسرائيليين، وذلك قبل أن تظهر دبابة إسرائيلية واحدة، أو جندي إسرائيلي واحد فوق تراب الجولان. ليست هذه هي جريمة سويداني الوحيدة، التي استحقت أخذ الثأر منه، والقصاص الرهيب الذي أوقعوه به؛ ألا وهو حبسه في زنازين فردية لمدة ربع قرن من الزمن.

جريمة اللواء سويداني الكبرى، التي اقتضته كل هذا العقاب الرهيب، هي أن سويداني هو الضابط الذي اقتحم شقة الجاسوس الإسرائيلي ايلياهو كوهين، وهو الذي ألقى القبض عليه. فالمقدم محمد وداد بشير الذي تتبع خيوط ريبته في أمر كوهين، واتصالاته مع الإسرائيلين، كان قد أبلغ اللواء سويداني موعد الاقتحام وساعة الصفر، التي توافق عليها الرجلان: محمد وداد بشير وأحمد سويداني.

وهكذا فقد كانت جريمة سويداني الكبرى، ليست المطالبة فقط بمحاكمة الأسد لتنازله السهل عن الجولان، بل لعل الجريمة الكبرى التي لم تغتفرها إسرائيل للواء سويداني، هي أنه كان المتسبب الأول، إضافة إلى المقدم محمد وداد بشير، في اعتقال كوهين وإعدامه شنقاً.

الغريب أن الأسد والإسرائيليين، لم يقدموا على تصفية اللواء

سويداني تصفية جسدية، وكان بوسعهم ذلك، وفي منتهى السهولة، ولكانوا إذن – لو أقدموا على ذلك – قد أراحوه من كل هذا العذاب، والشقاء الرهيب الذي أنزلوه به. مما يدل دلالة واضحة على مبلغ الحقد، وحجم الرغبة بالانتقام من الرجل. فقد اخترعت إسرائيل، ومعها الأسد، وربما لأول مرة في التاريخ، مبدأ جديداً ومبتكراً في العقاب. ألا وهو أن تسجن إنساناً في زنزانة، لفترة ربع قرن من الزمن. أجل ربع قرن. خمسة وعشرين عاماً.

قضى اللواء احمد سويداني فترة قصيرة في مهاجع الغرف في المزة، ومعظم مدة سجنه قضاها في الزنزانات الفردية. وقد اعتقل عام 1968، وأفرج عنه في عام 1994.

اللواء أحمد سويداني هو الذي أعطى الأوامر في عملية اقتحام شقة كوهين واعتقاله. وقد اقتحم بنفسه الشقة مع الرائد محمد وداد بشير.

وهكذا تمت معاقبة الاثنين معاً. فهل كان من باب المصادفة أن يعاقب بالسجن والقتل، كل من شارك باكتشاف كوهين واعتقاله؟ الأغرب من كل ذلك أن تتم تبرئة العملاء الذين تعاونوا مع الجاسوس، أو سجنهم لسنوات قليلة ثم الإفراج عنهم لاحقاً. إذ بينما مات الضباط الوطنيون، وذابت أجسادهم وأرواحهم في الزنازين، داخل سجون بلادهم. فقد حكمت المحكمة التي حاكمت الجاسوس كوهين، على المتهمين الذين كانوا الذراع الأيمن لكوهين، والذين شكلوا غطاء الحماية له، ببعض الأحكام القصيرة، كنوع من ذر الرماد في العيون. فقد حكمت على المدعو (قطب) والمدعو (وائلي) و(ايلي يلماظ) بعدة أشهر سجن، كما حكمت على كل من (جورج سيف) و(معزى زهر الدين) بخمس سنوات. وعلى (ماجد شيخ الأرض) بعشر سنوات.

مات اللواء احمد سويداني بعد خروجه من المعتقل بسنتين، عام 1996، وذلك عن عمر 64 عاماً.

كان ذلك التواصل، بيننا وبين "جماعة الغرف"، يتمُّ عن طريق نافذة كبيرة مفتوحة، لا شبابيك لها، ومغطاة ببطانية مثبتة بمسامير، فكنا ننزع طرفاً من تلك البطانية، ونتبادل الأحاديث مع جماعة القيادة المطاح بها. ومع الأيام تعودنا عليهم وتعودوا علينا، وألفناهم وألفونا، من خلال تبادل أطراف الحديث بين مهجع المدرسة وساحة التنفس خاصتهم. الأمر الذي كان جعل المساعد حمدو يشدد أوامره اليومية لرئيس مهجع المدرسة:

– رئيس المهجع.. ولاه..! إذا بسمع انكن عم تحتكوا مع "جماعة الغرف" من الشباك، أو تحاكوهن، بتعتبر هادا آخر يوم بحياتك.

فيجيبه الشاب الديري صباح الرباح:

– حاضر سيدي.. مفهوم.

– وطالعلي كل اللي مَ يصلوا بالمهجع هلق..!

– حاضر سيدي.. تعال انت وانت وانت.. هذول سيدي ما يصلوا.

يجيبهم أحدهم:

– سيدي نحن مسيحيين.

– ولاه رئيس المهجع حمار.. الـ مَ يصلوا معناها اللي عم يصلوا..

– سيدي نحن عندنا بالدير المايصلوا معناها "الذين لا يصلون".

يذهب المساعد حمدو، ويغلق باب مهجع المدرسة. فيلتفت صباح الرباح إلى أبي محمد طماشة قائلاً:

– أبو محمد. هذا نور الدين الأتاسي قام يتمشى بالساحة. تحب تحكي معاه شوي؟

يجيب طماشة، دون أن يتحرك عن اضطجاعته قيد أنملة:

– هلق هادا اللي عم يتمشى بالساحة كان رئيس سورية قبل حفيفوظ؟

– أي والله هو..

يهز طماشة رأسه بأسف:

– يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم. لا ابن أختي.. ما جاي على بالي شوف حدا، ولا حاكي حدا..

أكثر ما لفت اهتمامي وانتباهي بينهم هو شخصية وزير الداخلية، محمد عيد عشاوي. كنت أراقبه باهتمام، وأسمع صوته الذي يعلو على جميع

أصوات زملائه، إذ كان أكثرهم تحدثاً. فكان يقضي معظم وقته تقريباً، في باحة التنفس الفاصلة بيننا وبينهم. يحمل في يده راديو ترانزيستور صغير، لا يكاد ينزعه عن أذنه طول الوقت. أما رئيس الجمهورية الأسبق، الأتاسي، وصلاح جديد، فقليلاً ما كانا يتمشيان في الساحة.

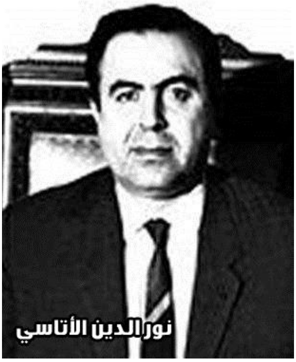

ولقد روى لي أحد السجناء القدامى، هذه الطرفة، عن جارنا، وزير الداخلية السابق، محمد عيد عشاوي، قال:

– زار العشاوي سجن المزة بغتة، متفقداً أوضاعه أيام وزارته للداخلية، وبدا متذمراً من الطريقة التي كان يعامل بها السجناء، فقد اعتبر أن هذه المعاملة لسجناء المزة، هي نوع من تدليل ومراعاة لا تليق بهم، وأن الامتيازات التي يحصلون عليها هي زائدة عن الحد وغير محتملة بنظره.

طلب مدير السجن وهو غاضب، وقال له:

– مدة التنفس يجب أن تختصر إلى نصف المدة. كمية الطعام يجب أن تُختصر إلى أقل من النصف. اللحمة في وجبة الغذاء لا يجب أن تتجاوز خمسين غراماً للسجين الواحد يومياً. "الدوسير"، وهو كمية من قطعة فاكهة أو حلوى تقدم للسجناء فترة طعام الغداء، يجب أن يلغى نهائياً.

ثم قال لمدير السجن قبل أن يغادر السجن، عائداً إلى مكتبه في الداخلية:

– سأرسل لك الأمر الإداري الجديد، موقعاً ومختوماً من قبلي، وعليكم العمل به ابتداءً من اليوم.

لم يمضِ شهر واحد – كما روي لي – على الأمر الوزاري الجديد، إلا وكان الوزير العشاوي نفسه، وكل رفاقه وأركان حكمه معه، قد اعتقلهم جميعاً، رفيقهم السابق حافظ الأسد، قائد الانقلاب. وأمر بوضعهم جميعاً في سجن المزة العسكري، ليودعوا في الزنزانات المنفردة بادئ الأمر، قبل أن يُرَحّلوا لاحقاً إلى مهاجع الغرف، حيث قضوا ما تبقى من سني عمرهم فيها، وأكثرهم حتى ساعة وفاته.

ومنذ اليوم الأول، بعد اعتقاله، ثار "الوزير" واحتج بغضب، على المعاملة "اللا إنسانية" التي يُعاملون بها، بحسب تعبيره. ولم يكن ليصدق أن حفنة من البرغل، وقطعة لحمة تساوي أقل من اللقمة الطبيعية للإنسان، هي مقدار مخصصات السجين في سجن المزة. وقد صرخ معترضاً محتجاً في وجه سجانيه، وأعلن أنه سوف يدخل في إضراب مفتوح عن الطعام.

لم يتكلم معه مدير السجن الذي حضر فوراً على صراخه. وإنما ذهب من فوره إلى مكتبه، واستخرج الأمر المذيل بتوقيعه، وختم وزارته حين كان وزيراً قبل شهر، قائلاً بسخرية:

– سيادة الوزير: نحن منذ قيام الحركة التصحيحية، لا يوجد لدينا تعليمات رسمية جديدة، حول طريقة معاملة السجناء، ولا لوائح إدارية جديدة. كل ما نقدمه للمساجين، وما نعاملهم به حتى الساعة، هو بناءً على تعليماتك الخاصة، وأوامرك أنت بالذات... ثم بسط المدير أوراقه التي كان يحملها بيده، في وجه الوزير السابق، قائلاً:

– أليس هذا خطك؟ أليست هذه أوامرك؟ أليس هذا توقيعك وختمك؟

– 6 –

كان لافتاً أعداد المهربين الكُثر، في مهجع المدرسة. جميعُهم إما قاموا بنقل رسائل بين تركيا وسورية مع بضائع التهريب، وفي حالاتٍ، أقدمَ بعضهم على تسريب بعض قطع الأسلحة أو المال، عبر مسالك الحدود الحراجية، وذلك لصالح مجموعات ثورية مختلفة، لم يكن يعرف بعضُها بعضاً.

أغلب هؤلاء المهربين كانوا رجالاً مُسنين، وبعضهم ربما يكون قد بلغ من الشيخوخة عتياً. أو مبلغاً يثير عجب من لا يملك أية معرفة أو خيال عن طبيعة المهنة، التي قضوا أعمارهم لا يكادون يحسنون غيرها. كما أن غالبيتهم كانوا يعرفون بعضهم من قبل، أو سمعوا بطرفٍ من سِيَرِ بعضهم وأخباره، من شوارد القصص التي يتبادلونها دوماً.

وذات مرة، صدف أن كان مكان جلوسي في المهجع لصق عجوزين من

أرياف جسر الشغور، وقراها المتاخمة للحدود التركية. أحدهما يدعى أبو محمد طماشة، والثاني يدعى أبو رضوان الجعبة. كان أبو محمد طماشة يسأل أبا رضوان الجعبة عن حادثة قديمة، سمع بها عنه، وأبو رضوان يسرد له قائلاً:

– الحكاية بدأت يوم قبضنا، أنا والصبيان الذين يعملون معي، على رجل كافر بين الأحراج في داخل الأراضي التركية. كان يحاول أن يسرق البضاعة من على ظهر الحمير، حماري كان محملاً بالبضائع. يومها كان عندي جحشة صغيرة، ولكنها سمينة وممتلئة كالخنزير الشبعان. تقريباً بحجم ابن اخوي هذا، (وأشار إلى أحد الفتيان اليافعين بقربه). فربطنا ذلك الكافر إلى شجرة، وجمعنا حوله الحطب، ثم صببنا بعض الكاز حوله، وهددناه بالحرق إن هو لم ينطق بالشهادتين، وفعلاً صار الرجل يرتجف من الرعب الذي أصابه، كأنه عاري الجسم وسط الثلج من شدة الوجل والرعب. ثم راح يضرع إلينا ويرجونا وهو يبكي أن نعفو عنه.

أنا أصررتُ إصراراً بأنني سوف أضرم النار في ذلك اللص إن لم يتشهد. فقال: فكّوا قيودي، وسوف أدخل في الإسلام وأتشهد. قلت له: لا.. تشهدْ أولاً..! فنطق الشهادتين قائلاً: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فعفونا عنه، وأطلقناه من قيوده، وصار من أفضل أصحابي فيما بعد. في تلك الليلة، ذهبنا أنا وهو رفقة، إلى بيت الشرموطة خلود.. ألا تعرف الشرموطة خلود؟

– بلا أعرفها.. وهل يوجد في الدنيا كلها من لا يعرف الشرموطة خلود؟

– المهم.. شربنا العرق عندها، وقضينا الليل بكامله في بيتها.. وبعد يومين ذهبت إلى الشيخ "علي"، شيخ الجامع في الضيعة، وقلت له: لقد هديت أحد الكفار إلى الإسلام، وقد دخل في الدين على يدي وبفضلي. وأريد أن أبيعك إسلامه بمائتي ليرة. هات مائتي ليرة وخذ ثوابه مني، بارك الله لك به وبدينه. ورويت له الحكاية من بدايتها.

فقال الشيخ:

– إسلام المُكرَه لا يجوز، ولا يُدخله في الدين. كما أن إكراه المسلم على الكفر لا يجوز، ولا يدخله في الكفر.

قال له أبو محمد طماشة:

– اي؟ وطارت المائتي ليرة؟ ألهذا السبب ضربت الشيخ؟
– ضربته فيما بعد، ولسبب آخر.
– ولكن قالوا بأنك بعد ذلك، قد لكمته على أسنانه. لماذا لكمته على فكه؟
– إمام جامعنا وشيخنا كان من أهل الزعينية. ولقد بلغتني عنه ذات مرة وشاية من أحد الأطراف، أنه ذكر لبعض خواصه، بأن أهل الجانودية لا يصح إسلامهم على المذاهب الأربعة، ولا يؤاكلون أو يشاربون، ولا يدفنون في مقابر المسلمين، ولا يُصلى عليهم.. لهذا السبب، وبعد أن سمعت تلك الاشاعة تنقل عنه، هاجمته وضربته على فكه. لقد كان في فمه عدد من الأسنان الزائدة، فأردت تخفيف أحمال فكه من تلك الزوائد.

قال طماشة:

– تعجبني يا ابن اختي أبو رضوان. من الجيد أن يعتدي الإنسانُ على من يعتدي عليه، وعلى من لا يعتدي عليه. بارك الله بك.

وقد ظل المهربان أبو محمد طماشة وأبو رضوان الجعبة، منصرفين عن كل ما يحيط بهما، ممن كانوا في مهجع المدرسة، وهما يستذكران تلك الأيام الخوالي التي انقضت منذ سنين. فتساءل طماشة:

– ولك صحيح رفيق عمرك حمدو مات؟ قالوا مات عالطريق. كيف هيك صار؟
– لا تذكرني أبو محمد لا تذكرني.. انحرق قلبي عليه. شفت كيف هيك صار؟ بعد ما قطعنا الحدود وتجاوزنا العسكر الأتراك، قطعنا الجبال ودخلنا جوات الاحراج، قرصتو حية. وبعد ساعتين بس، قبل ما يصير المغرب مات الزلمة.
– والله مالو حق يموت من قرصة حية. أصلاً عيب عالزلمة يموت من قرصة حية. قالولي قعدت تبكي وتنعي عليه بنص الحرش.
– هو إن جيت للصراحة مالو حق يموت هيك موتة. بس أمر الله وصار. شو بيطلع بالإيد.
– عليه رحمة الله. قالولي كان بخيل كتير، ومستعد يبعث أمه وأبوه وأخوته كلهم للحياة الآخرة، كرمال مية ليرة. إذا حدا بياكل عليه حقو.
– الله يرحمه كنت أحبه أكثر من ابني.. وبكيت عليه، أقلك ما بكيت

عليه؟ وقلت نعوات وأنا حاضن راسو بحضني، وهو ميت، ودمعي يكت فوق راسو..

– وشو نعيت فوق راس حمدو وهو ميت؟

– قلت:

لو كان الموت حرش يا محمد.. لَقَطَّعْتُو
ولو كان الموت بحر يا محمد.. لَنَشَّفْتُو
ولو كان الموت جبل يا محمد.. لَهَدَّمْتُو
لكنّ الموت موت يا محمد.. كس أختو

– تعجبني ابن اختي أبو رضوان بتعجبني كتير.. وبرافو عَلَيْك إذا كل شغلك هَيْك.

ثم تناول أبو محمد طماشة الحديث قائلاً:

ذات مرة، سقط أحدنا جريحاً في الأحراج برصاص خفر الحدود. تشاورنا فيما بيننا. هل نحمله على ظهر الدابة ونمضي به لإسعافه؟ بهذا الاحتمال كان يتوجب علينا أن نلقي بحمولة كبيرة مُحَقَّبة من البضاعة، من على ظهر الحمير، لكي نوسع للجريح مكاناً. أخيراً، وبعد مناقشة مستفيضة، توصلنا إلى رأي: الرجل سيموت، سواء حملناه معنا أم تركناه في الأحراج الجبلية. ولذلك كان أفضل الخيارات التي وصلنا إليها، هي أن نترك له بعض الطعام والماء، وزودناه بآلة حادة أقطع من السكين، لكي يدفع بها الوحوش عن نفسه. ثم أضجعناه بين دغل من الأشجار، ومضينا في طريقنا.

استأنف المهرب العجوز قائلاً:

– حين وصلنا إلى الضيعة، هُرعت زوجته إلينا تسألنا عن أخباره، وهي تعول وتندب. فقلنا لها: لقد مات. الله يرحمه. من الأفضل أن تبحثي لك عن زوج غيره.. النسوان بلوه مالها حل ولا تدبير..

فصادق أبو رضوان الجعبة على كلماته، وهو يهزُّ رأسه مؤيداً:

– والله حكيك كلّو صحيح يا أبو محمد طماشة.. جنس عاطل مدري ليش الله خلقهن..!

فارتفعت نبرة صوت طماشة بغضب:

– ابن اختي أبو رضوان.. النسوان مالهن شغلة بس غير بالنهار يفلسونا، وبالليل ينجسونا..

ثم نكص المهرب العجوز على قفا رأسه، وتساءل:
– هذا الولد قلتلي مسمي حالو في السجن أبو هريرة؟ وهذاك العجي صار اسمه أبو الدرداء؟ وهذا أبو صهيب؟ وهذاك أبو دجانة وهذا أبو سارية..؟ إيييه شو عليه...!
وراح يحدق في كل أفراد المهجع بعينين صقريتين تشعان بالفظاظة، وباحتقار يكاد يسيل سيلاناً من حَجَر عينيه المتخشبتين، وهو يردد ساخراً، وعيناه تطرفان في جميع الحضور:
– يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم.
بعد أيام معدودة حكم قاضي المحكمة الميدانية اللواء القعقاع، على أبي رضوان الجعبة بالسجن المؤبد، وعلى أبي محمد طماشة بالسجن مع الاشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاماً.
وعلى إثر صدور تلك الأحكام القاسية جداً بحق الرجلين، آثرت أن أجالس أبو رضوان الجعبة لأواسيه، وأخفف عنه بعض ذلك الحزن. جلست معه، وبعد بعض كلمات المجاملة، والتخفيف من أثر الحزن الشديد الذي قد يكون قد أصابه، بعد صدور الحكم عليه، رفع رأسه بعد صمت طويل، وإطراقة تفكير وتأمل مديد، وقال بتأثر:
– يا أخي أنا لست حزيناً على حكم المؤبد.. ولا لأنني سوف أقضي عمري في سجن تدمر. أنا حزين فقط، لأنني أتذكر سبع بنات وأمهن، تركتهن بلا معين ولا معيل. من سوف يقضي حوائجهنّ؟ من سيساعدهنّ اليوم، وقد بدأ موسم قطاف الزيتون؟
تأثرت من كلامه تأثراً جمّاً، وهالني ما بتُّ أسمع عن وضعه العائلي لأول مرة. قلت متعجباً:
– سبع بنات؟
– نعم.. لم أرزق بصبي، وإلا لكان الآن شاباً يقضي حوائجهن، ويمشي بكل أمر من الأمور قد يحتجنَ إليه في غيابي.
قلت:
– الله هو المعين. ولسوف يتكفل بأمر بناتك وزوجتك، ولن ينساهنّ أبداً، فلا تقلق كثيراً أبا رضوان. وخففْ عنك بعض هذا الهم.
فانبرى العجوز يقول فيما يشبه التأفف والحنق:
– أو تظن بأن البنات وأمهن هو ما يشغل تفكيري؟ ألا فليذهبن إلى

جهنم الحمرا ذهاباً بلا عودة. بل إن ما يشغل تفكيري ويثير همومي، هو موسم الزيتون فقط. من تراه سوف يقطف موسم الزيتون؟ إذا ما عجزت تلك العجيات وتركنه يموت وهو على الشجر؟

بعد ذلك القول، ومنذ تلك اللحظة، قررتُ في نفسي قراراً لا عودة عنه. وهو أن لا أجالس أبو رضوان الجعبة بعد ذلك اليوم ما حييت.

ولم أرجع عن قراري فيما بعد.

الفصل الخامس

تدمر جريمة العصر المعلنة

- 1 -

لم يطل الأمر بنا أكثر من أسابيع معدودة تلت ذلك. جاءت هيئة المحكمة الميدانية وبلغتنا قرارها بالسجن لمدد مختلفة. أغلبنا صدر الحكم بحقه، بالسجن مدة خمسة عشر عاماً مع الأشغال الشاقة، وتم تخفيض كثيرٌ من الأحكام إلى خمس سنوات، (وكنت واحداً من بينهم)، لعدم كفاية الأدلة، وعدم وضوح التهمة، التي اندرج معظمها تحت ما يعرف بكتم المعلومات المتعلقة بأمن الدولة، أو جاء وصف أغلبها تحت مسمى الاعتداء على منجزات المجتمع الاشتراكي، كما تبلغنا في حيثيات القرار.

هكذا لم يبق لنا إلا ليالٍ معدودة، إن لم أقل ساعات محدودة لا أكثر، قبل أن تبدأ إجراءات ترحيلنا من سجن المزة العسكري، إلى سجن تدمر العسكري.

صباح يوم الرحيل، كانت إجراءات الترحيل والتحضير له، تجمع بين القسوة والإملال الشديد. كان يتوجب علينا انتظار مراسم التفتيش الدقيق، ثم الحشر في سيارة السجن، التي تشبه الشاحنات المخصصة لنقل الذبائح واللحوم من المسالخ والمزارع، إلى مراكز التوزيع والاستهلاك. وكان الاسم الدارج لسيارات السجن الخاصة بنقل السجناء، الغالب عند المعتقلين، هو: سيارة اللحمة.

وقد بدأ موكب طويل من السيارات والمرافقة، يجتاز شوارع العاصمة دمشق، نحو مجهول باتت الأكثرية منا، تعرف عنه أكثر مما يجب معرفته: سجن تدمر العسكري في قلب صحراء بادية الشام.

يتملك المرءَ حنينٌ وشغفٌ جارفٌ لاستطلاع ذلك الفطري والبدائي من حيواتنا، والذي يحطم السمْتَ المرسوم، والمقرر سلفاً لسيرورة الحياة نحو المستقبل. حقاً إن التاريخ كله كان كذبة نحن من اخترعها. والتوق إلى بناء ما هو محطم أصلاً، وتحطيم ما هو مشادٌ، هو توق الإنسان الأزلي وسجيته المفضلة، فيما لو أطلقت الحضارة سراحه من

أغلالها، وأعفاه المنطق والعقل من قيودهما الصارمة.

منذ أقدم العصور، والناس يذبحُ بعضُهم بعضاً، للترفيه عن أنفسهم قليلاً، وطرد بعض الملل الذي لابد منه، طالما قُدِّرَت علينا الحياة وأتيحت لنا. فلنقتل بعضنا، كحيوانات متطورة سُلالياً ومترقية فوق مخلوقات الطبيعة، وبكل طريقة ممكنة من الطرق. ذلك مُسَلٍ وغير مكلف، وليس هناك أي معنى لأن نمتدح اللحظة التي كنا نعيشها، أو نهجوها. ولا أن نُقَرِّضَ مشاعر شغفٍ أصيل نحو التحلل من كل شيء؛ من معاني البطولة والجبن، والنبالة والخسة، وقيد الممكن وغير الممكن.

فالبطل الذي يجب الإشادة به في هذا العالم هو (اللا بطل)، والنهاية المرجوة التي يأملها المرء هي بلا بداية ولا نهاية. وثمة طريقان يقودان مسالكنا في هذه الحياة: طريق الحرب وطريقة الحرب. ولا سلام أبداً. لا طريق ثالثاً يمكن أن نختارها لكي يطوّع لنا سبل العيش، فالمستقبل محضُ تُرَّهات، مثله مثل الماضي تماماً.

وصل رتل السيارات التي كانت تنقلنا. وتوقف عند البوابة الخارجية. على البوابة الخارجية لسجن تدمر لوحة قديمة، كتب عليها: (السجن العسكري). وتحتها ثلاث عبارات: (تأهيل – تأديب – إصلاح). ولعل الكلمات الثلاث، هي الانعكاس الظلي لشعارات: وحدة، حرية، اشتراكية. أما على الجدار، فقد خط عناصر الحرس من سرية التأديب في السجن، المكوّنة من الشرطة العسكرية المميزين (بالبيريه الحمراء)، جملة لم يفهم أيٌّ منا معناها أول وصولنا: أبو جهل يرحب بكم.

بعد وقت قصير، علمنا بأن أبا جهل المذكور في العبارة، هو مساعد أول عجوز، من أهل بلدة القريتين في بادية الشام، اسمه أحمد. وأن أبا جهل هذا هو الجلاد الأول والأكبر، عبر تاريخ ربع قرن داخل السجن، وأنه ملك التعذيب الأول، والفنان المبتكر لكل أنواع وأصناف التنكيل التي تمارس على السجناء. وما أزال أتذكر تفاصيل وشكل أبي جهل هذا حتى اللحظة.

بعد أربع سنوات من مكوثنا في تدمر أختفى أبو جهل، وسمعنا إشاعات تتردد حول هروبه خارج البلاد، وقيل يومها أنه هرّب سجناء محكومين بالإعدام مقابل مبلغ ضخم من المال، بعد أن هرب معهم، وقيل كلامٌ كثير آخر حول مسالة اختفائه، لست على بينة من مقدار

صدق كل ما تردد حول المساعد أبو جهل من إشاعات.

ولقد ابتدأ ما يُطلقون عليه مسمى (حفلة الاستقبال) منذ ما بعد الظهيرة، إلى ما بعد غروب الشمس. تمَّ استعراض السجناء الواصلين حديثاً إلى السجن، واحداً تلو الآخر. وكان عددنا تسعين سجيناً بالتمام. كانت حفلة الاستقبال تعني أن تباشر كل مجموعة من الشرطة العسكرية، التي تسمى سرية التأديب بجلد كل واحد منا، على باطن قدميه وظهره وبطنه ورأسه مئات الجلدات، ولمدة لا تقل عن نصف ساعة متواصلة.

وحين انتهت حفلة التعذيب الجهنمي، صدرت الأوامر والتعليمات التي ينبغي على السجين أن يتقيد بها منذ اللحظة، وطوال السنوات التي يفترض أن يقضيها داخل هذا السجن. وهي أن لا يرفع رأسه، ولا يفتح عينيه أمام العسكريين والجنود مهما كلف الأمر. وأن يظلَّ واقفاً في استعداد تام، وهو مطبق عينيه بشدة، مهما تلقى من لكمات وصفعات.

وما زلت أذكر إلى اليوم، حيث ينتابني ما يشبه سحر ابتسامة غامضة، من ذلك الموقف الذي تصرف به الشاب المثالي الرائع، أبو نزار، حسان طباع.

حسان طباع شاب دمشقي لم يكن يتعدى الخامسة والعشرين من عمره، حينما وصل مع أولى الدفعات التي تم ترحيلها إلى سجن تدمر. طويلٌ طولاً مفرطاً، وذو كسوة من جمال أوروبي يميزه من بين الناس: عينان شديدتا الزرقة، وشعر شديد الشقرة، وبشرة بيضاء كالحليب. كان حسان طباع فضلاً عن هبة الجمال الطبيعي، والجسم الرياضي الممشوق، الذي يلفت الانتباه إليه مباشرة، قد امتاز في المهجع، بكونه واحداً من أميز حفظة القرآن وضابطي تلاوته. (ولم تكن تهمته سوى أنه كان يُحَفِّظ أطفال حيه الدمشقي وشبابه، التلاوة والحفظ الصحيح). زيادة على أن حسان كان متخرجاً من كلية الآداب، قسم اللغة الإنكليزية. فكان يجمع المقدرتين معاً: فهم اللغة العربية وقواعدها وأصولها، إضافة إلى كونه على معرفة متقنة ومتفوقة باللغة الإنكليزية، التي هي اختصاصه الرئيسي.

حينما أجبروه على الدخول في الدولاب، أثناء استقبال دفعته في سجن تدمر، تفاجأ كثيراً. إذ يبدو أنه لم يكن في وارد أن يتصور شيئاً

كهذا، يمكن أن يحدث له. فجعل يهتف بالشرطة العسكرية، صائحاً مناشداً القوم، بلهجته الدمشقية العريقة:

– يا شباب. يا حلوين. يا أكابر. يا ولاد الأكابر. يا ناعمين. يا مؤدبين. شو هاد. ولك شو عم تعملو؟ ما بصير هيك يا عمي. طولو بالكن.

تلفت أحد الشرطة حوله باحثاً مفتشاً عن كائنات خفية، أو ربما غير مرئية، عسى أن تكون هي (الحلوين الناعمين الأكابر)، لكنه لم يرَ شيئاً. فقال يخاطب أبا نزار، حسان طباع:

– وين هدول الأكابر الحلوين الناعمين ولاه.. ماني شايف حدا؟

– سيدي انتو.. انتو أكابر وحلوين ومرتبين.. وولاد خلق وعالم.

– ولاه؟ ولاك ابن الكلب أنت شايفنا أكابر وحلوين وناعمين ولاك؟ ولاه نحن جحاش ولاد جحاش متلكن. كلاب ولاد كلاب متلكن، وأضرط منكن. يلعن أبوك يا ابن ستين كلب. ولك بتسبنا وبتشتمنا كمان؟ عم يشتمنا ويتمسخر علينا ابن هالحرام. قال نحن أكابر وحلوين وناعمين قال. ولك والله لأخلي الحلوين الأكابر اليوم، يظلوا يجلدوا فيك، لحتى تصل مهجعك زحف على كواعك. يا عرصة يا ابن الكلب.

جرى بعد ذلك، جرّنا كقطار أعمى، ونحن مغمضو العيون، باتجاه ما عرف باسم الباحة السادسة، وهنالك دلف الجميع تحت لسعات الكرابيج الضخمة، المصنعة خصيصاً من سيور وأقشطة الدبابات الحربية، إلى المهجع الذي سمعنا الشرطة يدعونه بالمهجع 27. وحين أصبحنا داخل المهجع، دلفت وراءنا مباشرة مجموعة سجناء أخرى لم ننتبه إليها، ولا أين كانت تقف منتظرة وصولنا. وكان عدد المجموعة الجديدة قريباً من خمسين سجيناً جديداً.

وزعت علينا البطانيات و"العوازل" التي تُمد على الأرض، وهي كل فراشنا وما يفصلنا عن الأرضية المقرورة كالصقيع، في ليل كانون الثاني الشتائي. بعد ذلك، أدخلوا طعاماً قليلاً، لا تكاد كميته تكفي ثلاثين أو أربعين رجلاً، لكي يوزع على حوالي المائة والخمسين إنساناً، الذين حشروا في المهجع 27. وبلّغونا مزيداً من التعليمات الصارمة التي يجب التقيد بها، وأهمها أن وقت النوم يحين عند السادسة مساء، وموعد الاستيقاظ في السادسة صباحاً. أي أن الجميع يجب عليهم أن يبقوا لمدة اثنتي عشرة ساعة متواصلة يومياً تحت الأغطية، مهما كان الفصل

أو الوقت. حتى في الصيف الذي تكون فيه الساعة السادسة، قبل المغرب وغياب الشمس بساعتين ونصف تقريباً.

في أول يوم ظننت بأن مثل هذه التعليمات، هي مجرد أوامر روتينية مؤقتة، ولن يتم التقيد بها بعد وقت قليل. ولقد كان ظني خاطئاً تماماً، فلقد أُجْبِرْنا على التقيد بهذه الأوامر، وهذه الأنظمة، حتى لحظة خروجنا ومبارحتنا سجن تدمر، فيما بعد، والتي لم يكن ليستوعب الخيال، أنها سوف تنقضي وتمضي في قريب من ثماني سنوات قادمة.

في هزيع الليلة الأولى في تدمر، كنت متهالكاً إلى حدود التداعي الجسدي والنفسي. لم أتناول شيئاً من الطعام الذي أدخل المهجع، ولم أرغب بشيء أكثر من التمدد والاستلقاء تحت ظلام البطانية. كان الجميع قد انحشروا كالسردين بجانب بعضهم. الرؤوس متدانية الى بعضها بعضاً. في تركيب جسماني متعاكس؛ كل واحد مدد قدميه باتجاه رأس الآخر. وتموضع جسده جانبياً في وضعية تدعى التسييف، حيث تكون الأجساد متمددة، دون إمالة في خط مستقيم تقريباً كالسيف.

وهكذا، فكل جارين أثناء النوم، يتقابل وجهاهما، بينما يفصل الوجهين عن بعضهما قدمُ ثالث. وكل زوج متقابلين من الأقدام فصل بينها رأسُ ثالث. ورغم أن الليل كان طويلاً، أطول من كل الليالي المتخيلة، فقد جافاني النوم لبضعة ساعات، حتى ما بعد أواخر الليل، ولم أستطع أن أفكر في شيء، أو أتأمل شيئاً. كنت فقط أسمع وشوشات وهمس يدور من حولي، وبعض أحاديث جانبية وتعليقات مختلفة. كان الرجل الذي يدعى نايف، والذي يبعد من مكان نومه عني حوالي نصف المتر، يردد مخاطباً جاره همساً، وإن يكن بصوت أسمعه بوضوح:

– الم أقل إن هذا النظام ابن شرموطة؟ وإنه لن يفرج عن أحد منّا قط؟ ولن يرحم أحداً أبداً؟

إلى جانب نايف، عجوز يدعى أبو إبراهيم، يرد عليه:

– أقسم لك إذا مكثنا في المكان أكثر من أسبوع واحد، فلسوف نموت جميعاً.

– أسبوع؟ يا رجل قل سنوات.. أسبوع قال..

– كلماتك تقتلني يا نايف. حتى خيالي لا يستطيع أن يتصور كل ذلك.

قرب رأسي تقاربَ رأس شابين يافعين صغيرين، أعمارهما لا تكاد تجاوز السادسة عشرة في المتوقع، وهما لا ينفكان عن الثرثرة وحديث النجوى فيما بينهما. علمت في الأيام التالية أن الأول يسمى عدنان، والثاني يسمى خالد. كما فهمت من حديثهما، أنهما كانا صديقين في نفس الحي والمدرسة، من أحد أحياء حلب الشعبية.

وإلى جانبي تمدد شاب قوي البنية صلب الجسم. وكان محطم العظام في أكثر من ناحية من جسمه. وهو الوحيد تقريباً، من بين تلك المجموعة، التي قدمت من حلب، وأدخِلت إلى المهجع معنا، لحظة وصولنا ودخولنا إليه؛ هو وحده كان ملفوف القدمين بالشاش الطبي، والضمادات وعصابات الكسور. وجعل يسألني عن اسمي وموطن إقامتي الأصلي، ومن أين جاؤوا بنا إلى هذا السجن. وكذلك بعض الأسئلة الاستفسارية، التي تكون فضولاً طبيعياً لدى السجين. وسألته بدوري عن اسمه، فأجاب:

– اسمي ماهر صيرفي. من حلب.

ثم بعد القليل من الحديث المستطرف، عن الأحوال الشخصية والتهمة التي وجهت لنا في فروع التحقيق، وبعض الشؤون الشخصية، سألني ذلك الشاب ماهر صيرفي فجأة:

– هل تعتقد بأنني سوف أقدم إلى المحكمة الميدانية مثلكم؟

قلت:

– بكل تأكيد.

فقال بعد تفكير متأمل:

– وهل تتوقع لي أن أحكم بالإعدام؟

قلت:

– لا أستطيع أن أتوقع شيئاً. يتوقف هذا الأمر على اعترافاتك، وما استطاعوا انتزاعه من أقوالك في التحقيق.

قال بهدوء، كأنه كان يحلم:

– أنا ماني عامل شي أبداً. وما علي شي، ولا سويت شي.

نظرت إلى قدميه. كانتا ملفوفتين كلتيهما من أطراف المشطين إلى أعلى الفخذين بشاش طبي قذر، وقد استحال بياضه إلى شيءٍ لا لون له، كأنها جبيرة كسور مغمسة بالطين والقذارات.

كان ذلك اللقاء الأول في اليوم الأول، والساعات الأولى، في الباحة السادسة، (أو باحة الإعدامات، كما أصبحت تسمى اصطلاحاً فيما بعد). وكانت تلك المجموعة من السجناء، التي جيء بها من مقر احتجاز ثكنة هنانو في حلب، عديدها حوالي خمسين معتقلاً، أما عددنا، نحن الذين وصلنا قبل ساعات، من سجن المزة في دمشق، فكان قريباً من ضعف عددهم بقليل.

هكذا جرت الصدفة، واللقاء الأول بيننا، أنا وذلك الشاب ماهر صيرفي، صدفة اللقاء التي جمعتنا معاً بين جدران المهجع 27.

– 2 –

تابع ماهر الحديث شارحاً لي الظروف والجوانب المخففة في قضيته، كعادة كل السجناء في بداية فترة الاعتقال:

– أنا ما علي شي. ماني منظم بأي تنظيم. ولا علي كتم معلومات.

– أبداً ما اعترفت على شي؟ شو ثبَّتوا عليك بالتحقيق بهنانو؟

قال:

– أنا معمرجي. عامل بنَّاء. أعمل في البناء والصقالة. جاءني بعض شباب الأخوان من الطليعة المقاتلة، وطلبوا مني بناء قاعدة لعملهم. وافقت طبعاً، وبدأت العمل في أطراف مدينة حلب. كنت أشتغل في البناء، حينما داهمتنا فجأة مجموعة من (الوحدات الخاصة)، فتمكن بعض شباب الأخوان من الانسحاب، بعد اشتباك معهم، وبعضهم قُتل قبل أن ينسحب. أنا رموني بقنابل يدوية، فتكسرت قدماي الاثنتان، وتفتت لحم رجليَّ، وغطتني الدماء. وقعتُ على الأرض، لا أقدر على الحراك، فألقوا القبض عليّ، ووجدت نفسي في المشفى العسكري بحلب، مربوطاً ومكبلاً بالحديد.

عذبوني تعذيباً شديداً حتى الموت وأنا في المشفى، لم يعالجوني أبداً، بينما عشرات الشظايا والقروح النازفة المتقيحة، ماتزال مغروسة في رجليّ الاثنتين حتى هذه اللحظة. كانوا في المشفى العسكري يدبكون ويرقصون فوق قدميَّ النازفتين. لفُّوا الرجلين بهذا الشاش الطبي، ولم يبدلوه لي منذ أشهر. صار هذا الشاش جزءاً من ثيابي وكأنه بعض جلدي.

في التحقيق سألني المحقق، وهو ينهال علي ضرباً:
– أنت أخوان مثلهم..؟
قلت له:
– ياسيدي، والله أنا لست من الأخوان، ولا أعرفهم، ولم ألتقِ بهم قبل اليوم. أنا عامل معمرجي بسيط.
قال:
– مانظموك معهم؟
قلت:
– أبداً.
– ليش ما نظموك؟
قلت:
– ياسيدي أنا إنسان بسيط، أمي، لا أعرف حتى كيف أكتب اسمي جيداً. طلبوا مني فقط أن أساعدهم في بناء قاعدة للمجاهدين في سبيل الله، لمجاهدة النظام.
قال:
– اي.. ووافقت أنت طبعاً؟
– طبعاً يا سيدي وافقت.
– وكم دفعوا لك ثمن أتعابك؟ مقابل بناء وكر الإجرام الذي كنت تبنيه؟
قلت:
– ياسيدي مو عيب.؟ مو عيب أنا آخذ منهم مصاري؟ أقله نحن لا نشارك بأي عمل مثمر منه الأجر والثواب، أفلا نساعد أخوتنا المجاهدين، ولو ببناء غرفة على الأقل؟ ثم إن هذا لا يسمى وكراً للمجرمين ياسيدي، هاي اسمها قاعدة. قاعدة للمجاهدين، وليست وكراً للمجرمين.
– والله وبرافو عليك صلحتلي وأنا ناسي. تشكر على هالإضافة القيِمة. وليش مانظموك معاهن؟
– ياسيدي كيف بدك ينظموا معاهن واحد أمي متلي، وهدول كلهن دكاترة، وخريجين جامعات. هنن ناس فهمانين ومتعلمين. وأنا أمي غير متعلم. ما بيصير، ولا بيطلعلي أتنظم معاهن.

عندئذٍ قال لي المحقق:

– ولك والله يا ماهر، طالما بدك الجنة وهدفك الجنة، إلا أبعثك أنا عالجنة. الجنة هاي خليها عليّ، وخدها مني مضمونة.

– الجنة ياسيدي ما حدا بيحسن يبعث حدا عليها إلا رب العالمين، وما حدا بشيل الراس غير اللي ركّبو، ولا حدا بياخد الروح إلا اللي حطها بالإنسان. والإنسان ياسيدي ممكن يعمل بعمل أهل الجنة طول عمرو، حتى إذا ما بيضل بينو وبين الجنة إلا شوي بسيطة. بدك تقول فشخة ليوصل، أو عضة كوساية بس، ممكن يسبق عليه الكتاب فبيصير يعمل بعمل أهل النار، وبيدخل النار. هيك قال النبي. كأني هالحديس (الحديث) ماعدّا عليك سيدي؟

قال لي:

– لا عدّا علي. كيف ماعدا عليّ؟

فجأة رأيت المحقق وقد توقف عن تعذيبي. ابتسم. وأمر العناصر أن يتوقفوا عن ضربي. وبدأ يلاطفني، وقد شرع في المسايرة. وأحياناً راح يمزح معي.

وفجأة قال لي:

– شيخ ماهر. انظر إليّ جيداً. أكيد أنت تظنني رجلاً كافراً. أو جلاداً فاسداً لا أكثر. أو رجل السلطة الذي يجلد الناس ويعذبهم، مع أنني لست كذلك. أنت غلطان إذا كنت تظنني كذلك. ألا تظن أنني كذلك؟ أنا إنسان مثلي مثلك، أحب الناس، وأحب الخير لبلدي مثل بقية الناس.

قلت:

– أنا لا أظن شيئاً. كل إنسان يعرف باطنه جيداً، ولا أحد يستطيع أن يعلم بواطن الآخرين إلا الله. أنت لا تعلم شيئاً عن باطني، وأنا لا أعلم شيئاً عن باطنك. كل واحد بيعرف زاتو "ذاته".

قاطعتُ ماهر صيرفي مندهشاً متسائلاً:

– هذا الحديث كله جرى في التحقيق؟

قال:

– نعم.

قلت:

– وثبتوه عليك كتابة في محضر تحقيقك؟ ووقَّعت في اعترافاتك عليه؟

قال:

– نعم. كله سجلوه وبصّموني عليه.

رأى شرودي وتأملاتي نحو البعيد، فقال:

– ما بك..؟ كأنك انزعجت من اعترافاتي للمحقق؟

لم أجب بشيء. فقال:

– تعتقد أن اللواء قاضي المحكمة الميدانية، سليمان الخطيب، سوف يعدمني أليس كذلك؟

قلت:

– لا أدري. ولا أعتقد شيئاً. ولم أسمع باسم هذا اللواء إلا الآن. على أية حال، لا يكون إلا ما قدر الله.

– أما نحن في معتقل ثكنة هنانو بحلب، فقد سمعنا بأن هنالك محكمة ميدانية تنتظرنا في سجن تدمر.

قضينا حوالي ثمانية أشهر في المهجع 27. كان ماهر صيرفي قليل الكلام مع الجميع، وإذا سار، فإنه يرتكز متثاقلاً بمشقة، ويمشي على رؤوس أصابع قدميه وهو يعرج، ولم تمنعه إصابته التي جعلت منه شبه مُقعد، أن ينَكّلوا به يومياً أثناء خروجنا إلى التنفس، بل لعل ذلك الشاش اللعين، الذي يلف نصفه السفلي، صار علامة فارقة تلفت إليه انتباه الشرطة أكثر، وتجعله علامة وهدفاً لهم، والذي تحول إلى أضمومة من القذارة، تلتف حول قدميه، حتى ساعة افتراقنا وخروجي من المهجع 27، حيث تم نقلنا – نحن المحكومين في المزة – إلى المهجع العاشر في الباحة الثانية.

بعد بضعة أشهر، إثر انتقالنا، سألت بلهفة واهتمام عن جاري الذي كان يرقد بجانبي في المهجع 27، ماهر صيرفي، فأخبروني بأنه تمت محاكمته في محكمة سليمان الخطيب في تدمر، حيث حُكم بالإعدام، ونُفذ الحكم فيه في الباحة السادسة.

لقد أعدموه ملفوفاً بذلك الشاش القذر الذي تدثَّرت به قدماه.

- 3 -

طوال الليل، وأنا مضطجع تحت البطانية، كان يتناهى إلى أسماعي أحاديث سهرات المراهقَين عدنان وخالد، دون أن أتعمد الإصغاء لما كانا يتبادلانه من أحاديث متنوعة ومختلفة. وذلك بحكم أن موضع مكان رأسي كان قريباً من رأسيهما، بسبب وضعية النوم المتخالفة. كانت أعمارهما كما قدرت وقتذاك، لا تتجاوز السادسة عشرة بحال. كان عدنان أصغر قليلاً، والأكثر سذاجة بينهما. ما يتيح لخالد أن يظل في موقع المُفَسِّر والمجيب عن أسئلة صديقه، معجباً بنفسه وهو في موقع الخبير العليم، بكل شؤون الحياة التي لا يعرف عنها عدنان الكثير.

وذات ليلة، كان يتناهى إلى أسماعي ذلك الحديث المهموس، حيث تناهى إلى سمعي همس عدنان مُسائلاً:

– وهل تعرفتَ إلى فتيات؟

– مرة واحدة فقط. ومرة أخرى كانت حباً من طرف واحد.

– لم تتحدث إليها أبداً؟

– أبداً. ما كنت لأجرؤ.

– والتي تعرفتَ إليها. هل قابلتها كثيراً؟

– كثيراً. وتبادلنا الأحاديث أكثر.

– وماذا فعلتما أيضاً؟ لمست يدها؟

– أكثر.. أكثر.

– قبلتها؟

– مرتين.. حدث ذلك بسرعة، ولقد هربتُ منها من شدة ما تملكني الخوف.

– أراهن أنك قبلتها من الخد كما يقبلون الأطفال.

– للأسف صحيح. فأنا لا أعرف كيف يقبلون النساء من الشفاه.

– وأنا مثلك. كما أنني أعتقد بأن التقبيل من الشفاه أمر سخيف وغير عملي.

– ماذا تقصد بقولك غير عملي؟

– أقصد. أشعر بالقرف من مجرد استعمال فرشاة أسنانها، فكيف يمكنني أن أقبل الفم؟ ذلك مثير للاشمئزاز. ثم إنني أتساءل: أين يمكن

أن يذهب الأنفان أثناء التقبيل؟ وكيف يجدان لهما مكاناً ولا يتصادمان؟

– هل تعلم؟

– ماذا؟

– حديثنا هذا، كله حرام بحرام؟

– لماذا هو حرام؟

– لا أدري. هكذا. لأنها أحاديث عن الشهوات، ونحن مقبلون غداً أو بعد غد، على أن نُحاكم في محكمة ميدانية عسكرية، قد تحكم علينا بالشنق. وقد نستيقظ صباحاً، ونحن كلانا على جنابة من تأثير هذا الحديث الشيطاني.

– هذا ليس حديثاً شيطانياً.

– كم أتمنى وأشتهي صحن سحلب حار في هذه اللحظات. سأدعو الله أن يبعثه لي من باطن غيبه.

– الله ليس بائع سحلب أيها الغبي. وهذا ليس حديثاً شيطانياً.

– بل هو شيطاني. كل ذكْرٍ خلا من ذكر الله فهو شيطاني.

– شيطان يلبسك إن شالله.. أفسدت السهرة.

بعد سنوات مضت على افتراقي عن عدنان وخالد، سمعت بأن المحكمة الميدانية قد أبدلت حكم الإعدام الصادر بحقهما، بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة.

هذان الفتيان المراهقان كانا جزءاً من مجموعة من الفتيان، بعضهم أحداث في العمر، وبعضهم شبان يافعين. كانوا جميعاً يسمونهم "مجموعة علي فرمان". ولقد تحدثوا في المهجع، وقيل كثيراً عنهم بأنهم كانوا شرسين قساة، وأنهم ردوا على الفظاعات التي ارتكبتها قوات الجيش والمخابرات السورية، بفظاعات مثلها أو أفظع منها.

تأملت مجموعة علي فرمان واحداً تلو الآخر. كان ثمة شيء في المشهد لا يخلّف الانطباعات التي تخلفها منقولات الأحاديث المتداولة. إذ شتان ما بين منظرهم وما يشاع عنهم. ياسر بابللي، وهو أبرز رموز المجموعة، أوحى إليَّ بالصورة النمطية للمسيح، في لوحات فناني القرون الوسطى: الشقرة الشديدة المخضوبة بالبياض والحمرة الشديدة، بالشباب والصحة الوافرة، والعينين الواسعتين، والطول الباذخ والكتفين

العريضتين. إنه أمتن صلة وأقرب إلى عارض أزياء. أو ممثل استعراضي على المسرح، بالغ الفتنة والجمال.

كيف تمكنت هذه المجموعة من تشكيل حاجز بثياب وحدات خاصة باللباس المموه؟ كيف استطاعت خطف أحد ضباط مخابرات النظام، واحدٍ مِنَ الذين شاع بأنه من أقسى الجلادين، الذين يعذبون السجناء المعتقلين في فروع الأمن؟ وكيف استلوه، وهو داخل سيارة زملائه من جلادي النظام؟ وكيف أبرزوا له أمراً أمنياً مزوراً بمرافقتهم؟ وكيف اقتنع بأنهم بعض رجال الدولة الأمنيين، في مهمة خاصة؟ ثم كيف استطاعوا الخروج به خارج المدينة، حيث ربطوه ولفُّوا جسده بالمتفجرات وفجروه؟ حتى أنه قيل فيما بعد، بأن جثته قد تبخرت في الهواء، ولم يبقَ منه أثرٌ يدل عليه.

قيل كل ذاك، ورويتْ أشياء كثيرة عن تلك المجموعة التي كنا نصطلح على تسميتها بجماعة علي فرمان. محمد العزيزي. الذكي والقوي والجريء. وابن القرية المفرط في استجابات التحدي إلى حدود الشموخ القصوى. شقيقه الآخر علي، الذي يمثل الوجه الآخر المعاكس، والمقابل له. ابن القرية البسيط الساذج والأمي، والذي لا يكاد يشبه شقيقه في شيء.

ذات مرة رأيت جمعاً صغيراً في المهجع يتسامرون متحلقين معاً. سمعت علياً، الهادىء الطيب البسيط، يسأل:

– وهل أخوه لسيدنا يوسف اسمه "نكتل"؟

ومحمد يجيب بفظاظته المعهودة التي هي طبع عادي فيه:

– ومن قال لك إن الأخ الشقيق لسيدنا يوسف اسمه "نكتل"؟

قال علي:

– اي.. الآية القرآنية مو بتقول: "قالوا يا أبانا مُنِع منا الكيلُ فأرسلْ معنا أخانا نكتل"؟معناها أخوه اسمه "نكتل".

يجيب محمد:

– ولك يا جحش، نكتل هاي فعل مجزوم من كال يكيل..

أتأمل علي فرمان، الذي كان غالباً ما ينزوي جانباً، ولا يخالط الآخرين، إلا لماماً ونادراً. أقترب منه يوماً بعد يوم، وتنشأ بيننا ما يشبه الصداقة الوثيقة. علي فرمان لا يشبه سمعته التي سبقته إلى المهجع 27، ولا يشبه ما قيل وما راج عن مجموعته من فظاعات وجدارات،

وقوة تحدٍ نادرة في وجه السلطة التي حولت حلب وشوارعها إلى ساحة قتال، تشتعل في كل جنباتها المعارك. علي نحيف، دقيق الملامح، هادىء الحركة، دائم الابتسامة بحزن طفيف. صوته لا يكاد يُسمع لرقته ودقته. لقد كان مفرطاً في العذوبة إلى درجة التعجب كثيراً من المشهد المتناقض، فلا تكاد ترى إلماعة فيه ترهص بشراسته وقوته. أو رغبة في تمثيل الشاب القوي، أو لعب دوره.

في جماله الذي يشبه تمثالاً من الشمع ناصع البياض، أو موديلاً فنياً نادر الواقعية. وفي صوته الخجول الذي يشبه الهمس، ما يطبع في النفس طبعة تنفي تلك الروايات وتلك الحكايا، التي تشاع عنه وعن مجموعته. ولقد قال لي يوماً:

– لو لم يعترف علي شباب مجموعتي في التحقيق، لما نالوا مني كلمة واحدة، رغم كل فنون التعذيب التي مارسوها عليَّ. ولما ظفروا بأي اعتراف. سامح الله الشباب. لم يحتملوا المزيد من التعذيب. وليس لديك فكرة عن أهوال التعذيب التي تعرضنا لها أثناء التحقيق في ثكنة هنانو. أعلم علم اليقين أننا سنُعدَم قريباً. خصوصاً أنا وياسر بابللي. الله يرحمنا برحمته. لست نادماً على شيء، ولو خرجت اليوم خارج أسوار تدمر لفعلت أكثر مما فعلت. ولا يكون إلا ما شاء الله.

بعد أشهر من هذا الحديث، وكلما تأملت ذلك الوجه الملائكي لياسر، والمُحَيا المَهيب لعلي فرمان، أتحسس موجات الدخان التي تتغشى ذاكرتي. هل يعقل كل ذلك؟ وهل هو ضرب من حلم يقظة عابر، أم كان كل ذلك حقيقياً. بل وحقيقياً أكثر مما يجب؟ وكيف سار شباب تلك المجموعة جميعهم إلى المشانق؟ وكيف انطوت ذكراهم إلى الأبد، كأنهم لم يكونوا يوماً شيئاً مذكوراً؟

انطوى علي فرمان وياسر بابللي، مثلما انطوى الشقيقان محمد العزيزي وأخوه علي، مثلما انطوى قبلُ في ثنايا التاريخ، النبي يوسف وأخوه "نكتل". ومثلما انطوى يعقوب والأسباط معهما. وظلت منهم سيرة وذكرى، في صحف الكتب المقدسة.

تماماً، وكما انطوت أسطورة علي فرمان ورفقائه، في ظلمات تاريخٍ لن تُفتح صفحاته وسردياته يوماً ما، لتروي عنهم وعن بطولاتهم، وعن شبابهم الغضّ الذي راح وهو في الريعان، وعن صلابتهم الأسطورية التي

غابوا فغابت، وبانوا فبانت. ولم يبق منها ومنهم إلا موجة ذكرى، كموجة دخانٍ في الرأس تمور وتتبخر. وتوشك قريباً أن تتبدد في الهواء إلى الأبد.

– 4 –

تعرفنا على حمام السجن في تدمر ثاني أيام وصولنا، ووضعنا في المهجع 27. كان الحمام فظيعاً وعجيباً، إلى حد لا يكاد يتصوره عقل إنسان قط. صدرت لنا الأوامر داخل المهجع بأن نتعرى من كامل ثيابنا نهائياً، حتى تلك الداخلية التي تستر العورات، وأن نصطف طابوراً على شكل رتل أحادي، ونحن مغمضو الأعين، مترادفون كسلاسل مقطورات قطار، يجر بعضُها بعضاً. ولم نكن نعلم أن المسافة التي ينتهي عندها حمام السجن، تبعد بحدود مئتي المتر عن الباحة السادسة، حيث نحن.

كان الوقت في أربعينية الشتاء، والبرد على أشد ما يكون. لبثنا نرتجف كما ترتجف ورقة شجرة صفراء يابسة في مهب الريح. وحين انتظم صفنا خلال الباحة، ألفينا كامل سرية التأديب من عناصر الشرطة العسكرية، تحيط بنا من جانبي قطارنا البشري، المؤلف من حوالي مائة وخمسين إنساناً، وفجأة وثبوا تجاهنا وثبة واحدة، وهجموا بالسياط هجوماً في حركة تدربوا عليها، فيما يبدو، طويلاً، وبدأت السياط تنهال مثل زخ الصواعق النارية فوق الظهور والاعناق والرؤوس والأعين، وقد أمرنا أن نتابع السير حتى الحمام.

الحمام كان عبارة عن مقصورات قديمة، يوحي منظرها العتيق المكتئب، وكأنها تعود إلى عصر سابق، أشبه بحمامات العصور الحجرية، وقد تدلى من أسقف المقصورات، فتحات معدنية صدئة تصب ماءً مغلياً. ولقد كانت ذروة المفاجأة أن نرى بعضنا عراة بالكامل، ونتعرف على أعضائنا التناسلية رأي العين. كما ضاعفت حرارة الماء الحار، من عذابات البرودة التي كادت أن تقتلنا خارج الحمامات.

خلال ثلاث دقائق أو أقل، انتهى الوقت المخصص للاستحمام. بعضٌ منا لم يتح له، حتى أن يبلل جزءاً من مساحة جسمه. وصدر الأمر للجميع، بأن الحمام قد انتهى. وأن علينا أن نعاود الاصطفاف ثانية، استعداداً وانتظاراً لرحلة العودة إلى المهجع، وبنفس الطريقة التي

بدأناها أثناء رحلة الذهاب. ولقد كانت رحلة العودة مع عاصفة الكرابيج المتلاحقة، خلال أكثر من مائتي متر، تعدل أضعاف رحلة القدوم، بعد أن تبللت الأجساد بالماء الحار، وانتفش الجلد من رطوبة الحرارة، وبعد أن لفحته برودة الجو الصقيعي، خارج الحمام، حيث كانت درجة الحرارة تقارب الصفر تقريباً أو أقل.

في الباحة الثانية، أو باحة الحمّامات كما تسمى، وعلى الجدار الأيمن بجانب الباحة، تطالعك عبارة مكتوبة ومخططة بخط رديء جداً، على خلفية دهان قذر متسخ، يعطي انطباعاً وكأن العبارة كانت موجودة قبل وصولنا إلى سجن تدمر بزمن طويل.

العبارة حجمها بحجم الشعارات الانتخابية. أكثر من ستة أمتار طولاً وعرضاً. لكأنها واحدة من دعايات انتخابات رؤساء الجمهوريات. ولكن فهمنا في ما بعد أن مثل هذه العبارات لا يكتبها إلا البلديات. والبلديات هم مهجع سجناء قضائيين وحيد في السجن العسكري المخصص للسياسيين. كان مهجع البلديات موجوداً بداخل السجن لغرض العمل في الخدمة العامة، للمخبز والمطبخ وتنظيف أواني الطعام وغير ذلك.

وكانت العبارة الشعائرية الغريبة، في هذا المكان الغريب وغير المتوقع ، تشبه الكوميديا السوداء المضحكة ضحكاً يعمق الحزن فينا ويستثيره. كأنها شتيمة من مجهول موجهة إلى المجهول أيضاً.

(رئيس الورشات)، كما ينادونه، كان عادةً شخصية ذات نفوذ واستطاعة، وكان يُنتقى دائماً من السجناء العلويين القضائيين، أو سجناء مدعومين من واسطة ثقيلة. ويعامل باحترام وخشية، تعادل الخشية التي يعامل بها رقيب أول في سرية حفظ النظام، التابعة للشرطة العسكرية في السجن.

من المؤكد أن أصل الكتابة على جدار الحمّامات، يعود لتاريخ إحدى المناسبات الكثيرة، التي كانت السلطة تحتفي بها، (حركة تصحيحية. 8آذار.)، ومن المؤكد أن العبارة قد كتبت بالأصل: (لن تموت أمة قائدها حافظ الأسد). فقد كانت عبارة "حافظ الأسد"، هي أدنى من العبارة السابقة لها، ويمكن كتابتها أو إزالتها دون الاضطرار إلى استعمال سلم لهذا الغرض، نظراً لقياس الجملة الكبير الحجم، ومن المؤكد أيضاً أن أحد رؤساء الورشات – رؤساء البلديات – قام بطلي كلمة حافظ الأسد

من على الجدار – وهذا يدلل على أنه مدعوم، وغير خائف من أية مساءلة – وكتب اسمه، فرحاً وانتصاراً بتعيينه رئيساً لورشة البلديات.

وفوق الدهان الجديد الذي طمس اسم حافظ الأسد فوق الجدار، كتب اسمه هو، ومنصبه الجديد: (رئيس الورشات أحمد سعيد)، وذلك بخط وطريقة شبه أمية وساذجة. وهكذا أصبحت العبارة تنتمي دعائياً إلى مرحلتين: مرحلة سابقة، وهي زمن كتابتها على الجدار، ومرحلة استلام رئيس البلديات منصبه الجديد. بحيث أصبحت العبارة بشكلها الجديد: لن تموت أمة قائدُها رئيس الورشات أحمد سعيد.

ولعل أحمد سعيد المذكور، لا يعلم بكل تأكيد، بعد عشرات السنين، أن لوحته الجدارية، أو شعاره هذا، قد حفظه الزمن لعشرات السنين، فقد زامنت تلك العبارة عصراً وربما أجيالاً. وحفظت بعض ذكريات المرحلة، ولربما أيضاً لا يزال بقايا عبارته، التي تسطر تاريخ استلامه لمنصب رئيس ورشات السجن، مخطوطاً حتى اليوم على جدار باحة الحمَّامات، أو الباحة الثانية.

كلما زارنا الموت، حتى لو أقبل في ثوب صديق، كان شيءٌ فينا يتوسل اليه: أمهلنا بعد. ليس الآن.

وبعد العودة.. وقتٌ قصيرٌ مضى، ألفنا عادة تكرار عادة السير على حافة الموت. تلك العادة التي كانوا يدعونها في تدمر بالحمام، وبعد زمن مضى علينا في المهجع 27، لم أعد أذكر هل كان بضعة أيام، أو أسابيع أو أشهر، سمعت العجوز أبا إبراهيم ونايف يتجادلان، ونحن راجعون لتونا من الحمام.

كان أبو إبراهيم يقول:

– لن يبرد هذا السعير الجهنمي حتى يلتهم أرواح عشرات الآلاف منا.

– يكفي موتانا أنهم شهداء. يكفيهم أن الشعراء سوف يرثون أرواحهم بأروع القصائد في المستقبل. وسوف يطرون ذكراهم بالأناشيد والمدائح.

– أتسخر من قولي؟ هذا العالم هو نور الحضارة المشع. ولا يمكن أن يضيئه سفاحون وقتلة.

– يالها من عبارة رائعة. تصلح لأن تدون ضمن مبادئ نظرية لحزب جديد.

وضحك أبو ابراهيم:

– تقصد حزب قومي واشتراكي جديد.! أنت دائماً ما تكون محقاً، وتقول كلاماً جيداً. ولكن بعد مغيب الشمس فقط.

أجابه نايف:

– الغلط يتفوق على الصحيح كثيراً. حتى في العقول الناضجة والراجحة.

كان ذلك بعد مضي إعدام مجموعة علي فرمان بأيام قليلة. وحين مرت ذكراهم بشكل عارض، سمعت أبا إبراهيم يقول:

– إن هم إلا مجاميع من الصبية المراهقين. يتشاجرون على الطعام وفتات الخبز طوال النهار.

قلت مستاءً:

– أما أنا فلا أحب أن أتذكرهم أو أتخيلهم إلا شهداء. لا سفهاء.

– أنا كنت أعني بكلامي كل هؤلاء الأحداث والمراهقين، الذين ازدحم السجن بهم أكثر من الرجال البالغين.

قلت:

– وأنا إنما كنت أعني بقولي هذا، علي فرمان وياسر بابللي.

– هاه.! ظننتك تتحدث عن مهجع القاصرين والأطفال.

– بل أتحدث عن الجميع دون تمييز. نحن الجزار، ونحن لحم الخروف. حين يتماهيان في جسد واحد، وفي توقيت واحد. وعلينا أن نمثل أربعة أدوار في آن واحد: الشاهد والشهيد، والضحية والبطل.

كان ذلك الحوار قبيل الليلة التي بتنا – فيما بعد – نسميها ليلة إعدام مهند وفائي.

عرفت الشاب الحلبي الجميل، مهند وفائي، في الباحة السادسة في المهجع 27، منذ اليوم الأول لوصولنا إلى سجن تدمر. عشنا معاً بضعة شهور قبل أن نفترق، لقد كان شاباً صغيراً، في حدود السن القانونية، سن الثامنة عشرة من العمر. وكان يدرك مثلما يدرك كل من في المهجع، أنه لن ينجو من حكم وعقوبة الإعدام، ما إن يُقدم إلى المحكمة الميدانية فحسب. ولقد قُدم للمحاكمة فعلاً، وحكم بالإعدام كما توقع وتوقعنا، ولم يكن في الأمر أية غرابة أو مفاجأة.

لكن ما حدث يوم تنفيذ الحكم فيه، كان هو المفاجأة الصادمة وغير المتوقعة.

- 5 -

بدأت حفلة تنفيذ أحكام الإعدامات ليلاً في الباحة السادسة. وكانت تجري مرة أو مرتين كل أسبوع، مع اختلاف في عدد المحكومين في كل مرة. وراح عناصر الشرطة ينادون على أسماء المحكومين من خلال (شراقات) الأبواب الحديدية. كانت العبارة التقليدية المألوفة لكل اسم يُنادى عليه فيجيب بـ" نعم حاضر" هي:

– ضب غراضك ولاه، واقطع صلتك بالمهجع.

أو: (رئيس المهجع ولاه، قلّو يضب غراضو، ويقطع صلتو بالمهجع). كانوا يرددونها بنفس الآلية والرتابة خلال سنوات، كأنما حُفِّظوها عن ظهر قلب، وكنا نعلم أن هذي العبارة، حين ينادى عليها في الهزيع الأخير من الليل، تعني حرفياً: "جهز نفسك واستعد لتنفيذ الحكم بالشنق بعد قليل".

حين نادوا على اسم مهند وفائي، رد أحدهم من أحد المهاجع بـ" نعم حاضر"، فتم إخراج الشاب الآخر، المدعو هو أيضا مهند وفائي، إلى الباحة، حيث وضعت عصابة على عينيه، وكلبشات في كفيه المشتبكتين إلى الخلف، وأخذوا الشاب الآخر، ومضوا به الى الباحة السادسة.

ارتاب الشاب الذي أخذوه فوراً بالخطأ الفادح الذي التبس باسمه، وجعل يصرخ وينادي:

– سيدي أنا بريء.. سيدي أنا لسه ما تحاكمت، أكيد في غلط سيدي، سيدي أنا ماني عامل شي..

والشرطي يكتفي بجره بالقوة والرد عليه:

– خراس ولاه، سد تمك أحسن ما سدلك ياه..

وحين وصل الشرطة المتفرقين في كل الباحات، إلى باحة الإعدام (الباحة السادسة)، وكل مجموعة منهم تسوق أمامها بعضاً من قائمة الأسماء، التي كلفت بإحضارها من المهاجع، سمع مدير السجن ومساعد اليومية وكل قيادة السجن ورؤساء المحكمة، المكلفين بحضور تنفيذ الأحكام، سمعوا الشاب الذي كان يصرخ ملء صوته:

– والله أنا بريء يا سيدي. والله لسه ما تحاكمت يا سيدي. تأكدوا من اسمي اذا بدكن.!

اقترب المساعد، مسؤول الخدمة اليومية في ذلك اليوم، من الفتى، وسأله:

– شو بدو هادا؟ ليش عم تقول انك بريء ولاه؟ شو اسمك انت؟

أجاب الشاب:

– مهند وفائي يا سيدي

– واسم أبوك؟ وأمك؟ والمواليد؟ ومكان الولادة؟ والخانة؟

– ... كذا..

– هممم..! اسم الأب مختلف، واسم الأم كمان..

– الأم فلانة يا سيدي

– هممم..! كل المعلومات: الاسم مختلف.. المواليد.. تاريخ الولادة.. رقم القيد.. كلو مختلف.. هادا ما هوه.. ولاه..! ولك يا شرطي يا جحش، إنت واياه.. ولاه كيف جبتو واحد غيرو وما انتبهتوا؟

– سيدي نادينا مين مهند وفائي.. رد هو قال: أنا.!

– روح بسرعة يا حمار أنت وإياه، روحوا دوروا لي على اللي اسمو مهند وفائي غير هذا..

أسرع عناصر الشرطة نحو الباحات كلها. وبدأت عملية سؤال دقيق، وبحث جديد عن مهند وفائي المطلوب. وراحوا يكررون السؤال مرة أخرى عن مهند وفائي. وبعد قليل عادوا بـ (مهند وفائي الأصلي)، فقال مساعد الخدمة اليومية:

– جيبوه للصف مع جماعتو.

سأله أحد عناصر الشرطة:

– سيدي.. وهادا اللي جبناه بالغلط.. شو نسوي فيه؟

أجابه ببرود:

– اعدموه كمان معهن.. ما ترجعوه على مهجعو بعد ما شاف عمليات التنفيذ. وصار مطّلع على تفاصيل الإعدام، وعرف كلشي.

هكذا تم إعدام مهند وفائي الأصلي، ومهند وفائي الملتبس بخطأ تشابه الأسماء.

في هذه المرحلة شهدنا حدثين، سيظلان عالقين في الذاكرة لفترة طويلة من العمر: الأول هو حادث انفصالنا، نحن المجموعات التي تمت محاكمتها في المحكمة الميدانية الأولى في المزة، عن المجموعات التي كانت

تعرض على المحكمة الميدانية الثانية في سجن تدمر نفسه، والتي كانت برئاسة اللواء سليمان الخطيب. وبعد إجراءات العزل هذه، تم تجميعنا في مهاجع الباحة الثانية، أي باحة الحمامات نفسها، وذلك في المهاجع 9 و10 و11. أما الحادث الثاني، فقد كان لافتاً اختفاء أحد أبرز عناصر سرية الشرطة العسكرية في سجن تدمر، وهو العريف المشهور في كل السجن باسم علي شعبان.

هل من الممكن أن تنتصر الضحية على الجلاد؟ وهل يُعقَل أن يستسلم الكرباج ويعلن هزيمته أمام الآلام؟ وهل تقف أنشوطة المشنقة بخشوع وتبتل واستسلام إزاء الأعناق التي تضغطها حتى صعود الروح؟ واليوم، بعد آلاف السنين، من الذي انتصر أخيراً.. أيوب أم يهوه؟ أيوب أم أمراضه وآلامه؟ جلادو داعش، أم الأعناق التي انفصلت عن أجسادها؟ حافظ الأسد أم اللحوم الممزقة التي تناثرت في الباحة السادسة، في سجن تدمر وظلماته؟

يبدو ظاهر الأسئلة، وكأنها استرسال تعبيري يمتح من قصائد متحمسة، أو إنشائيات مُحَفِّزة للوجدان العاطفي، لكنني في أحد مراحل شروط إنتاجها أعتبرُها قانوناً علمياً ثابت التحقق وراسخ البرهان. وكمثالٍ أستشفُه استشفافاً خاصاً، ما أزال أستذكره وأستخلصه، من خلال رحلة المعايشة مع العريف علي شعبان: أحد أشهر جلادي سجن تدمر.

يبدو لي – كانطباع أولي – أن هذا العريف كان (مدعوماً) بصورة خاصة كما يقولون، وله نفوذ وصلاحيات، ربما كانت غير رسمية، وربما كان لموقعه العائلي، أو لقراباته من النفوذ والهيبة، ما يجعل إدارة السجن، ممثلة برئيسه المقدم فيصل غانم، وبالمساعدين القدماء، ذوي الصلاحيات شبه المطلقة، ما يرغمهم على أن يتغاضوا عنه.

حتى لباسه الرسمي أثناء الخدمة كان فيه شيء مختلف وغير رسمي. إذ كان أنيقاً، فخم المظهر بصورة مبالغة. يقلد بمظهره الخارجي اللباس العسكري لجنرالات أو ضباط في مستوى رتبة عميد أو لواء.

كذلك كان له من الصلاحيات والتفويض، ما يشبه تفويضاً مطلق التصرف، ربما بإيحاء صامت وغير رسمي، بأن يتصرف مع السجناء كما يحلو له ويشاء. فهو يعذِّب السجناء، بمزاج من لا يفكر في الرجوع إلى قيادة أعلى منه، أو تلقي تعليمات وأوامر، ممن هم في موقع الأقدم والأقدر على

امتلاك قرار التصرف. ولقد كان يمنح من كميات الطعام ومخصصات اللحوم والدوسير لكل مهجع، بما يرغب به، ويراه هو فقط، ودون استشعار بمسؤولية الرقابة الصارمة، التي تقيد كل حركة وسلوك السجانين.

أكثر من كل ذلك كان العريف علي شعبان، يمتلك من الجرأة بحيث أنه قد يفكر في إخراج مهجع من المهاجع للتنفس في الباحة، وفي الوقت الذي يريد، ومدة الزمن الذي يرغب به. مع العلم أن مفاتيح باب أي مهجع كانت محصورة برئيس نوبة اليومية، فكل تصرف وكل خطوة، يمكن أن يقدم عليها أيٌّ من سجاني سجن تدمر، كانت محسوبة ومضبوطة بأوامر عليا. ولا مجال مطلقاً لأي تصرف فردي، أو قرار متروك لهوى فرد في سرية الشرطة العسكرية الخاصة بالسجن، كائناً من كان.

ففتح الأبواب وإغلاقُها، كان مراقباً ومسدَّداً بأوامر دقيقة. ولا يحدث إلا بأمر ومهمة محددة، يعاد بعدها المفتاح إلى مكتب اليومية، مع توقيع كتابي أو شفهي، يؤكد بشكل رسمي، على خلاصة المهمة في اليومية، بداية ونهاية. إن أي تلاعب في هذه الشكليات البسيطة، وتجاوز دقتها قد يودي بالشرطي أو العريف أو الرقيب إلى التهلكة، أو على الأقل قد يعرضه لعقوبة قاسية.

خلال السنة الأولى، كان العريف علي شعبان، طافحاً بروح الطائفية الحاقدة على كل السجناء، لكونه من الطائفة العلوية، وكان معدوداً في السجن، كواحد من أقسى الجلادين. كان سادياً مثل كل عناصر سرية السجن المنتقاة بعناية، لتؤدي وظيفة واحدة لا ثاني لها؛ وهي أن تمارس أقصى ما يستطيعه إنسان من التعذيب والتنكيل ضد إنسان آخر.

بعد عام 1982، وبتحديد أكثر، بعد مجزرة مدينة حماة الشهيرة، بدا جلياً أن تغيراً كبيراً ومفاجئاً طرأ على طبيعة العريف علي شعبان، فلم يعد سراً على جميع مهاجع السجن، ذلك التغير الطارئ والمفاجىء، الذي تغشى سلوكية هذا العريف. لا أحد يستطيع اليوم أن يحدد دوافع هذا التغير. لقد بات العريف من بعد ذلك التغيير الطارئ، يسن قوانين جديدة، قوانين خاصة به في التعامل مع السجناء:

– ارفعوا روسكن ولا تخافوا. تنفسوا براحتكن. اللي بدو يشمس تيابو وبطانياتو يشمسها. اللي بدو يلعب رياضة يلعب. تنفسو بحريتكن ولا تخافو.

أحياناً كان يتدخل أحد العسكريين من الشرطة المرافقين له، إما معترضاً، أو منبهاً له:

– سيدي، ليكو هادا. هادا مبين عليه أخو قحبة.

يجيبه العريف علي شعبان عادة، وبصوت خفيض يحاذر أن نسمعه:

– والله ما حدا أخو قحبة غيرك، انت ومعلمينك اللي جابوا هالعالم هي لهون. هدول كلهن دكاترة، مفروض يكونوا بالعيادات والمشافي. هدول أساتذة وطلاب جامعات، مفروض هلق يكونوا بمدارسن وجامعاتن.

يرد الشرطي:

– سيدي لا تصدقن كلهن أخوانجية عرصات.

فينهي النقاش المتبادل بينهما بكلمة حاسمة:

– خراس واسكت..! انت واحد كلب.

أصبح سلوكاً يومياً مألوفاً للعريف علي شعبان، أن يفتح باب المهجع وينادي:

– رئيس المهجع 10. ابعث السخرة عالساحة الثالثة. فيه جاط مليان لحمة، وجاط فواكه، روحوا جيبوه بسرعة ودخلوه لمهجعكن.

كنا نعلم يقيناً أن أبا شعبان، (كما أصبحنا نناديه)، قد استل تلك الجاطات، أو اختلسها من بعض حصص البلديات، أو العساكر القضائيين، أو حتى من مخصصات الطعام الخاصة بالشرطة، عناصر السرية. وهو على علم ويقين تامين، بأن كل فائض المخصصات الزائدة في التقدير، في كميات اللحوم والطعام والدوسير، سوف تنتهي بأن ترمى في حوايا القمامة، أو ترمى لكلاب الشوارع السابلة، ولن يفكر أحدٌ في توزيعها على المهاجع، التي هي في أمسِّ الحاجة إليها، في تلك المجاعة المبرمجة والدائمة.

ولقد أصبحت المودة ولغة التعاطف الصامتة، بين كل مهاجع السجن، وبين العريف علي شعبان، سلوكاً يومياً مألوفاً وَسَمَ مرحلة من مراحل السجن بوسمه الذي لا يُمحى من الذاكرة.

في حوالي نهاية عام 1983، اختفى العريف علي شعبان من السجن. وأثارت غيبته وانقطاعه المفاجىء استغرابنا وتساؤلاتنا، ولست مبالغاً لو قلت؛ ربما خشيتنا عليه، ولكن بعد مدة من الزمن، بدأت الروايات تترى

حول سر اختفائه. كانت الروايات متضاربة ومختلفة قليلاً أو كثيراً(حتى اليوم). لكن الجامع المشترك في كل الروايات التي سمعناها، والتي باتت في حكم المؤكدة، أن العريف علي شعبان قد هرَّب بعض مساجين سجن تدمر، وهرب معهم. ثم قيل بعدها أنه أصبح خارج البلاد.

– 6 –

كان يومنا الأول في المهجع 10، كثير المفاجآت. شديد الإثارة. فقد تم اجتماع أصدقاء شتى، بعد أن تفرقوا عقب الوصول إلى تدمر. استيقظت فينا الرغبات بأن نتعرف بأصحاب جدد، وحفل اللقاء بعد انتقالنا إلى المهجع 10، بالتعرف على صداقات جديدة. وكان لافتاً للانتباه وجود شخص ذلك المساعد في الجيش، الذي اعتاد الجميع أن ينادوه بلقب أبي علي البحري. (اسمه الحقيقي محمد علي فاتح)، ترى هل لأنه كان ضابط صف متطوعاً في سلاح البحرية؟ أم لأنه كان من سكان الساحل، ومن عشاق البحر الذين لا يعرفون جاراً ولا حبيباً غيره؟

أبو علي البحري يجذب الانتباه مباشرة بهيكله الضخم. فهو رجل طويل القامة جداً، عظيم الرأس والهامة، عبلُ الأطراف كالمصارعين، ومكتنز اللحم، في مظهر عملاق جبار، يشد الأبصار شداً نحوه، لكأن رؤيته تُذكر بأبطال الأساطير الذين لا تتجسد ذكراهم، إلا وهم يقاتلون تنيناً، أو وحشاً خرافياً.

رغم ذلك، كان مثيراً لدهشتنا جميعاً، أن تبدى هذا العملاق الهائل الجثة، في مظهر رجل مرعوب دائماً. ويصعب كثيراً أن يُستوعَب أو يُفهَمَ سبب اضطرابه وخوفه البليغ. منظره يكاد ينطق بضراعات ورجاءات، لكل من كان حوله من السجناء، ودعك من خوفه من الشرطة، حين تُسمع أصواتهم وهم مقبلون نحو الساحة، فتجحظُ عيناه، ويكاد قلبه أن يقف من شدة الوجل والذعر.

ومنذ اللحظات الأولى، التف حوله رهط من سجناء المهجع 10، وراحوا يسائلونه مستفسرين عن وضعه المريب الغريب. ولقد كان مفاجئاً له، أن قال له أبو محمد طماشة:

– كنت تعمل عسكرياً في قوات البحرية؟ ما رأيك إذن أن تتعرف،

وجهاً لوجه، على ضابط كبير، من أبرز وألمع ضباط البحرية؟

قال أبو علي البحري، وقد فغر فمه، وجحظت عيناه المرعوبتان من الدهشة:

– ضابط في البحرية؟ هل قلت ضابط كبير في قوات البحرية؟

قال أبو محمد طماشة:

– نعم. وما الغرابة في الأمر؟ بل لعله أكبر ضابط ربما تصادفه في حياتك. إنه المقدم الركن عبد الله شاكر. أسمعت باسمه من قبل؟

– وكيف لم أسمع به؟ شهرة المقدم الركن عبد الله شاكر، أكبر من أن تخفى على أحد في القوات البحرية.

– إنه رئيس رئيس رئيسك. والآن سوف تصبحان زملاء معاً في مهجع واحد.

فالتفت طماشة ناحية المقدم عبد الله شاكر، وهتف باسمه منادياً:

– يا زميل..! يا زميل عبد الله..! يا أبو عمار.. تعال. تعال. هذا مساعد يمكن كان يخدم عندكن بالبحرية، أو بيشتغل مدري وين. محل ماكنت تشتغل انت. وما بعرف إن كنت سمعت به، أو تعرفه من قبل؟

اقترب المقدم عبد الله شاكر من أبي علي البحري، والجمع المتحلق حوله. وراح يسأل بطريقة متثاقلة، جادة ورصينة، لا تناسب طبيعته المرحة دائماً، عن القطعة التي يعمل فيها أبو علي البحري، والمهام والمواقع التي تنقل بينها، ومن كان معلمه؟ ومن هم قادته العسكريين. أبو علي البحري استوى معتدلاً في جلسته، من شدة الرعب والرهبة. وبين كل جملتين كان ينطقهما، كان ما ينفك يردد عبارته بطريقة لفظ فخيمة: "سيدي المقدم"..

هنا بدا التململ والغيظ على ملامح المهرب العجوز، أبي محمد طماشة، الذي بادر مقاطعاً الحديث بين المقدم والمساعد، فيما يشبه النرفزة:

– أبو علي يرضى عليك. نحن هون كلنا مساجين، ما حدا أحسن من حدا، ولا حدا لساتو شايل رتب ونياشين وألقاب. الشغلة ما بدها لا سيدي المقدم ولا سيدي البطيخ. ناديللو يا زميل أبو عمار. ناديلو أبو عمار وبس، انتو اليوم رفقات وصحبة سجن مانكن رئيس ومرؤوس..

فبدا الانزعاج والغيظ على وجه المقدم عبد الله شاكر، من ملاحظة طماشة الأخيرة. فالتفت إليه يقول:

– أبو محمد يرضى عليك لا تتدخل بيني وبين عناصري. ياخي مين كلفك توعي الناس وتنور بصيرتهن. هاه؟ خليه جاهل وغافل. خليه ياخي على راحتو، يخاطبني برتبتي. وخلينا شوي نحس بقيمة الرتبة، وبوقع صدى كلمة سيدي وسيدي.. وهالشغلات هي..

– ما بدها يا أبو عمار. مافي حدا هون بالمهجع بينقال الو سيدي، ومافي حدا هون الو رتبة عسكرية. نحن هون كلنا زملاء قاووش، حبيبنا أبو عمار. هي سيدي الركن وسيدي خرى الكلب، انسالي ياها يرضى عليك.

– ولك يا أبو محمد طماشة أنت شو علاقتك بهيك مواضيع. هو الزلمة بطبيعة الحال شغلة يومين تلاتة مو أكتر، من حالو رح يتفتح لحالو، ويصير مُطّلع على الحقيقة. أنت ليش بدك توعيه، وتفتح بصره وبصيرتو على حقائق الأمور. ما بعرف.؟ خليه جاهل على فطرتو يا أخي..!

– يا أبو عمار ما بصير يا أخي.! لازم الزلمة يعرف. الزلمة متل مانك شايف، باينتو غشيم وعلى باب الله، مو عرفان الله وين حاطو، ولا عرفان شي. انت هون اسمك أبو عمار، مو سيدي المقدم الركن.

التفت المقدم عبد الله شاكر إلى أبي علي البحري:

– شوف ولاه. دير بالك. وإياك تناديلي أبو عمار حاف. بنوب بنوب. مو مفهوم وواضح.؟ أنا سيدك المقدم عبد الله شاكر دائماً. مفهوم؟

فأجفل المساعد أبو علي البحري، وقال كمن يؤدي تحية عسكرية قبل المباشرة بمهمته:

– أمرك سيدي المقدم.

وقد بدأت موجة الإصابة بمرض الجرب مبكراً. وبعد أقل من مضي العام الأول على وجودنا في سجن تدمر. وقبل نقلنا من المهجع 27 في الباحة السادسة، الذي لم نمضِ فيه أكثر من سبعة أشهر، إلى المهجع 10 في الباحة الثانية، الملاصق للحمامات مباشرة.

بعد اكتشاف مرض الجرب، الذي بدأ ينتشر انتشاراً سريعاً في المهاجع كافةً، عمدت إدارة السجن الى تفريغ المهجع 28 الملاصق لمهجعنا في الباحة السادسة، وإلى عزل كل المصابين فيه. ومنذ ذلك الوقت غلب عليه في كل السجن، اسم مهجع الجرب.

بعد ذلك التاريخ بسنوات، سوف تصبح أعداد مهاجع الجرب بضعة مهاجع. أما مرض السل، الذي فشى في السجن بصورة غير قابلة، لا

للعلاج ولا للحدّ من تمدد المرض، فلقد تأخر ظهوره وانتشاره لما بعد أربع السنوات الأولى. وحين غادرنا سجن تدمر في منتصف العام 1987، كان أكثر من نصف نزلاء السجن تقريباً قد أصيبوا بالسل. وتواردت إلينا الأخبار فيما بعد، أنه ما إن حلَّ عام 1989، حتى تعدت نسبة الإصابات، ثلاثة أرباع أعداد السجناء، ولعله في ما بعد عام 1991 كانت إجراءات العزل، التي ظلت متداولة ومستدامة لدرجات ومستوى الإصابة بالسل، قد باتت غير ذات نفع ولا أية جدوى ممكنة، فتقرر إلغاء كل حالات العزل المتبعة، واعتبار جميع السجناء في سجن تدمر مصابين بالسل، وإن ثبتت صحتهم من المرض، وحتى إن تبين في حالات قليلة، وجود أصحاء بين المرضى.

كذلك تواتر تنفيذ أحكام الاعدامات في الباحة السادسة بصورة مضطردة. سواء في الفترة التي شهدناها بالعين المجردة، أو سماعاً بآذاننا، حين كنا نزلاء في المهجع 27، أو في المراحل التي تلت ذلك. ولقد تكثف حضور المحكمة الميدانية الثانية، برئاسة اللواء سليمان الخطيب، أضعاف ما كانت عليه الأحوال فترة وجودنا في الباحة السادسة.

واستمر الوضع في تصاعد أعداد المعدومين، حتى بعد مرور سبع سنوات ونصف، وهي الفترة التي قضيتها في تدمر قبل الانتقال منه. وبات واضحاً أن طبيعة المحكمة الميدانية الثانية – أو محكمة سليمان الخطيب كما كانت تُدعى – تختلف من حيث التفويض وطرائق العمل، في اجتثاث المعتقلين وحصد أرواحهم، عن المحكمة الميدانية الأولى، التي عرفناها في المزة برئاسة اللواء حسن قعقاع.

فهذه كانت تحكم، لا على المظنة والشبهة فحسب. بل أحياناً لأسباب هي دون ترجيح الظن بكثير. وفي حالات كثيرة كانت الإعدامات تطال أناساً بدون إبداء أي سبب ظاهر. ولعل حادثة إعدام طبيب بيطري، أقدم اللواء الخطيب على الحكم عليه، لغلبة ظن سابقة في مروية حادثة كيدية، وإن تكن جدَّ بسيطة، تبين طبيعة المحكمة، وطبيعة اللواء الذي نُصِّبَ قاضياً على رأسها.

كان معروفاً ومألوفاً في المحكمة الميدانية العسكرية الثانية، التي يترأسها اللواء سليمان الخطيب في تدمر، أن التهمة التي يُعرَض المتهم على المحكمة بذريعتها وبسببها، ليست دائماً هي موضع جدال أو اهتمام

القاضي رئيس المحكمة، بل لعل كثيراً من الأمثلة والحالات، التي لم تكن تُعرض فيها القضية، المناط بالمحكمة البتّ فيها أساساً، لا من قريب ولا من بعيد، ولم يكن المتهم ليُجَابَه بأي سؤال حول إفادته التي أفاد بها في التحقيق، أو تهمته الافتراضية المباشرة.

فقد كان يحلو للواء سليمان الخطيب أحياناً، أن يسأل سؤالاً عابراً متقحماً، يحسبه المتهم لغواً طارئاً، أو كلاماً بين قوسين، لا علاقة له بالموضوع، فإذا به، و يا للذهول، يصبح السؤال العارض هو القضيةَ ذاتها. ثم يتبعُه بسؤالٍ آخر، ثم يكرُّ النقاشُ ويُستطرد حتى يستحيل كلاماً عبثياً لا طائل منه. وتصبح ردود المتهم أكثرَ اغتراباً عن القضية وواقعها.

وربما كان من أهم أسباب مسلك اللواء الخطيب هذا، هو أن الأحكام كانت تُحَضَّر وتزود بها المحكمة وقاضيها سلفاً، وما المحاكمة وكل هذه الإجراءات الشكلية، لاحقاً، إلا ضربٌ من نزهة، أو جولة استطلاعية لتبرير المُبَيَّت أصلاً، والذي سوف يُقرَّر – كنتيجة، أو تحصيل حاصل – على ملأ وشهادة واطلاع. ومن ثم تثبيت واقعة أن المتهم قد خضع لإجراءات محاكمة بطريقة من الطرق، وأن جميع إجراءات وتفاصيل هذه المحاكمة، قد دونت واستوفيت مراحلها. وأن القاضي، رئيس المحكمة، من حيث الملموس، ولو شكلاً، قد واجه المتهم وأدانه بالتهمة الموجهة له، وسمع دفاعه. وما إلى ذلك.

وإن تكن الحقيقة غير المعلنة، هي أن هذه المحاكم الميدانية، هي ضرب من مخططات سابقة ومبيتة سلفاً، لإبادة قطاع كبير من السكان، إبادة جماعية، ومجازر سرية، تجري فصولها دون أن يعلم بها أحد.

كأنما يراد القول فحسب، إن القاضي قد قابل المتهم، وإن المتهم قد خضع لمحكمة في الواقع، (وليس لوهم محكمة على الورق). إذ أحياناً كان يصادف أن ينظر اللواء الخطيب، في إضبارة المتهم الذي وقف أمامه لتوه. يروزه بعينيه طويلاً، بعد أن يقرأ اسمه ومفصل هويته، ثم يبادره بالقول فوراً ودون مقدمات:

– ولك انتو الحموية كلكن أولاد شرموطة.

فينتفض المتهم فجأة من سُباته، والذي كان يحسب نفسه حتى تلك اللحظة، أمام (قاضٍ حقيقي)، وبعد أن يكون قد استغرق عدة أشهر، في حفظ سيناريوهات الأسئلة المتوقعة، وردوده المناسبة عليها، وبعد أن

يكون قد بصم الأسئلة والأجوبة بصماً في قرارة نفسه، لكثرة ما تدرب عليها، وعن ظهر قلب. فضلاً عن النصائح والخبرات التي يكون قد زُوِّد بها في المهجع، قبل حضوره ووقوفه "أمام العدالة".

فيجيب في شيءٍ من الاستنكار:

– ليش سيدي لا سمح الله؟

– ولسه إلك عين تقول ليش كمان؟

ثم يوغلان في حديث لا ينتهي إلا بكلمة روح.. انقلع.. حكمت المحكمة حضورياً بكذا..

في حالة ذلك الطبيب البيطري، كانت المحاكمة شيئاً قريباً من ذلك، فسليمان الخطيب بعد أن راز الطبيب المقدم للمحاكمة، بنظرة مديدة مستطلعة، وقد عرفه جيداً، قال له، كمن اكتشف ضالة مفقودة:

– ولك مو انت الدكتور البيطري فلان؟

– نعم سيدي.

– ولك بتتذكر لما بيت فلان بالقرية الفلانية، جابوك بالليل لحتى تعالج بقرتهن المريضة؟

– إي نعم سيدي بتذكر.

– إيييه. جيت والله جابك. وما بتعرف إنو البقرة ماتت تاني يوم؟

– والله يا سيدي سمعت من الناس. أصحاب البقرة ما عادوا خبروني بعد ما ماتت. أنا جيت بنص الليل بعد ما فيقوني من النوم، ووصلنا بأقصى سرعة. كانت البقرة حمرانة يا سيدي. فالتينها عالعلف طول الليل، وهي من قبل مرضانة. أعطيتها كل العلاجات الضرورية، وعملتلها حقن، وضربتها أبر. وظليت أراقبها فترة طويلة من الليل. كان وضعها سيء بصراحة يا سيدي. وخبَّرت الجماعة إنهن يخبروني الصبح شو بيصير معاهن.

بعد ما استكملت كامل متطلبات علاجها. كتبتلهن وصفة يجيبوها للبقرة الصبح، وبعض الإجراءات الضرورية لتجاوز حالتها. ورجعت عالبيت قريب من الفجر. هذا كل اللي بيطلع بإيدي أسويه يا سيدي.

– بحظي إنك أكبر كزّاب. وبحظي إنك إنتْ اللي قتلت البقرة قصداً. لأن صحابينها علويين قتلتها مو يا كلب؟

– شو هالحكي سيدي؟ أنا طبيب بيطري، وأقبض أجرتي على عملي،

وأقوم بكامل واجباتي تجاه كل الريفيين. على كل حال الجماعة اصحابين البقرة لسه موجودين، وبإمكانك تسألهن، إذا أنا قصرت بواجبي كطبيب بيطري ولا لأ؟

أجابه الخطيب ببرودٍ وتشفٍ:

– ما في داعي أسأل حدا. بس خلص. والله وقعت بإيدي، وإلا أعدمك يا كلب كرمال هالبقرة.

لم يتطرق الخطيب خلال المحكمة إلى أي موضوع أو تهمة تخص الطبيب، سوى موضوع تلك البقرة. وبالفعل، وكما وعد. فقد حكم على ذلك الطبيب البيطري بالإعدام. ونُفذ فيه الإعدام في سجن تدمر.

الفصل السادس

مهجع 38

– 1 –

ليس هنالك ما هو أسوأ من أن تنتظر الموت بصبر لم يفرغ بعد، بين أربعة جدران. بينما متاح للسجين أن يتعلم أكثر من الدروس والتجارب المشاهدة والمعايشَة. فلقد كان حفظ القرآن غيباً، عن طريق التلقي الشفهي، ليس متاحاً فحسب، بل لعله أولى ما يمكن أن يفكر المرء فيه وأن يخطط له.

أصبح ثمة في كل مهجع محفظون للقرآن، بالتلقين الشفهي في كل مهجع من المهاجع في سجن تدمر، وهؤلاء كانوا ينقسمون إلى طبقات ودرجات متفاوتة، حسب مقدراتهم ودرجة ضبطهم. والحافظ الشفهي كان في أمسّ الحاجة إلى واحد من هؤلاء الحفظة المهرة. ولهذا السبب، بدرجة أولى، كانت اللقاءات بيننا تنضبط وفق مواعيد محددة، ولا تتم عشوائياً.

فأن تحصل يومياً على موعد لساعة معينة للمراجعة، وإعادة تصحيح الحفظ والتلاوة، هو بُلْغَةُ الحظ وغايته. ثم تنزل أهمية المواعيد لغايات الحفظ الأخرى، كحفظ الأحاديث والأسانيد الصحيحة كلها عن ظهر قلب، ثم حفظ التاريخ والسيرة النبوية، وعلم مصطلح الحديث، وقواعد النحو واللغة وغير ذلك. كل هذه المواعيد التي كان يجري تحديدها وترتيبها، ما جعل من المهاجع ورشات عمل تشبه الأكاديميات والمعاهد، وكان حريّاً بها ذلك. فكان الشعار المشتهر في سائر مهاجع السجن في تدمر، هو:

– من حفظ المتون حاز الفنون. ومن حفظ الحواشي ما حوى شي.

وقد انتهيت من حفظ القرآن كاملاً بدايات عام 1983، أي بعد الانتقال إلى المهجع 38، الذي كان أشبه بقرية صغيرة، وصلت أعدادنا فيه إلى 206 أفراد من السجناء، (ولقد ظل الرائد عثمان الأصفر رئيساً لمهجعنا هذا، طيلة تلك الفترة). حيث قضيت بين جدرانه وحده، فترة

قاربت أربع السنوات متواصلة، وهي أطول فترة أقضيها في مكان واحد، دون انتقال أو تبدل طيلة حياتي.

وبعد حفظ القرآن ومراجعته، لم يكن المرء ليجد شيئاً مفيداً ليشتغل به، سوى إعادة التثبت من حفظه، ولقد راجعت محفوظاتي للقرآن، حوالي ألف مرة عن ظهر قلب، ولم أعتِمْ أن وجدتُ من الضروري أن أحفظ صحاح الحديث الستة، ثم السيرة النبوية، ثم علم الفرائض، ثم علم الجرح والتعديل، فأصول الفقه والعقيدة وسنن العبادات وواجباتها. فلم يخلص عام 1987، حتى ألفيتُ نفسي وقد بصمت عن ظهر قلب، كل ما يمت إلى أصوليات الإسلام وفروعه بصلة.

كانت حياتنا كأفراد منبوذين خارج الحياة، شيئاً يشبه الموت، خاصة مع تواصل التعذيب اليومي من قبل شرطة السجن، بيد أن تلك الحياة يصحُّ فيها أن يقال بأنها كانت حياةً أخرى وعالماً آخر، لا يشبه الحياة والعالم الذي نعرفه.

وبعد الدخول إلى بوابة عالم السجن، المنبوذ عن كل مظاهر الحياة والمقطوع الصلة بها، لا يفكر المرءُ أبداً، في الوطن الذي كانت قضيته السبب المباشر لاعتقاله، بل ولا يفكر بأصدقائه خارج الجدران. حتى ملامح الأدنين والمقربين من أهل وأقرباء، تتلاشى بالتدريج، وبعد فترة لا تكاد تفكر في أي إنسان خلف هذه الجدران.

وفي تلك الأجواء والعوالم المؤلفة من اللامعقول، والمتنامية فيه، يُفترض فيها أن يكون اللامعقول هو القاعدة التي تتخطى حدود استثناءاتها، وشذوذ الأشياء هو أصلها ومعقوليتها ومنطقها الطبيعي، وهي لا تقف عند مجرد حدود العبث أو عبث الحدود، لأن الحدود في المشهد السوريالي لا حدود لها، ولا تنتهي عند مشهدها الطبيعي في عاديته. بل لعلها تذهب بالنفوس إلى أقصى حالات التطرف حدة، في كل ما هو غير مألوف، ولا يشابه الحقيقة المألوفة في شيء.

ولكن لماذا نتطرف نحن في أحكامنا أحياناً؟ فلعل الحقيقة نفسها – أوما نسميها نحن بهذا الاسم – ليست أكثر من حضور طارئ على العبث الوليد، عجنته عجينة الواقع الفانتازي الذي لا نراه إلا كما نشتهي ونحب، فإذا كبر وتطور واستطال، وبدا مرعباً مدهشاً مضحكاً مبكياً، اتهمناه بتهم، ورميناه بالمفردات الكثيرة التي نحفظها؛ كالعبثية والسوريالية وغير ذلك.

ولم نتهم مادته الخام التي تخَلَّق منها. فما أدرانا: ألعل العبث هو أصل طبيعة الأشياء؟ وما مشهدها المألوف المُعقلن، إلا الاستثناء الذي أردناه، وهو الصورة الجانبية التي اخترناها، فلا نكاد نلحظ سواها.

أتذكر اليوم كيف راح صديقي الديري، الذي اعتقل قبل عقد قرانه على خطيبته بأيام معدودة، يسترجع بعض ذكرياته. لا أدري هل كان يحدثني أم يتحدث إلى نفسه فحسب. مرفقاً حديثه الهامس بآهات مسترجعة ومتذكرة:

– أظن، إذا ما بقينا في هذا المعتقل، عشرين أو خمساً وعشرين سنة، أظن بأنها لن تنتظرني كل هذا العمر الطويل. خاصة أنها لا تعلم، إن كنت ما أزال على قيد الحياة أم ميتاً. سأخرج من السجن، ولسوف أراها قد تزوجت غيري منذ سنين طويلة. هذا مؤكد. ولسوف أعلم بأنه أصبح لديها، بعد كل هذه السنين، عددٌ من البنين والبنات.

ثم ليبعث بعض الأمل في نفسه:

– من يدري، فقد تكون ابنتها في ذلك الوقت قد بلغت العشرين، أو قريباً من هذا العمر. عندئذٍ سوف أتعرف على ابنتها، ولسوف نقع في حب بعضنا، أنا وابنتها. سأشرح لها الظروف التي أعاقت زواجي من أمها، وسأطلب يدها للزواج.

ثم يبتسم، مستأنفاً باللهجة الديرية الأصيلة:

– شكون، الله مو كاتب نصيب، إلا عاد شنسوي.. ما صار نصيب آخذ إمجي، بلكي يصير نصيب وآخذچي.

وحين تبدأ فترة توزيع الطعام الرئيسية قريباً من العصر، ونتعرف إليها من خلال أصوات جاطات الرز أو البرغل، مع المرقة الحمراء، لأنواع من الطبخ لا يستطاع تحديد اسمها أو مكوناتها بسهولة، تستمر أصوات الجاطات التي يحملها عناصر "البلديات"، أثناء خبطها خبطاً أمام أبواب المهاجع.

ولما كان للرز وأنواعه، وطرائق طبخه، أسوأ سمعة طعام من بين كل ما طعمناه في تدمر، كنت أسمع صوت أحدهم – بشكل يومي – وهو يرفع يديه إلى السماء، مردداً:

– اللهم منزلَ الكتاب، مُجريَ السحاب، هازمَ الأحزاب.. اللهم اجعله برغلاً ولا تجعله رزاً يا رب العالمين..

– 2 –

لكننا، وقد قررنا أن نمضي قدماً في البحث عن الحد الفاصل بين الحلم واليقظة، والمعقول واللامعقول، لن نجد حديقة جميلة للسخريات الصغيرة والكبيرة، ولمآسي الكوميديا السوداء، أجلى وأحلى منظراً من المحكمة الميدانية العسكرية نفسها. هناك حيث يتشارك الشيطان والإنسان، لذة الموت الذي لا يشبه الموت في شيء، وقرع الأنخاب المسمومة إلى حد الثمالة، وتعتعة السكر والذوبان في العدم.

من ذكريات فترة سجن المزة، أذكر كيف وقف أبو بكري، أمام قاضي المحكمة الميدانية الأولى اللواء حسن قعقاع.

وأبو بكري هو أحد دهاقنة المشاكل والجرائم والانحرافات عبر تاريخه الطويل، في الفترة التي سبقت اعتقاله، حيث قضى معظم حياته وشبابه في زوايا حي بحسيتا بحلب، وتخرج منه خلال سنوات، برتبة عرَّاب أكبر في لعب الكشتبانات والقمار والبلطجة.

تهمة أبي بكري المباشرة أنه قام بتعريف أحد شباب الأخوان، الذي انقطعت به السبل، وفقد الاتصال بأسرته التنظيمية، تعريفه على شاب آخر من جماعة الطليعة المقاتلة، من معارف أبي بكري. وهذا الفعل – في عرف أبي بكري – ضرب من الشهامة والمعروف وعمل الخير، وهو مروءة وتضحية لا علاقة لها ولا مساس، لا بقضية دينية أو سياسية، على أي نحو معروف أو مألوف، لكنها كانت بالنسبة للواء القعقاع، كتم معلومات خطيرة تمس أمن الدولة. وذات مرة كان أبو بكري يحدثنا قائلاً:

– في أزقة بحسيتا القديمة كنا نقضي معظم الوقت في لعب القمار والكشتبانات، وكنا لا نشرع في اللعب إلا بعد أن نتأكد بأن لا أحد لديه نوايا في الغش أثناء اللعب، وزيادة على تأكيدنا هذا كنا نُحَلِّف بعضنا أيماناً مغلظة، ونأخذ على أنفسنا عهداً بالالتزام بأصول اللعب دون غش، وفوق العهود كنا نقرأ الفاتحة للتوكيد على قدسية العهد، وعلى نية الصدق والتوفيق، وأن لا أحد بوسعه بعد ذلك أن يتجرأ على الغش..

ثم يضيف ملاحظة معترضة:

– أنا شخصياً حفظت الفاتحة من حلقات القمار تلك.

في نهاية المحاكمة، قال له اللواء القعقاع:

– روح يا ابني. حكمتك المحكمة عشر سنين، مع الأشغال الشاقة في تدمر.

ظهر الامتعاض والانكسار المفتعل على وجه أبي بكري، وبدا عليه الحزن والجزع الشديد، فقال في ما يشبه ضراعة وتوسلاً حزيناً، مخاطباً القعقاع:

– يعني سيدي بعد إذن سيادتك؛ لو طلبت الرحمة من محكمتكن العادلة، وتخفيف الحكم شوي. شوي بس مو كتير. ما بيمشي الحال؟ مثلاً. تنزل الحكم لسبع سنين بس؟

أجاب القعقاع بصرامة:

– لا ما بيمشي الحال. انت محكوم حسب الفقرة ز من قانون العقوبات، فيما يخص الجرائم الواقعة على أمن الدولة. عشر سنين يعني عشر سنين. شو يا صوص؟ والله لأخليك تصير جاجة بتدمر. (وأبو بكري كانت كنيته "الصوص")

ازدادت ضراعة أبو بكري، وتذلّله المصطنع للقعقاع:

– طيب معليش تسويهن ثماني سنين لوجه الله؟ أو تسعة معليش سيدي؟ وإلك الأجر والثواب حضرة القاضي. انشاء الله تروح عالحج يا سيدي. تسع سنين ونص بس؟ والله حاجتي تسع سنين ونص، الله يوفقك. الله يستر على حريمك.

– حسب الفقرة ز، قانونياً ما بيمشي الحال يا ابني.

– طيب تسع سنين ونص محمولة يا سيدي، بس عشرة والله بتكون عم تظلمني. والله عشر سنين، صعبة وظلم وحرام.

صرخ القعقاع غاضباً:

– انقلع من وجهي. عشرة يعني عشرة. إنت أجدب شي؟

عاد الصوص من المحكمة بائساً حزيناً، وهو يقول:

– والله أنا ماني مسوي شي يستاهل كل هالحكم. أنا كنت أرتكب عشر جرائم بأسبوع واحد، وأخرج من مخفر الكلاسة بأقل من شهر. اش مسوي ليحكمني عشر سنين ابن هالحرام؟

بعد سنوات عديدة، وكنت كلما التقيت بأبي بكري الصوص، أو جمعتني به الصدفة، وكلما جلسنا وأتينا على ذكر تلك الأيام وتلك

المحاكمات، يكتسي وجهه بالحزن والأسى والندامة، ويردد على مسامعنا:
– آخ على ابن هالحرام. لو حكمني تسع سنين أو تسع سنين ونص، كانت مقبولة منو ومعقولة يا أخي. كنت هلأ عم أدعيلو الله يوفقو. بس عشر سنين؟ والله ظلم.

كما كانت كل المجموعات داخل السجن، تأخذ اسماً اعتباطياً رمزياً، يدل على أخص ميزاتها، فيتم التعارف بيننا على المواضعة القائمة على صدفة التسمية التي التصقت بمجموعة، ودرجت كحالة تعريفية بها. فمثلاً هؤلاء جماعة الشيخ فلان، وهؤلاء جماعة حزب التحرير. وهؤلاء جماعة ضباط الانقلاب، وجماعة المهربين، ومشاغبو اللاذقية أو شغب اللاذقية، وكتائب وعرفاتيون. الخ..

كان بضعة أشخاص من زملاء السجن معروفين باسم (مجموعة الهيطلية)، ومثلهم أيضاً، كانت هنالك مجموعة أخرى تسمى (جماعة تنظيم المقلوبة). معظم هؤلاء جميعاً، كانوا يتألفون من مجموعات لا تهمة لهم في الحقيقة. فقد كانوا أصدقاء، لا يجمعهم سوى الصداقة، أو لعله اضطر أحدهم، في ظرف خاص، أن يعترف للمحققين، أو أدلى بأسماء أثناء التحقيق معه، بأنهم يقومون كل خميس بالاجتماع في بيت أحدهم، لقضاء السهرة والمسامرة مع بعض.

من أمثلة ذلك، وأمام المحكمة الميدانية العسكرية التي تصدرها اللواء حسن قعقاع، سُئل زيد الميداني، وهو أستاذ رياضيات محترم، من أهالي الميدان في دمشق، عن سبب هذه السهرات الأسبوعية، في بيت كل واحد منهم، فأجاب:

– والله يا سيدي، نحن لسنا سياسيين، ولا نتعاطى بأي شأن سياسي. اعتدنا كرفقة وأصدقاء، أن نسهر ليلة الخميس من كل أسبوع، في منزل واحد منا. مضيفنا كل أسبوع، هو من نختاره أو نرشحه، ليكون بيته هو موضع زيارتنا وسهرتنا الأسبوعية. نتحدث في الشأن العام، ونتبادل الكلام في همومنا الخاصة. وليس لنا علاقة بأي تنظيم، لا ديني ولا غيره. نصلي صلاة العشاء مع بعضنا صلاة جماعة، في نفس بيت صاحب الدعوة. ثم يقدم لنا مضيفنا طعام العشاء، ونظل نسهر حتى منتصف الليل، قبل أن ننفض عائدين إلى بيوتنا.

كلّ من يكون دوره في استضافة المجموعة، يتوجب عليه التحلاية

للجميع: يعني مرة تكون التحلاية رز بحليب، ومرة مامونية، ومرة حلويات صنع منزلي، أو هيطلية. نتناول التحلاية. أعني صحن الهيطلية، ونتسامر بعض الوقت، ثم نودع بعضنا، ونغادر إلى منازلنا.. فيها شي هي يا سيدي؟

أجابه اللواء القعقاع:

– لا والله ما فيها شي.. فيها صحتين وهنا وعافية.. روحوا أنت وإياه، وهي خمسطعش سنة مع الأشغال الشاقة بتدمر. هي بس مشان تحلاية صحن الهيطلية.

وقد خرجت مجموعة الهيطلية، أو تنظيم الهيطلية كما كنا نسميه، من المعتقل على فترات مختلفة، وصلت بعض فتراتها إلى اثنتي عشرة سنة.

ومثل ذلك كان يحدث كثيراً، وذات مرة قال الرائد جودت حبيب، مساعد رئيس المحكمة الميدانية العسكرية الأولى، التي كان يرأسها اللواء حسن قعقاع، للمتهم حسن محمد خبازة، وهو شخص أمي بسيط، يفتتح مطعماً لبيع الصندويش في مدينة اللاذقية:

– ولك يا عرص. يا كلب. يا ابن الشرموطة. يا ابن الشلكة. كنت مخبيلو للمجرم أبو علي الجندي تنكة قنابل يدوية بمطعمك؟ انت عندك مطعم فول وحمص وفلافل وبيض وبطاطا. وبتبيع فيه طباق بيض وعجة وغيرو. وألله رازقك، شو اللي جبرك وخلاك، تخبي بمطعمك تنكة قنابل للمجرم أبوعلي؟ أجاب أبو محمد خبازة:

– والله يا سيدي بدك تقول الطمع. الطمع ودناوة نفسي مو أكتر. والشيطان. الشيطان شاطر وابن كلب. هو اللي أغواني وضللني. طمع البني آدم ما له حدود يا سيدي. أبوعلي كان يعطيني "كراجية"، على كل تنكة قنابل يدوية كان يودعها عندي. ويخلي القنابل بمطعمي للصبح. وانا تحت طمعة نفسي يا سيدي. والشيطان لسه ما مات.

قال الرائد جودت حبيب:

– طيب. شقد كان يعطيك أجرة على تنكة القنابل؟ كراجية حسب قولك؟ أجاب أبو محمد خبازة:

– يعني بدك تقول حسب.. كل مرة شكل. مرة عالقنبلة الوحدة نص ليرة. مرات ستين قرش. أنا ماكنت أطلع معو على هالشغلات الفاضية. أبو علي زكرت وابن حلال، وأنا ما اشَوْفو عين طمع، لأنو أنا كمان زكرت

وابن حلال متلو. شو ما الله قَسَم، ربي يسهل..! فقال الرائد جودت:

– طيب تعال تا نحسبها منيح. يعني تنكة القنابل كلها، ما كانت تجمع معك أربعين أو خمسين ليرة. بينما إذا بتبيع بمطعمك، عشرة أو عشرين طبق بيض، كانت تجمع معك أكتر من مية ليرة. مع إنو إنت بتعرف، إنو أبو علي الجندي، مجرد اللقاء معه، أو السلام عليه باللاذقية؛ بس هاي لحالها كانت تودي لإعدام أي إنسان بسلم عليه. بتروح إنت، بترفعلو تنكات قنابل يدوية، ليقاتل الدولة فيهن، هو وعصابتو، مشان يعطيك عليهن "كراجية"، خمسين أوستين ليرة يا دب؟. ولك أنت جحش رسمي. ولك إنت شو كنت بتشتغل قبل ما تفتح هالمطعم، بدي أفهم؟ أجاب أبو محمد خبازة:

– والله ياسيدي، أنا كنت أولي ببيع صندويش بطاطا وبيض وفلافل، على عربية. مرات بدور بالطابيات، بالعوينة، بالصليبة، بالشيخ ضاهر، بالرمل الشمالي، بالسجن، بسوق السمك. أحياناً بفتح بسطة قدام الجوامع أيام الجمع. وبعدين الله فتحها عليّ. فتحت هالمطعم. وقللي الكريم خود. الأرباح تكت عليّ، وما أعرف حتى أعد المصاري من كترتهن. وما ألحّق على جمع العملة. والكريم يقللي خود، وأنا كل يوم أربح أكتر وأكتر. والناس بدك تقول قدام مطعمي يا سيدي، متل قتل قتول هيك مجمعين. وصافين عالدور، ويقللي الكريم خود..

– أي.. وبعدين؟

– بعد سنتين يا سيدي. ملا إنت. رحت عملت جرد لمطعمي ولرسمالي. لحتى أشوف، شو كان عندي راسمال، وشو صفي عندي راسمال وأرباح. طلعت؛ ملا انت.. خسران حوالي مية وخمسين ألف ليرة.. هدول بعد سنتين شغل ملا إنت.. وبعد سنتين من التعب.. بس كلّو، والله العظيم، من عيون العالم الله وكيلك.. العين والحسد الهن، مو ما إلهن. والله كلّو من عيون الخلق يا سيدي. فتساءل الرائد جودت:

– وهدول المية وخمسين ألف ليرة. يللي خسرتهن. خسرتهن قبل ما يقلك الكريم خود، إلا بعد ما قلك الكريم خود؟

وقد تم حكم المحكمة الميدانية، على حسن محمد خبازة، بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً، مع الأشغال الشاقة.

- 3 -

في الصيف الصحراوي الحار، تم نقلنا من المهجع 27 إلى المهجع 10 بجانب باحة الحمامات، ولقد قضينا فيه قريباً من السنة إلا قليلاً. قبل الانتقال إلى المهجع 38 في الباحة السابعة، وبقائنا فيه فترة أربع سنوات متواصلة. وذلك بعد منتصف شتاء عام 1981، حيث نقل المهجع التاسع والعاشر، إلى تلك الباحة الجديدة.

لم نكن نعلم أن هناك ورشات عمال تنهض ببناء باحة جديدة وواسعة، خلف جدار السجن المحاذي للباحة الأخيرة، السادسة. وذلك لحل مشكلة الاكتظاظ الكبير في المهاجع، حيث أخذ سجن تدمر يستقبل أعداداً لا حصر لها من معتقلين جدد. ورغم أن المحكمتين الميدانيتين كانتا تشتغلان في مستوى من السرعة، ندر أن يُعرف له سابقة أو مثل، ومع أن محكمة تدمر الميدانية الثانية، كان يقدم لها أعداد من المعتقلين بالجملة (تصل أعدادهم في أيام، إلى مائة أو مائة وخمسين معتقلاً، كانوا يُحاكمون في يوم واحد، ودفعة واحدة)، ورغم أن أعداد من كانوا يُحكمون بالإعدام، على يد القاضي اللواء سليمان الخطيب، قد تصل نسبته إلى نصف، أو ثلثي المحاكمين؛ مع هذا فإن نسبة الازدحام قد بدأت تتفاقم بتوالي الأيام.

تم الانتهاء من بناء الباحة الجديدة، وهي مؤلفة من أربعة مهاجع كبيرة جداً، ومخصصة لاستيعاب ما فوق مائتي السجين، في كل مهجع واحد. وبعد سنة واحدة تم تقسيم مساحة الباحة السادسة الواسعة الرحبة، فبُني مهجع جديد في صدرها لم يتم ترقيمه. وانما اكتسب اسمه باعتباطية الاعتياد على تسميته: "جديد سادسة صدر". ثم بُني على جانبيها مهجعان آخران بعد سنوات.

مع كل هذا، فإن السجن كان يضيق، حتى ليكاد يختنق بالناس، أو يختنق الناس فيه، من كل مناطق سورية.

كان كل شيء في سورية، كالانفجار العظيم الذي ابتدأ منه خلق الكون؛ ينفجر وينفجر وينفجر إلى ما لا نهاية. بيد أنه انفجار لم يخلق كوناً، ولم يحقق يوماً ما، هدفاً من الأهداف التي يريد. وربما كانت أفضل الفرص المتاحة للسوريين، هي موت الأسد الأب، واعتلاء ابنه

الدكتاتور الصغير عرش السلطة. بيد أنها فرصة لم يحسن السوريون، على أية حال استعمالها ولا استغلالها، ولم يستفيدوا كثيراً منها.

كل مأساة السوريين، ربما تتخلص في معنى واحد، وهي أن كل ما ولد من فرص وظروف محيطة وأحداث، خلال خمسين عاماً، قد ولد قبل أوانه، وكل ما مات أثناء ذلك، كان قد مات بعد أوانه أيضاً. هكذا سوف تمضي حقبة نصف قرن من الدهر، وهكذا سوف يقرر الأب والابن (إبادة معظم الشعب، دفاعاً وحرصاً منهما على هذا الشعب).

في الحروب يكسب الذين يملكون الخداع أكثر من الشجاعة. ولقد كان الأسد مزوداً بذخيرة ومؤونة كافية من بضاعة الخداع التي لا نهاية لها. بينما كان الشعب عاجزاً ومتكاسلاً، وليس لديه أدنى رغبة في التصديق، بأن مستقبله قد انتهى، وأنه ماضٍ نحو نهاية مجهولة، لكنها في المؤكد غير سعيدة. حتى ميزة الشجاعة والتحلي برباطة الجأش، التي يمتلكها هذا الشعب، كانت قوة لا أهداف واضحة لها، ولا دريئة ثابتة وجاهزة، لأن تنصرف شجاعته باتجاهها.

كما وَقَرَ في ذهن السوريين منذ أقدم العصور، أن أرضهم، هي وحدها من بين كل بلاد الدنيا، من مشى على ثراها الأنبياء، وتفيؤوا تحت ظلال أشجارها قبل أن يستشهدوا. والحق أن تخيل مئة ألف، أو مئتي ألف نبي، عاشوا في هذا المكان، قد يُلينُ للمخيلة أن تتصور بأن كل شبر، أو متر مربع، قد مضى قُدُماً، أو مرَّ عليه نبيٌّ ما، يوماً ما. وذلك خلاف بلدان العالم جميعها، وأهل الأرض طراً.

فبينما يظل البشر منشغلين في البحث عن "رسالات لكي يحملها ملوكهم إلى العالم"، فإن همَّ السوريين وحدهم، دون جميع العالمين، يظل منصرفاً للبحث والتفتيش عن "ملوك يحملون معهم عبء رسالاتهم". ما يجعل السوريين مرتاحين من مهمة البحث والتفتيش عن رسالة كونية، أو نبوءة سماوية، وقلقين ومضجعهم دائماً مقضوض، فقط من التفتيش عن "ملك يحمل للعالم تلك الرسالات".

تم تجميع كل الأطفال والشبان اليافعين، ممن هم دون الثامنة عشرة من العمر في الباحة الجديدة، فأصبح هؤلاء الأحداث والأطفال "جيراننا" في الباحة السابعة. وشغلوا المهجعين 36 و37، الملاصقين. بعض هؤلاء الأطفال كانت تتراوح أعمارهم بحدود الثالثة عشرة

والرابعة عشرة، كما حدثونا فيما بعد، وأن بعضهم عرف البلوغ في السجن بعد دخوله بسنتين أو ثلاث أو أربع.

بين جدران المهجع 38 كنت كثيراً ما أمعن النظر، أو يستغرقني التفكر في صديق رحلتي الطويلة، ذلك الشاب الدمشقي ممتاز والي، شريك رحلتي الطويلة في كل المهاجع التي ترحلت إليها. فقد كان أبو سعيد، كما كان يُنادى، له فرادة وخصوصية تميزه عنا جميعاً، نحن أصدقاء المهجع 38، الذين فاق عددنا مئتي سجين، والذين عشنا معه وعاش معنا سنوات طوال.

أولى ميزات أبي سعيد أنه كان السجين الأقدم بيننا جميعاً، فجميعنا كنا بمثابة مستجدين على السجن بالنسبة لممتاز. وحين كانت الآماد التي قضيناها في السجن، تحسب حتى ذلك الوقت فيما بيننا، منذ فترة وجودنا في سجن المزة، ومنذ الأشهر الأولى، وتعد بالشهرين والأربعة، كنا ننظر إلى أبو سعيد نظرتنا إلى شخص أسطوري خارق، بوصفه السجين الوحيد الذي كان بيننا قد جاوز خمس السنوات، بين معتقلين متذمرين ومتضجرين، من فترة اعتقال بضعة أيام أو أشهر في المزة العسكري.

وحين جاوزنا الإحدى عشرة سنة، وأوغلنا في السنة الثانية عشرة، كان ممتاز، أبو سعيد، قد دخل في السنة السابعة عشرة في السجن. ولذلك استحق منا، نحن رفقاء المهجع المستجدين، لقب: "الخليفة المستحبس بأمر الله".

أما ثاني ميزات ممتاز، أبي سعيد، وخصوصيته التي أفردته بفرادة خاصة فهي طيبة القلب والبساطة الشديدة، والزهد الشديد في التدخل في أي شأن من شؤون المهجع، بعمومها وخصوصها. كان يتحلى بأخلاق أنبياء وصبر قديسين. ولقد اعتقل ممتاز على خلفية اعتراف بعض أصدقائه في جامعة دمشق، والذي كان على صلة بمجموعة الشيخ مروان حديد، اعترافه أن ممتازاً كان له صلة معرفة، أو صداقة بشكل ما، أو صلة قربى تقربه من بعض الشباب الدمشقيين الموالين للشيخ مروان. فتم اعتقال أبي سعيد، على إثر موجة الاعتقالات التي طالت كل من كان له مستوى من العلاقة أو الصلة بمجموعات الشيخ مروان.

في السجن، كانت أعداد كثيرة من جماعة الشيخ مروان، تساق إلى الإعدامات تباعاً، سنة وراء سنة، وعلى امتداد خمس سنوات سابقة.

ولقد خلّفه كل رفقائه وحيداً، يتنقل بين مهاجع سجن المزة، بعد أن رحلوا جميعاً، واحداً إثر الآخر. ولقد تذكرتُ ذات مرة، الحادث الذي تعرض له في المهجع 38، من بعض الأشخاص الجفاة، حيث هاجمه دون مبرر، وشتمه وصفعه لسبب تافهٍ، غير مستوجب كل تلك الشحناء، فما كان من ممتاز إلا أن تلقى الصفعة بكل طيبة، وقابلها بابتسامة متسامحة، قائلاً في منتهى الهدوء:

– سامحك الله يا أخي.

علما أن ممتازاً، كان قد حاز منذ وقت بعيد، على الحزام الأسود في رياضة الجودو، ونال بطولة سورية في المراتب الأولى، في إحدى دورات الجودو، ولم يتوقف عن ممارسة التمارين حتى داخل المهجع، إلى ساعة الإفراج عنا وإطلاق سراحنا. لقد كان يتمتع بقدرات بدنية على القتال، تحبوه من الاقتدار على التصدي لعشرة رجال دفعة واحدة، فيما لو هوجم.

وذات يوم كنا نتسامر سوية أنا وأبو سعيد، فسألته:

– ماذا لو خرجت اليوم من السجن، وطوفت الشام كلها. فلم تعرف أحداً فيها ولم يعرفك أحد؟ افترض أنك لم تتعرف على أهلك وعنوان بيتكم؟ فقال:

– بالفعل، لقد سمعت مؤخراً أن حارتنا أصبحت حياً من أحياء دمشق الحديثة، وأن مكان بيتنا أصبح ساحة عامة من أكبر ساحات دمشق.

قلت مازحاً:

– في هذه الحالة، إذا لم تعرف أحداً في سائر دمشق، ولم يعرفك أحد، أقترح أن تراجع إدارة السجون، وأن تقدم لهم طلباً لقضاء بقية العمر في أي سجن يختارونه لك هم. أتوقع أنهم سيكونون كرماء معك يا أبو سعيد، وسيوافقون فوراً على هكذا التماس.

ممتاز، أبو سعيد، كان حزيناً وكئيباً. شارداً وهو ينظر بوجوم في كل ما يحيط من حوله من دمشق التي لم تعرفه ولم يعرفها. وكأنه يرى دمشق التي كان يعرفها لأول مرة. أو كأنه، بعد مضي سبعة عشر عاماً، لا يكاد يعرف شيئاً مما حوله. كنت أعانقه ونحن نفترق للمرة الأخيرة، فقلت له مشجعاً وممازحاً:

– أبو سعيد.. اليوم سوف تخرج إلى الحرية لأول مرة.. لقد خسرت

لقب الخليفة المستحبس بأمر الله.. خسرته بجدارة بعد أن لم يعد لك علاقة: لا بالمستحبسين، ولا بالحبس..

أجابني بحزنه العميم، وشجنه المعهود، وبصوته الخفيض الذي لا يكاد يسمع بوضوح:

– ليرحمنا الله يا صديقي..

ثم مضى في سبيله، وهو يستقبل الليل، وينشد طرف خيطٍ، عسى أن يصله بإثارةٍ من حياة دفينة، عاشها قبل سبعة عشر عاماً، وطويت منذ دهر طويل.

– 4 –

في الباحة السابعة، ثمة أربعة مهاجع كبيرة، يناهز العدد الأعظمي لما حُشر في كل واحد منها من معتقلين، مئتي السجين، وهي المهاجع 35– 36 –37 – 38، وقد خصص المهجعان 36 و 37 للسجناء الأحداث، حيث كانت الشرائح العمرية لهؤلاء الأطفال في هذين المهجعين، تتراوح بين سن 13 سنة حتى 17 سنة.

بعض هؤلاء الأحداث، كما علمنا فيما بعد، لم يبلغوا سن البلوغ إلا بعد مكوثهم في المهجع ثلاثاً أو أربع سنوات، وكذلك لم ينبت الشعر في وجوههم إلا بعد مضي زمن طويل في السجن. أما الأحكام الصادرة بحقهم، فكانت تتراوح بين البراءة والسجن المؤبد. مع العلم أنه لا يوجد أي فرق فعلي أو تفضيلي، أو أية ميزة في اختلاف الحكم، فحكم البراءة وحكم السنة الواحدة والسنتين والعشر والخمس عشرة، شأنها في المآل والنتيجة، شأن الحكم بخمس وعشرين سنة وبالسجن المؤبد. وجميع الأحكام لم تكن لتختلف أو تفترق إلا مع الحكم بالإعدام، الذي كان صاحبه يعلم أن مصيره موقوف على تنفيذ الحكم، في وقت لاحق.

وحتى لا يُظَنُ أو يُتوهم، بأن مهاجع الأحداث هي إصلاحيات، أو يذهب بنا خيالٌ بأن لها ميزات تفضيلية على مهاجع الكبار، لابد من الإقرار، شهادة للتاريخ، أن مستويات التعذيب وسوء المعاملة والتنكيل الوحشي البالغ القسوة قد لحق ونال من المهجعين 36 و37، أكثر مما نالته مجموع مهاجع السجن مجتمعة.

هذا أمر أجد نفسي مؤهلاً للحكم عليه، بعد أن لبثت في المهجع المجاور لهما، المهجع 38، أكثر من أربع سنوات متواصلة، فمهجعا الأحداث كانا المهجعين الجارين لنا طوال هذه المدة الطويلة، ولم يتم فرط وتفريق مهجعي الأحداث، إلا بعد حوالي ست سنوات تقريباً، وبعد أن بدأت مرحلة انتشار مرض السل وتفشيه في السجن كله، عند ذاك تقرر إلغاء الباحة السابعة كلها، وتوزيعها على بقية مهاجع السجن، لتحويلها إلى باحة مخصصة لإصابات السل فقط، فضلاً عن أن الأطفال في المهجعين كانوا قد اصبحوا رجالاً وشباناً راشدين، بعد مرور كل تلك الفترة.

لا غروَ بأن مهاجع الأحداث كانت لها أسرارها المذخورة، ومعاناتها وطبائعها المفارقة عما ائتلفت واعتادت عليه مهاجع الكبار، لا لأن الرجال الكبار لديهم القدرة والإمكانيات التنظيمية على إدارة البؤس والعذاب والشقاء، بحكمة ودراية قد لا يستطيعها هؤلاء الأطفال، ولكن لأن ثمة قضيتين جوهريتين، ميزت مهجع الأحداث عن سواهما: الأولى هي افتقاره لأية خبرة طبية، وقد كانت الطبابة أو وجود طبيب ذي خبرة بالوضع الصحي للمهجع حاجة ماسة ولازمة.

على سبيل المثال، كان مهجعنا الـ 38 فيه ستة أطباء من ذوي الاختصاصات الجامعية العالية، ناهيك عن أن الأطباء غير المختصين وطلاب كلية الطب الذين لم يتخرجوا بعد، والممرضين أو خريجي معاهد طبية مختلفة، كانوا بأعدادٍ وفيرة لم يعد بوسعي تذكرها اليوم.

يقاس على ذلك بقية المهاجع، وفي حال قريب أو مشابه لمهجعنا، فإذا قارنت الوضع بمهاجع الأحداث، التي لم تكن تحظى حتى بطالب طب في السنة الأولى، أو حتى ممرض لديه أدنى الخبرات الطبية المطلوبة، كحقن الإبر أو تعليق السيروم أو معرفة أولية بعلامات مرض ما، أو بأعراض جانبية لدواء، عندئذٍ سوف يتبين البون الشاسع، وتتضح درجة الخطورة والمعاناة التي عاشها أولئك الأحداث، في تلك العزلة التي لا تشابه أية عزلة لسجناء، في السجن خلال أعوام.

أما من جهة أخرى، فقد كان لوجود أساتذة وخبرات من كافة الاختصاصات في كل المهاجع، ما منح وزوَّد المعتقلين بوفير من المعرفة والعلم، الذي كان يتداول داخل المهاجع، بطريقة المشافهة أو تلقيناً، الأمر

الذي أتاح للسجناء، لا فرصة للتثقف والاستفادة والاستزادة من كافة أنواع العلوم فحسب، بل ما ساعد على قتل الوقت الطويل، وزحزحة ذلك الركود السكوني، الذي يشبه الموت داخل السجن، حيث الفراغ واللامعنى هما سيدا الموقف، وهما برنامج الفصول والسنين المتعاقبة.

سياسيون، وأساتذة أدب عربي وغربي، ودارسو تاريخ وجغرافيا، ولغات أجنبية مختلفة، وعلوم عامة، وضباط كبار من ذوي الرتب العالية، متمرسون في الحياة العسكرية، ولهم خبرات وتاريخ يُعتَدُّ به. حتى الأميين والعاميين وبسطاء الناس، كانت لهم خبراتهم الواسعة والهائلة والمفيدة، فقد أفادوا كثيراً مما كانوا يذخرون من أسرار الحياة اليومية غير المألوفة والمعتادة، وبما هم عليمون من الواقع اليومي في حياة الناس.

كان السجن أكاديمية مفتوحة العلوم، واسعة الخبرات، وهذا كله ما كان ليتوفر ولو في حدوده الدنيا في مهاجع الأحداث. وللمرء أن يتخيل بعد ذلك، كتلة بشرية هائلة، ومحشر مفظع من أطفال ويافعين، لا خبرة لهم ولا معرفة ولا دراية، في هذه الحياة، إلا النزر اليسير من التعليم الذي حصَّلوه في بضع سنوات من الدراسة الأولى. عهدهم باللهو واللعب أقرب وأدنى باعاً من عهدهم بكل تجارب الحياة، وكيف كان يمكنهم أن يتآلفوا وينسجموا، أو يبتكروا التجربة من محض مُحال، أو يخترعوا ما يجعلهم يعيشون ويتعايشون به، لأشهر وسنين من لا شيء.

ولقد سمعت أكثر من مرة فيما بعد، حين توافرت ظروف الاختلاط بهم لاحقاً، وعلى أكثر من لسان واحد منهم:

– هل تصدقون لو قلنا لكم؛ إذا كان أقصى أمانيكم – أنتم الكبار – هي إخلاء السبيل والخروج من تدمر، فقد عشنا في مهجعنا، وليس لنا من حلم ولا أماني، أبعد من أن ننتقل إلى مهاجعكم. فإذا كانت الحرية والخروج من السجن هي حلمكم في المهجع 38، فإن حلم المهجعين 36 و37، كانت في الانتقال إلى مهجعكم. كانت مهاجع الرجال الكبار هي أقصى أمانينا، وحلمنا الذي شيدناه وعشنا عليه سنين؟

كانت علاقة المعتقلين الأحداث مغرقة في تعقيداتها. لا من حيث العلاقات الداخلية فيما بينهم فحسب، بل حتى في طبيعة إدارة علاقتهم مع الإدارة والشرطة. إذ رغم طفولتهم ويفاعة سنهم، كانوا يحتملون كماً

من الهمجية وفائض عقوبات متلاحقة، وعنفاً غير متصور ولا محتمل، يصل إلى حدود التصفيات الجسدية.

ومن المرجح أن وجود شخص الفتى أنس محمد سعيد نينو، طوال تلك الفترة التي قضيتها في المهجع 38، وهو رئيس للمهجع الملاصق 37، والقائم على إدارته وتدبير شؤونه الداخلية والخارجية في مواجهة الشرطة. إضافة إلى المهجع المحاذي الآخر 36، كان المهجعان بمثابة قريتين صغيرتين لأولئك الأحداث.

قد يكون ذلك بعضُ أسبابٍ، خففت جزئياً من أسباب التدمير الداخلي الكلي لمشهد أطفال يائسين. وجدوا أنفسهم في لحظة ما، وقد تخلت عناية الجميع عنهم، وسيقوا إلى حشرهم المجهول، في منتهى الفظاظة والقسوة، كمن يواجه إبادة بطيئة المزامنة، وتدهور نفسي وصحي في لحظة التفتح، واستقبال الريعان والشباب الغض.

كان أنس نينو محمود النقيبة، شديد العريكة، صلب المواجهة والاحتمال. وهو يعسوب القوم ومقدامُهم، كلما احتاجوا إلى يافع له ميزات، تجعله يتفوق على كثير من الرجال الكبار. وله من البداهة والتفتح ما يجعله مثار إعجاب في حسن المواجهة مع الإدارة والشرطة اليومية. من ذلك مثلاً، أن بعض الشرطة اقتربوا من المهجع 37 مرة، صائحين موبخين بغضب:

– شو هالرائحة الكريهة.! رائحة الباحة بتقتل قتل. ولاه رئيس المهجع 37. شو هاد؟ منين طالعة كل هالروايح؟

وواقع الحال أنه لم يكن هناك أية روائح. كل ما في الأمر، أن الشرطة كانوا يتصيدون فرصاً لاقتناصها بغية معاقبة مهجع الأحداث. فقال لهم أنس نينو:

– ما في رائحة بنوب حضرة الرقيب. من طرف مهجعنا نحن لم نشمَّ شيئاً، ولا يوجد أية رائحة غير طبيعية.

– ولك كيف مافي روايح؟ شو ما عم تشم؟ ريحة الباحة كلها بتقتل قتل.

فقال أنس نينو للشرطي:

– محتمل أن تكون تلك، روائح منبعثة من فتحة الصرف الصحي، الموجودة لصق باب المهجع.؟

- ما بعرف. إذا كانت كل هذه الروائح من البالوعة، اسكبوا بيدونات ماء حتى تختفي الروائح.

أسرع بعض الأحداث وهم يحملون بيدونات ماء كبيرة، وسكبوها في فتحة الصرف الصحي.

- ما راحت الريحة رئيس المهجع. بدكن تلاقوا حل للريحة. ما بكفي تصبوا مي بالبالوعة.

وهنا لم يجد أنس نينو إلا أن يقول له:

- إذن أقترح حضرة الرقيب أن نسكب بعض الشامبو داخل البالوعة، إذ ما يزال عندنا قليلاً من عبوات الشامبو، من فترة الزيارات. فالشامبو وحده كفيل بأن يقضي على تلك الروائح.

- وشو هاد الشامبو ولاه رئيس المهجع. أنا بحياتي ما سمعت بشي اسمو شامبو.

- الشامبو يا حضرة الرقيب، مُطَرٍّ للشعر، وملين له. وله استعمالات أخرى، أبرزها أنه يُسكب في المراحيض والبالوعات لإزالة روائحها.

- طالما الأمر هيك، اسكبوا كلشي عندكن شامبو بالمهجع في البالوعة، حتى تروح الريحة نهائياً.

- حاضر حضرة الرقيب.

ثم التفت إلى مساعديه داخل المهجع:

- أعطوني كم علبة شامبو لنسكبها في البلوعة، حتى تزول الروائح الكريهة.

أنس نينو، وبعد ستة عشر عاماً قضاها في المعتقل، وافته المنية عقب الإفراج عنه بعد إصابته بمرض السرطان (عام 1996).

وفي الغالب، كان لافتاً تكاثر الإصابات بأمراض السرطان، عقب إطلاق سراح كثير من السجناء، بعد قضائهم تلك الفترات الطويلة، وعلى إثر خروجهم من السجن بوقت قصير.

- 5 -

ورغم أن الجلد بالكرباج، كان عرفاً تقليدياً متبعاً لدى الشرطة، أثناء سوق أي سجين فرد، أو مجموعة إلى قاعة المحكمة، إلا أن جرعة التعذيب التي كانت تُنال من أولئك الأطفال والأحداث، تفوق بما لا يقاس، ما كان يناله منها الرجال الكبار. فقد كانوا يُجلدون في رحلة الطريق إلى المحاكمة، وفي طريق العودة إلى مهاجعهم. بل وأثناء المحاكمة، وأمام قاضي المحكمة الميدانية العسكرية، اللواء الخطيب، شخصياً.

وحدث ذات مرة أن سأل اللواء أحد أولئك الأحداث:

– ولماذا أطلقت النار على رجل الدين، الذي كان يشجع على الالتفاف حول السيد الرئيس، وعلى القيادة الشرعية الحكيمة في البلد؟

أجابه المتهم المراهق:

– هو من بدأ بالمشكلة ولست أنا. لقد شتمني شتيمة قبيحة.

– وشو قاللك؟

– قال لي: تباً لك.

– وشو يعني تباً لك؟

– ما بعرف.. بس أظن معناها "كس أمك". أو معناها قريب من هيك شي.

فقال اللواء سليمان الخطيب:

– ولك يلعنك في زوم بطنك انشالله. وتباً لك وألف تباً لك. ولك والله لو ما كان عمرك ستطعش سنة لأشنقك هلق من بيضاتك يا عرص.

أما مهجع النساء، فلم يبعد عنا سوى بضعة أمتار. حيث استقل ومهجعين آخرين، في حشوة ساحة صغيرة وقديمة تفصل بين الباحتين السادسة والسابعة. ويضم فناء هذه الساحة الصغيرة المهجعين 29 و 31. إضافة إلى مهجع أصغر بمثابة مستودع قديم، (كان يُطلق عليه اسم مهجع المستوصف)، خصص للسجينات من النساء.

إن السمكة الصغيرة، بحجم الإصبع، يصح في منطقها إذا رأت سمكة القرش لأول مرة أن تصرخ قائلة:"يا إلهي.. إنها سمكة مرعبة في

ضخامتها"، هذا فيما لو قبلت هي بمنطق سمكة القرش المذهول من صغرها، والصارخ بنفس الدهشة: "يا إلهي. إنها سمكة عجيبة في تناهي صغرها وحجمها القميء". هكذا كانت المقايسات تتم دوماً، بين عالم السجن الداخلي، والعالم خارج السجن. فأحياناً كنت أصغي إلى محادثات وحوارات، مما كان يدور بجانبي اعتباطياً في المهجع، من مثل:

– أنا هنا رهينة عن ابني.. وأنت؟

– انا اعتقلوني كرهينة عن زوج بنتي..

– أنا من البلد الذي يتهامس فيه كثير من جماهير الشعب، وهم ينظرون إلى أي معتقل برثاء آسف، ويتناصحون بينهم سراً: خليه الله لا يقيمه. بيستاهل. مين قاللو يعمل بالسياسة ويشتغل ضد الدولة.؟

– هذا السجن هو إشارة صريحة من الله على ختام الحضارة ونهاية العالم.

– يا أخي كن جباناً بعض الوقت، كي يستفيد العالم من شجاعتك كل الوقت.

وفي إحدى المرات قال أبو بكري الصوص، لأحمد جعفر، أبي اسماعيل:

– بتعرف شو عم يقولو الناس عنك بالمهجع 38؟

– شو عم يقولو؟

– عم يقولو أبو محمد عثمان أصفر، رئيس المهجع، كرهانك وقرفان عيشتو منك؟

– مني أنا؟

ثم اقترب أبو اسماعيل من عثمان أصفر، وسأله مغتاظاً:

– أبو محمد إنت بتكرهني شي كراهية شخصية؟

فقال عثمان اصفر:

– أعوذ بالله. مين قال إني بكرهك كراهية شخصية.؟ ومين بيشهد على هالحكي؟

– أبو بكري الصوص هيك قال. وبيشهد عالحكي طماشة وأبو أحمد خلوف.

– أوهوووووووووووووه.. يا أبو اسماعيل، الله تعالى يقول في محكم تنزيله: (ممن ترضون من الشهداء). وطماشة وأبو أحمد خلوف ممن لا نرضى.

ثم قال الرائد عثمان أصفر، وهو يضحك ملء فمه:

– والله أنت يا أبو إسماعيل، وشهادة لله، بتنحب وبتنشرب مع المي العكرة. بس من يوم أنا سمعت بالحديث النبوي الشريف: " يحشر المرء مع من أحب يوم القيامة" دقرت شوي، وراجعت حالي، وكمان راجعت نفسي بكمية الحب اللي بحبك إياها. خفت هالمحبة اللي بحبك ياها تجبرني أظل معك بالجنة، خالدين مخلدين فيها أبداً. يعني فوق مصيبتي بالدنيا، كمان لازم ننجبر نعيش أنا وأنت مع بعض إلى أبد الآبدين بالآخرة. والله لينخرب بيتي وقتها، دنيا آخرة.

ثم يتداخل الحديث، الذي قد يشارك فيه أحياناً خمسة أو عشرة أشخاص، في وقت واحد:

– من كثرة ما تسولت في السجن، راقتني الفكرة. حتى أنني أفكر، إذا قدر لي الخروج منه، أن أغلق مكتبي للمحاماة والاستشارات القضائية، وأمتهن الشحاذة، فهي أشرف المهن وأسهلها وأضمنها كسباً.

– صدقت. فضلاً عن ذلك، هي المهنة الوحيدة في التاريخ، التي لم تتطور، ولم تتحور، ولم تتقدم، ولم تتأخر..

– هل يخطرنَّ ببالك أن الطعام الذي يقدم لكلاب مدير السجن، أفضل بكل تأكيد من الوجبات التي تقدم لنا؟

– يقال بأن مهجع النسوان الذي بجانبنا يعامل معاملة طيبة..

– نعم.. ويقال بأن كمية الطعام المخصصة لهن، تزيد عن حاجتهن زيادة ضعفي ما تحتاج إليه الأخوات السجينات، وأن كمية اللحوم والدوسير أكوام فائضة عن حاجتهن..

– ويقال أيضاً، بأنهم لا يجلدون النسوان إلا في مناسبات محدودة، كالأعياد الوطنية والقومية، وحين يستبد بهم الهوس في ذكرى الاحتفالات بالانتصار على العدو.. وفي بعض الأوقات المعينة، وليس كلها.. كما يعاملوننا في كل خروج إلى التنفس.. بل ولا يجرؤون على أي تصرف، إلا بأمر مباشر من مدير السجن..

– لعن الله عيشاً لا ننتظر وراءه، إلا الخروج إلى التعذيب تحت اسم التنفس.

– لعن الله التنفس والحلاقة والحمام..

– لا تنسَ أيضاً بأن النسوان لا يخرجنَ مثلنا أسبوعياً إلى حفلات

الحلاقة الجحيمية، هذا وحده يسقط نصف شقاء السجن وتعاسته عن كاهلهن..

– هل تحسد النسوان على معاملة مهجع النسوان؟

– بصراحة..؟ نعم أنا أحسدهنَّ كثيراً..

– ما رأيكم لو طلبنا من الرقيب أن ينقلنا إلى مهجع النسوان..؟

– كيف..؟ مستحيل أن ينقلونا إلى هناك..

– بل هذا ممكن.. نقول له: حضرة الرقيب هناك خطأ لابد من تصحيحه، انقلنا إلى مهجع النسوان، فنحن أيضاً نسوان..

– ستكلفك هذه فحص طبي.. وبعدها ألف كرباج على الماشي..

– ألف كرباج وما كانت.. طز..

– لا تحلموا كثيراً بمهجع النساء، فلسوف تعيشون على فتافيت الرز والمرقة الحمراء لسنين طوال.. ماذا تتوقعون الغذاء اليوم؟

– 6 –

النتائج التي أفضى إليها مهجعا الأحداث 36 و37، وبعد أن خرج منها أولئك الفتيان عقب السنوات التالية، كانت كارثية بحق، فعدا عن الموت الكثير الذي أصبح قدراً مقدوراً، ملازماً لهم بسبب تفاقم المرض، وتجاهل إدارة السجن لكل التوسلات والمناشدات التي كانت تحدث في الحالات المرضية الخاصة، التي قاربت الاحتضار وشارفت على الهلاك، والتصميم العنيد على عدم الاكتراث بالجائحة الصحية الشاملة التي بدأت بالأحداث. ولئن لم أكن مبالغاً في تقديراتي، فقد أطبقت نسبة الـ 100% تقريباً من إصابات السل، على عديد مهجعي الأحداث، عدا عن عشرات الإصابات بالأمراض الأخرى الكثيرة.

في السنتين الأخيرتين، اللتين سبقتا فرط الباحة السابعة، وتوزيع كل السجناء فيها على بقية المهاجع، مال مساعد السجن – وربما بعد مشورة رئيسه – أن يُحيلوا الحالات المشرفة على الموت إلى مهجعنا، لتوفر الخبرة الطبية وعديد الأطباء الأخصائيين في المهجع، وربما كان أكبر الأثر لجراءة رئيسي المهجعين 36 و37، أنس نينو وأمين ويشو، اللذين تحملا من العقوبات والجلد المستمر حتى تقطيع لحمهما يومياً،

وذلك لمطالبتهما الحثيثة دون خوف من المساعدين والرقباء، بنقل الحالات الحرجة من مهجعيهما إلى مهجعنا.

ربما كان لذلك دور حاسم في تغيير قرار الإدارة، وحملها على عدم تجاهل هذه الحالات المرضية المدنفة. أنس نينو نفسه أصيب بالسرطان فور خروجه من المعتقل، حيث فتك به المرض بسرعة مفاجئة وغير متوقعة. وبالفعل طفقت الإدارة على نقل الحالات المرضية الحرجة، والتي تماثلَ معظم أصحابها للشفاء بعد انتقالهم إلى مهجعنا. وحين كان يتم نسيان مرضى الأحداث الذين يُعالَجون في مهجعنا بعد أسابيع أو أشهر، وجهلهم أو تجاهلهم عن قصد من قبل الإدارة، فإن هذا التجاهل قد وفر لهم أيضاً الفرصة للبقاء معنا، وأن يصبحوا من عِداد مهجعنا، ولم يعودوا بعد إتمام مرحلة الشفاء إلى مهجع الأحداث.

أما في بعض الحالات فلقد كان توقيت نقل المرضى متأخراً أو غير مبكر، فلا تفطن الإدارة إلى نقلهم إلا بعد دخولهم مرحلة الخطر المؤكد والاحتضار. كحالة شاب اسمه مهند. جاؤوا به محمولاً على بطانية، وكان في النزع الأخير. ومع أن جميع الأطباء في مهجعنا قد استنفروا ليلاً ونهاراً، في محاولة إنقاذه وشفائه، وبذلوا أقصى ما أمكنهم من جهد، من ذلك أيضاً، أنه تمّ الاتفاق مع مساعد السجن، على شراء أدوية ضرورية من صيدليات مدينة تدمر، مقابل دفع مبلغ خاص، براني، للمساعد، ولقد تم جمع المبلغ من عديد الأشخاص، الذين كان مايزال لديهم بعض مالٍ في المهجع.

مع ذلك، فقد ظل الفتى في حالة الاحتضار والنزع الأخير مدة ربت على الأسبوعين، وكان لا ينقطع عن البكاء والألم والصراخ بصوت عال، إذ توزعت وانتشرت أمراضه غير المحصورة في مرض أو سبب واحد، فلقد دخل المهجع وهو يعاني من رزمة أمراض عديدة وخطيرة، وبدأت أعضاؤه بالتوقف شيئاً فشيئاً، وأخذ يدخل موتاً سريرياً.

كان الفتى متألماً لا لحالته فحسب، بل لأنه كان يسبب آلاماً نفسية وإزعاجاً للمهجع، منعنا من النوم لأيام. وظلت كلماته الأخيرة تردد اعتذارات غير واعية للأطباء وللمحيطين به:

– يا شباب لا تواخذوني مشان الله.. بعرف إني بزعجكن، وما عم خليكن حتى تناموا بالليل.. بس والله ما عاد فيني أتحمل من الآلام.

ظل يردد هذه العبارات عدة أيامٍ وليالٍ حتى فارق الحياة. وصعد بروحه إلى السماء. وقريبٌ من مئتي سجين، صامتون واجمون ينظرون إليه. نكاد لا ندري؛ من مات ومن بقي حياً. نحن أم مهند؟

العنف والقتل والتعذيب، كان على الدوام، وما يزال، موقفاً من العالم كليَّ التركيب. هو جزء من بنية حضارتنا الحالية، والحضارات السالفة والمندثرة، تتداخل أسبابه بنتائجه في شرايين المجتمعات التي تنتجه، تداخلاً يحتاج إلى مبضع مزود بكفاءات القدرة، على سبر الجذر الموضوعي والثقافي الكامن وراءه.

هنالك كثيرٌ من التيه النفسي الجماعي للبيئات المنتجة له، وهنالك أكثر منه ثمة واقع اقتصادي وإنساني عام، لمن يعيشون أجواءه ويتنشقون هواءه. كل هذا العنف الغرائزي يحتاج إلى عيادة متكاملة، مزودة ومتصلة بكافة القدرات، وأدوات الاستقصاء والسبر لفهمه ومعالجته.

إن بؤس الأدوات المشرعة في الحرب على كل هذا العنف والاجتثاث الجمعي للناس، سيزود العنف بعنف مقابل بلا ريب، وبخبرات يتكيف معها كل هذا التوحش، وهذا الخواء الإنساني والروحي، وسيظفر بعد كل فشل في استئصال هذا القيح القبيح، لتاريخ دموي ما ينفك يتجدد، ويجددُ خلاياه؛ جيلاً وراء جيل.

على جانبي الأيمن، كان ينام في فترة من الفترات، قرويٌّ صلبُ المِراس، قوي الشكيمة، وعرُ الخلق. مع ذلك كان يذوي ويدخل فيما يشبه الموات السريري الروحي. وكان ما ينفك يحدثني عن ذكريات له، قد سلفت من الماضي البعيد، من مثل قوله:

– وچان أغسل وجهي. واذكر الله، وألف سيكارتي..

ثم يصمت قليلاً، قبل أن يستأنف الكلام:

– وأصلي عالنبي. وأتعوذ من الشيطان.. وأمد بارودتي، واصفگو فشگة بين عيونو..

كان هذا حديثه تقريباً في كل ليل، وبعد أن نهجع، أو نتظاهر بالرقود تحت البطانيات، خاصة إذا ما كان ينتظرنا في الغد، دور مهجعنا الأسبوعي في الخروج الى الباحة، للحلاقة الأسبوعية. كان ما ينفك يردد على مسامعي:

– الله يلعن عيشتن وراها الحلاقة.

واليوم، حين أتذكره، أردد في نفسي: ليرحمه الله. فقد مات بعدئذٍ في السجن، قبل أن نستكمل عامنا التاسع. أصيب بسكتة قلبية مفاجئة، عقب ترحيلنا من سجن تدمر، إلى سجن صيدنايا العسكري، ولم يحتمل أكثر من ذلك.

وعلى الجانب الأيسر، كان يهجع أبو حسن صوالحة، الذي عرض على المحكمة الميدانية بتهمة "رؤية منام". أما خلاصة الحكم الذي تلقاه أبو حسن، فكان – بعد استعار نقاش حامي الوطيس، أثناء انعقاد المحكمة الميدانية العسكرية الثانية – أن سأله اللواء سليمان الخطيب:

– هنت شفت بالمنام رسول الله، عليه الصلاة والسلام، عم بقلك بنومك (اصبروا.. فواللهِ إن الفرج قريب..)، ثم أضفت إلى المنام إضافة من عندك، وأشعت بين الناس في القرية، بأن الرسول قال لك: (انتظروا فقط ثلاثاً.. قبل سقوط هذا النظام.)؟

– يا سيدي هي العبارة، أنا لا شفتها، ولا أشعتها بين الناس، ولا كانت جزء من المنام. هي المخبر تبعكن أضافها زيادة من عندو عالمنام، والمحقق أصر بالقوة، وتحت الضغط والتعذيب، إلا يضيفها لإفادتي المدرجة بالضبط.

– خراس ولاك كلب. المخبر تبعنا ما بيكزب أبداً، والمحققين اللي عنا ما بيزوروا اعترافاتكن، ولا إلهن مصلحة يضيفوا شي من عندهن. أنت قلت انتظروا ثلاث، وهيك قاللك الرسول بالمنام. أنت قايل، والضيعة كلها بتشهد، وبتعرف إنو الرسول قاللك انتظروا ثلاث قبل سقوط النظام.

– يا سيدي، والله هاي زيادة ما كانت موجودة بالمنام، وسيدنا الرسول ما قاللي ياها. ولا إلي خبر فيها..

– كذاب.

– اي شو يا سيدي أنا اللي شفت المنام ولا انتو؟

– شوف العرص شوف. لسه بدو يجادلني وياخد ويعطي معي كمان. قلك الرسول هالحكي بالمنام ولا ماقلك؟

– لا، ما قللي.!

– ولك والله لأربيكن، وأعلمكن مرة تانية كيف تشوفو منامات بتضر بأمن الدولة.

فتدخل أحد مساعدي اللواء، قاضي المحكمة:

– يا ابني خلص. لا تظل تاخد وتعطي معنا، وتعرقل سير العدالة ووقت المحكمة، العبارة الأخيرة كانت جزء من المنام، وخلصنا.

وقد شعر أبو حسن بالعجز والإحباط، بعد أن أُسقِطَ في يده، فهتف بيأس وتضرع:

– بس والله هادا ظلم. والله هاي العبارة ما كانت جزء من المنام، ولا شفتها بالمنام.

فرد عليه اللواء سليمان الخطيب بهدوء وروية، وفيما يشبه المصالحة معه:

– ابني لا تفكر... نحنا هون ما منظلم حدا أبداً.

ثم استأنف القول:

– وبناء على أحكام الفقرة ز، من قانون العقوبات والجرائم العسكرية الواقعة على أمن الدولة، فقد تم الحكم على أبي حسن صوالحة بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً مع الأشغال الشاقة، وللأسباب التخفيفية، تقرر تخفيف الحكم إلى عشر سنوات مع الأشغال الشاقة، والتجريد من الحقوق المدنية والعسكرية، وذلك لأنه رأى مناماً مناهضاً لمبادىء وشعارات ثورة الثامن من آذار المجيدة، وتؤثر على معنويات الشعب، وتحض على النيل من المكتسبات والمنجزات الاشتراكية للمجتمع السوري والدولة السورية.

كانت المصيبة الأكبر أن الشرطة تسلطوا عليه، وتعاقبوا على تعذيبه بشكل يومي. حتى أصبحت الأوامر اليومية، أثناء الحلاقة، وفي فترة التنفس، لمسؤول عناصر اليومية في سرية التأديب، تصدر كل يوم:

– طالعولي هادا المهجع اللي فيه (أبو المنام)، واقدحولي كل واحد بالمهجع خمسين كرباج عالماشي، وأبو المنام نفسه خمسمائة كرباج قبل ما تدخلوهن عالمهجع.

الفصل ا لسابع

مرارات الروح

- 1 -

في السجن، تكتشف ذاتك الأخرى، أكثر مما كنت تأمل من البحث وتفتش. تنكفئ على عالمك الداخلي الساكن الراكد. الذي لم تزرْه ولم يزرْك إلا لماماً. بل ولم يزرْه أحدٌ قبلك. ثمة أغوار خبيئة داخل النفس، تُشعر بالسعادة إذ تتكشف لك، وأخرى تجلبُك بالبأساء والحزن.

في السجن تصبح النفس مثل جراب مقلوب على قفاه، لا تكاد تفطن إلى ماهو خارج هذه الجدران، ولا تحفل كثيراً إلا بتلك الجواهر المكنونة، التي تنكشف عليك فجأة، فتتحدى القيد أحياناً أن تفرط بها، أو تضعها في منزلة وضيعة كالهباء الطارئ الاعتباطي.

في المهجع 38 تتعرف على أنواع من الموت، لم تكن المخيلة بقادرة على تخيلها مجرد تخيل. فثمة موت دونَه ألفُ موتٍ وموت. هل هنالك، مثلاً، ما هو أشدُّ قسوةً على نفس الإنسان من الموت؟ كالإعدام؟ أو الجوع؟ أو العذاب النفسي والبدني المستمر بشكل دائم، أو الإهانات الجارحة، والتحقير اللفظي المدمر للنفس؟

وقد يصادف أن تسري شائعة في المهجع، بأن بيدونات الخل التي صنعتها مجموعة طعام حزب التحرير الإسلامي، الذي يترأسه فيصل كعكو هي من أزكى أنواع الخل لدى جميع المجموعات وأجودها.

– خل التحريريين لا يعلو عليه أي خل في أية مجموعة أخرى.

– صحيح. وأردأ نوع خل هو خل مجموعة "الفهنوات"..

و"الفهنوات" هي مجموعة شغب اللاذقية، وغلبت عليها هذه التسمية لكثرة ما كانوا يتداولون عبارات، مثل: (فِهْنِهْ = يوجد، ما فهمنه = لا يوجد، وعبهنه = املأه، شيلهنه = احمله، وضهنه = وضئه، حطهنه = ضعه). وقد طلبتُ ذات مرة، من أبي إسماعيل، أحمد جعفر، مقدار ربع بيدون خل تحريري، كما يلقبونه في المهجع. فقال:

– بصراحة أنا لا أتدخل في شؤون الطعام، ومسائل الخل أبداً.

اطلب من رئيس مجموعتنا أبي محمود كعكو وسيعطيك ربع بيدون خل فوراً.. يعطيك ربع بيدون خل، وسوف يبدأ معك سلسلة محاضرات للدخول في (فكر الحزب) مباشرة.

كان أبو اسماعيل رابع الأربعة، الأعضاء في خلية حزب التحرير التي تتبع للرقيب أول والحقوقي فيصل كعكو، وهو نقيب متطوع في الجيش، إضافة إلى مساعدَين متطوعين آخرَين؛ مروان دالي ونوح عبد السلام، (الذي كان يدعوه المقدم عبد الله شاكر، سيدنا نوح عليه السلام، حتى أصبح لقباً مشتهراً به في المهجع). قلت:

– أنا أحتاج ربع بيدون الخل الآن. أما الدخول في (فكر الحزب)، فأتمنى تأجيله لوقت آخر.

أحياناً كانت تنفجر بعض المشاكل العابرة دون مقدمات مفهومة. أو على الأقل دون مسوغات قد يكون الجميع على بينة من طبيعتها وأسبابها السابقة. مثلاً، في ذات ظهيرة، كان ثمة ما يقرب من أربعة فتيان أحداث، يقفون خلف شاب صغير من الأحداث، فوقف يتحدث بانفعال على ملأ من الجميع، ومن سمت منظر الشبان الأحداث العام، لم يكن لتخفى على أحد مظاهر التأييد المطلق، والدعم النفسي والمعنوي للحدث الشاب. بل وحتى الدعم الجسدي واستعمال القوة، إذا ما اقتضى الامر ذلك. والذي شرع فجأة يقول على الملأ، مجاهراً بصوت بليغ، قصد أن يصل إلى أسماع الجميع:

– يجب بسط حاكمية الله ومد سلطانه على الأرض، بقمع كل البدع وأهلها، وكل ما لم يأتِ من الله ورسوله. وعلى الأمة منذ هذه اللحظة أن تقرر، وأن تختار وتحدد أين تريد المسير، وأين يجب أن تمضي.

فتدخل رئيس المهجع حانقاً منتهراً:

– ما هذا؟ هل نحن هنا في حقل الخس، حتى يخطب فينا من يشاء بما يشاء؟

فقال الرجل الهادئ المحترم، نوح عبد السلام، كمن يبث شكواه لنفسه:

– الوضع لم يعد يطاق. نوشك أن نختنق داخلياً وخارجياً.

فابتسم المقدم عبد الله شاكر قائلاً:

– حكى سيدنا نوح عليه السلام..

وانبرى له المهرب العجوز، أبو حمد خلوف متصدياً، ومعترضاً بسخرية:

– ولك ابني انت كم سنة صارلك مفطوم عن بز إمك، لحتى توقف تخطب فينا خطب، وتوزع علينا حكي أكبر من عمرك. هاه؟ قال "على الأمة أن تقرر، وأن تختار" قال..!

وقال مهرب آخر، من مجموعة أبو أحمد خلوف، مؤيداً ومعاضداً:

– لا، الأحرى كان لازم تسأله، شقد صارلو مخلص مرحلة البوال الليلي في الفراش، ومن إيمتى صار يْغْلّم..!

فأجابه الفتى بحدة:

– أمي هي الثورة والتمرد عليكم يا سدنة الطواغيت، ولقد رضعت من بزِّها وما زلت أرضع راضياً. ولكن قل لنا يا أبو أحمد خلوف؛ من أي حليب رضعت أنت؟ طبعاً رضعت من حليب البعث. وتربيت على مساندة الجبابرة والطغاة، وتأييدهم ومهادنتهم من أجل لقمة عيشك، وعشت تحلم راضياً، بأن تأمن منهم، وأن يأمنوا منك.

– يا قبيري يا قبيري... هالولاد شو طالعين بيحكوا حكي كبير، أكبر منهن.

فتدخل مهرب آخر، يدعى أبو محمد سرغايا، غاضباً، مدافعاً عن أبي أحمد خلوف:

– لما كان أبو أحمد خلوف لعشرات السنين، يفطر بالبراري تحت رصاص الجندرما، ويتغدى فوق ألغام عساكر الحدود، كانت أمك لسه ما جايبتك بعدها.

تدخل أحد الفتيان مؤيداً ومعاضداً:

– أبو حذيفة، دعك منهم.. هؤلاء "فالج لا تعالج"..

– صدقت يا أخي أبو الدرداء.

بينا قال رفيقهم الآخر، مستشهداً بالآية:

– {وآخرين من دونهم لا تعلمونهم. الله يعلمهم}.

فصرخ رئيس المهجع في الجميع بحزم وبشدة:

– إذا لم تتوقف هذه الاستعراضات والمهازل، فلسوف أفرض صمتاً مطبقاً على كل أفراد المهجع، لفترة أربع ساعات متواصلة..!

فأردف أبو أحمد خلوف، غير عابئ بتهديدات رئيس المهجع وتحذيراته:

– ولك أنا ما بيقهرني، غير كلهن مسمين حالهن، أبو الدرداء وأبو دجانة وأبو حذيفة وأبو مدري شو..

فأيده طماشة من مكانه، وعن بعد:

– تعجبني ابن اختي أبو أحمد خلوف. كلامك صحيح. أساساً لو كان الاسم بينباع وبينشرى، كان الفقير سمى ابنو خرى.

– 2 –

لا القهر ولا الحسرة، ولا الانقطاع عن الأهل ونسيانهم لسنوات طوال؟ ولا كذلك الجرب والسل والكوليرا. وعشرات الآلام المختلفة، التي لا يُحلم بحبّةِ مسكنٍ أو علاج لها.

قد يعترض التفكر المتأمل كل تلك المقايسات ويجبها. وقد يجيب على تلك الأسئلة بتلقائية مستريبة: لا. ليس ثمة ما هو أقسى على الإنسان من كل ذلك. ولكن الاختبارات الأشد قسوة من كل ما ذكرت، كانت لها أدوارٌ وأطوارٌ، بحيث بدت كل تلك السلسلة من العذابات، وكأنها لا شيء. أجل لا شيء. لقد اختبرنا في تدمر عتبات من التجارب الجحيمية، حيث لا يموت فيها الإنسان ولا يحيا، ولكن كانت ذروة سنامها مرحلة العطش. ذلك الموت الذي دونه ألف موت وموت.

في أحد الصباحات، في الصيف التموزي الذي كان يشوي قلب الصحراء على موقد الشمس اللامبالية، كنا يومذاك نجتاز منتصف السنة التدمرية الرابعة، وجدنا صنبور الماء الوحيد، في دورة مياه المهجع مقطوعاً. لم يكترث أحد داخل المهجع بالأمر، وظننا أن الأمر مجرد عطل طارئ ومؤقت داخل السجن، أو خارجي من طرف شركة مياه مدينة تدمر. انتظرنا ساعة أو أكثر، وطال انتظارنا حتى الظهيرة.

حان موعد التفقد اليومي، حيث يصطف جميع عناصر المهجع أرتالاً خماسية، ليتسنى لرقيب اليومية المناوب أخذ العدد، كما جرت عليه عادة التفقد اليومي. يومها اشتكى رئيس المهجع من انقطاع الماء، فما كان من الرقيب إلا أن أجاب ببرود وخبث مُبَيَّت:

– بعرف المي مقطوعة. فيه عطل بالشركة وبدو وقت ليتصلح. طالعو عشر بيدونات فاضية، وخلي عشرة منكن يروحو عالباحة الأولى.

فيه صهريج بيعبي مي لكل المهاجع.

انقبضت قلوبنا قليلاً. وانتابنا إحساس بأن أمراً تفوح منه روائح كارثة ما، قد بدأ يحدث، أو سيحدث للتو، ولا عهد لنا به، ولا بألوان عذاباته من قبل.

بعد ملء البيدونات البلاستيكية العشر، تجرأ أحد شباب السخرة الذين ذهبوا لنقل الماء من الباحة الأولى، على سؤال أحد عناصر الشرطة:

– سيدي المي مطولة لتجي؟

أجاب الشرطي بوضوح، يشبه تسريب خبر سري، عن مؤامرة على وشك الحدوث، فيما يتم التكتم عليها:

– أي مطولة. لا تهدروا مي بعد اليوم. يمكن المي ما عاد تجي لخمسة أو ستة أشهر قادمة.

الآن بات واضحاً ومفهوماً ما يراد لنا، وما الذي ينوون فعله. لقد خططوا لتعذيبنا تعذيباً نوعياً ووحشياً، ولكن من نوع جديد مبتكر، وغير مختبَر من قبل. هي إذن بدء رحلة التعطيش حتى الموت، في مدينة صحراوية، يشوي الصيف فيها نداوة التراب وبرودة الهواء، وتجف الرطوبة تحت اللسان، حتى تنقلب الشفاه قطعاً من الفخار، ويصبح جوف الإنسان على مدار اللحظة، مثل جوف التنور المُحمّى. زيادة على كون ماء الشرب الذي تستقي منه مدينة تدمر، ماءً أُجاجاً كبريتياً، لا يستساغ إلا بحكم التعود عليه، واعتياده كضرورة لا تملك الطبيعة الصحراوية خياراً سواه.

ويل أمها من أيام..!!

لا تَمُرِّي بعد تلك اللحظات، على إنسان ولا حيوان ولا شيطان. فإن الإنسان والحيوان والشيطان أضعف وأوهن وأوهى. ويا أيها العذاب اللا إنساني. حبذا لو رفعت يداً عن البشر الواهنين. وكففت عن الأولين والآخرين. حتى يغفر الشقاء ما تقدم من ذنبنا وما تأخر.

جمع رئيس المهجع – الرائد عثمان أصفر – بعض كبار السن من حكماء المهجع، ورؤساء كل مجموعات الطعام، لمناقشة الحلول الممكنة والمتاحة لهذه البلوى غير المتوقعة، وبعد طول حسابات دقيقة للكمية المتاحة لحوالي 206 سجناء، (عدد سكان المهجع 38)، تم تقسيم كمية

الماء المخصصة للمهجع، على الشكل التالي: توزع كمية من ماء الشرب لكل مجموعة طعام، عددها حوالي عشرين شخصاً، بمقدار ثلاثة مطربانات طحينة فارغة، مملوءة ماء شرب، أي ما يناله كل شخص في المهجع من ماء الشرب، يساوي مقدار ملء غطاء علبة الطحينة البلاستيكية، ثلاث أو أربع مرات يومياً (غطاء علبة الطحينة كان يتسع لما مقداره أربع ملاعق طعام مملوءة بالماء، وبهذا تكون حصة الفرد الواحد يومياً حوالي عشر، إلى اثنتي عشرة ملعقة طعام مملوءة ماءً كل يوم)، كما تم مناقشة أوضاع المرضى بأمراض خطيرة، ومقدار الزيادة الممكنة التي ستعطى لهم اضطراراً، وخصص أقل من ربع بيدون لدخول الدورة، لمرة واحدة خلال أربع وعشرين ساعة، إذا كان مقتضى قضاء الحاجة لإفراغ الغائط فقط، فقد تم إلغاء أي كمية ماء (للي بدو يدخل عالدورة ليسوي "الصغيرة")، ثم صدرت تعليمات لاحقة بعد أيام، بإلغاء كل كمية ماء مخصصة لقضاء الحاجة، وتدبر الأمر بالتنشيف عن طريق قطعة قماش. كما تم منع الوضوء والاغتسال من الجنابة اعتماداً على التيمم.

بقيت مشكلة غسيل جاطات الطعام، وصحون وأواني الطعام الأخرى، فاتخذ قرار بأن يتم مسحها مسحاً أولياً، وتنظيفها بالتنقيط الخفيف دون شطف. كما تمَّ اعتماد قرار بمنع غسيل الجسم وشطف المهجع، أو غسيل أية بطانية أو عازل نهائياً.

انتاب الجميع انطباع أولي، بأن هذه الحلول تشبه مسح شفاه المحتضر، حين يكون في النزع الأخير، بقطعة قماش مبلولة. لا ليتحسن وضع المحتضر، ولا كذلك لكي يؤخر مسح شفتيه قدوم الموت لحظات، ولكن ليقنع الحي نفسه، ويريح ضميره أنه فعل كل ما بوسعه، وأبرأ ذمته استعداداً لوقوع قدر الله.

كمية الماء اليومية لمهجع ضم أكثر من مئتي سجين، لا تكفي، حقيقة، في ذلك الصيف القائظ، لاثنين أو ثلاثة فقط. وما زلت أتذكر إحدى المرات التي فقدتُ فيها كل قدرة على الاحتمال، فذهبت إلى سخرة الجلي، وطلبت منهم فضلة ماء التنقيط المتبقية، والمجموعة من غسيل كل أواني جلي المهجع. كانت لزجة سميكة ثخينة القوام كالزفت، لونها رصاصي كالزئبق، ولا طبيعة أو قوام يمكن وصفه مما يشبه الماء تقريباً.

فشربتها دفعة واحدة. شربتها دون أن أفكر أو أتذكر، حتى اليوم، ماذا شربت، وماذا كان طعمها. كذلك أتذكر اليوم، قبل هذه المحنة الجديدة، أن كل من كان يجالس صديقاً في المهجع، فإنه يُضَيِّفُهُ أنفسَ وأغلى ما يملك: حز خوخ يحتفظ به منذ أيام، أو بعض نوى عجوة المشمش، التي ربما كان يدخرها منذ سنة أو أكثر، أو ربع تفاحة صغيرة من بقايا ما يسمى الدوسير..

بعد هذه الحلقة الجديدة من امتيازات العذاب المتنوعة، أو مرحلة العطش التي تشوي الأكباد والأحشاء، صارت الضيافة المألوفة بين أفراد المهجع، ملعقة ماء صغيرة. وحين تجالس رفيقاً أو صديقاً حميم العلاقة، فإن أكبر مظاهر الحفاوة والكرم أن يضيفك ملعقة ماء. طبعاً بعض الكرماء جداً والموصوفين بالتبذير الجنوني، والمسرفين في كرم يؤاخذ المرء عليه، كان لديهم استعدادات أن يضيفوا ملعقتين أو غطاء علبة طحينة كاملاً مليئاً بالماء. كانت هذه بالطبع حالات نادرة من الكرم المتهور، لن تجد لها نظائر إلا في الشعر الجاهلي والكتب القديمة، التي تتحدث عن كرماء العرب وأجوادهم.

لم تنتهِ حقبة العطش التي استمرت خمسة أو ستة أشهر بسلام، دون أن تخلف آثاراً. لقد أعادت إلى مهجعنا وإلى السجن كله فترة الكوليرا والجرب من جديد، بعد أن انتهت وأصبحت شيئاً لا يذكر، أو أثراً من آثار السنتين الفائتتين، وفاقمت من أوضاع مرضى السُكر. وفجرت وباء السل الذي كان محصوراً في مهجع واحد، ليشمل – بعد محنة العطش تلك – السجن كله في أقل من سنتين قادمتين، وضاعفت أمراض الكلى والبحصة عشرات الأضعاف.

كذلك كان ثمة مشكلة أخرى بدأت تظهر وتتفاقم، وتبدو وكأنه لا حل لها نهائياً. وهي انتشار الأمراض التحسسية بأشكال مختلفة، خاصة التحسس الأنفي الذي يؤدي إلى سيلان الأنف بصورة مستمرة، واحمراره وانتشار الآلام، مع شعور بالحرقة في الحلق ومجرى الخيشوم الداخلي. وذلك بسبب اضطرار الجميع إلى ترتيب ونفض البطانيات صباحاً أو مساء.

وللمرء أن يتصور، أن أقل عدد البطانيات لدى كل سجين، زيادة على العازل الذي يُفترش تحت البطانيات، كان ثلاثاً. مما يعني أن هنالك

قريباً من ثمانمئة بطانية وعازل عسكري – في الحدود الدنيا – كان يتم تسويتها وترتيبها، ونفض الغبار والأوساخ عنها، مما يشكل غمامة دائمة في جو المهجع، من غبار البطانيات وذراتها الناعمة المتطايرة، والتي تبقى مهومة في فضاء المهجع لسنوات عدة، وليس لأيام. والتي لن تجد مهرباً أو مفراً من تنفسها واستنشاقها في الليل والنهار.

– 3 –

وذات مرة حدثت مصادمة علنية بين المهرب العجوز أبي أحمد خلوف، وبين رئيس المهجع الرائد عثمان أصفر. وذلك بسبب لغو العجوز الدائم، وفظاظته وكلماته المهينة والجارحة للضباط والعسكريين من أفراد المهجع، والذين يناهز عددهم تقريباً نصف عدد أفراد المهجع 38. حيث صرّح أبو أحمد خلوف، على ملأ من الجميع – كعادته – بأن هؤلاء الضباط لا يساوون شيئاً، وأن كل نصيبهم ومعرفتهم بالجيش والحرب والعسكرية، ليس أكثر من معرفة طلاب الفتوة في المدارس الثانوية، بـ "فك وتركيب البارودة الروسية"، ليس غير..

ولأول مرة أجد الرائد عثمان أصفر، قد غضب وخرج عن طوره قليلاً، وهو المشهور بطول البال والصبر الجميل وسعة الصدر، في كل أمر طارئ، مهما استدعى غضباً أو أثار غيظاً. ورأى المهجع بأسره الرائد عثمان أصفر، وقد وقف وقفة "على العام"، كما ندعوها، وخاطب المهجع كله قائلاً:

– سمحت لكم بفرصة غيبة ونميمة ووشايات على بعض، لمدة عشر دقائق يومياً، بعد الفطور الصباحي. ولكن يبدو أن بعضكم قد أباح لنفسه، أن يمدد الفترة من عشر دقائق، إلى عشر ساعات.

فأردف الشيخ عبد الستار حداد، معقباً على كلام عثمان أصفر:

– هذا الكلام لا يجوز شرعاً يا أبو محمد. فالغيبة والنميمة لا تجوز في شرعنا، نحن المسلمين، لا عشر دقائق ولا عشر ساعات.

والشيخ عبد الستار، (الذي يلقبه الجميع تحبباً بلقب "سيدنا الشيخ")، هو شاب حموي، متخرج من كلية الشريعة، وهو بمثابة مفتي المهجع، وموجهه الديني والروحي، ومرجع العلم الشرعي للغالبية في المهجع.

فتساءل أبو بكري الصوص:

– هلق سيدنا الشيخ.. إذا واحد اغتاب أبو محمد حسن خبازة، اللي قللو الكريم خود، غيبة بظهرو، ونمّ عليه نميمة. تُعتبر هي ذنب عند الله؟

– طبعاً تُعتبر ذنب. (ذِكْرُكَ أخاكَ بما يكره) يعتبر كبيرة من الكبائر.

– بس أبو محمد خبازة، كلو على بعضو، ومن فوق لتحت. شلون ما جيت تحكي عنو، ما بتحسن إلا تذكرو بما يكره. العمى والله هي مشكلة، شلون بدنا نحلها؟

تجاهل "سيدنا الشيخ" عبد الستار، كلام أبي بكري، منصرفاً إلى حل المشكلة القائمة بين أبي أحمد خلوف، ورئيس المهجع عثمان أصفر:

– يا أبو محمد بدك تطول بالك شوي على أخونا أبو أحمد خلوف. وأنت يا أبو أحمد خلوف، بدك توعدني انو هالعبارات الجارحة والفظة، اللي بتستخدمها أحياناً، سواء بحق أخونا أبو محمد أصفر، أو بحق أي أخ آخر، لازم تراقب نفسك وتنتبه للفظك..

فقال أبو أحمد خلوف:

– أنا ماصادمت أحد، ولا تشاجرت مع أحد يا سيدنا الشيخ عبد الستار. بس كانوا ملتفين حلقة حول أبو محمد أصفر، وعم يحكيلهن عن مادة اليورانيوم. بصراحة أنا شفت الحكي كلو خرط وحكي فاضي، بيدل عن جهلو وجهل كل الضباط باليورانيوم. أنا بس قلت هالضباط اللي بمهجعنا، كلهن أغبيا وجحاش. ولا بيعرفو شي عن العسكرية أصلاً. ولا شافو اليورانيوم بحياتهن. أصلاً هذول الضباط شو بيعرفهن باليورانيوم، ولا وين شافو اليورانيوم بحياتهم؟ وأعدم نظري إذا أنا حكيت غير هالكلمة. أساساً أنا يدوب بحكي كلمة وحدة كل ست أشهر.

– وأنت، أبو أحمد، بتعرف اليورانيوم؟

– يا قبيري أنا اللي بعرف اليورانيوم.. إذا كنت أنا ما بعرف اليورانيوم، ومشتغل فيه كثير كثير، أصبح مافي إنسان بكل هالدنيا بيعرف اليورانيوم، أو شاف اليورانيوم.

– مشتغل فيه كمان؟ شو مشتغل فيه؟ صنعت من اليورانيوم قنبلة ذرية مثلاً بزماناتك أبو أحمد خلوف؟

– لا، أنا ما صنعت قنبلة ذرية، ولا حاولت، ولا بدي أصنع. أنا زلمة

بس بشتغل بالتجارة. بس ببيع وبشتري. وياما مشتري يورانيوم وياما بايعو، وياما هربتو مع حمولة البضاعة، وبعتو لليورانيوم..

– ولوين كنت تهرّب اليورانيوم أبو أحمد؟

– يا قبيري يا قبيري. قال لوين هرَّبت اليورانيوم قال؟ هذي مفروغ منها يا قبيري. انت مخك مسكر بنوب يا سيدنا الشيخ؟ طبعاً هربتو على تركيا لوين بدي أكون هربتو؟

– أبو أحمد، اليورانيوم من المواد المعدنية المشعة والنادرة جداً. بينباع بالغرامات القليلة جداً، وسعره غالي جداً جداً. انشالله انت مفتكرو مثل تتن الدخان الفرط؟

– اسمعوا على هالحكي. كأن أنا ولد صغير ما بفهم، ولا شايف اليورانيوم، ولا مشتغل فيه. طبعاً سعرو غالي. ماني عارف انو سعرو غالي كثير.

– وكيف كنت تهربو وتدخلو على تركيا. بس لا تقلي على خراج الحمير؟

– يا قبيري قال كيف كنت أهربو. طبعاً كنت أعبي كل خرج من أخراج الجحاش اللي عندي يورانيوم، وأعبر فيهن على تركيا. كنت أكبس كل خرج جحش عندي كبس، لحتى أمليه يورانيوم. وكل أهل القلمون بيعرفوا هذا الشيء. حتى اسأل كل أهل النبك وقارا ودير عطية. اسأل، إذا بدك، كل أهل جيرود ويبرود وسرغايا ومضايا. الكبار والصغار، إذا بدك اسألهم. بس قول أبو أحمد خلوف، أو أبو أحمد عسال الورد، وشوف شو بيقولولك. الكل بيعرفو انو حمولة خراج الجحاش اللي عندي، كانت تمتلي يورانيوم، وأطلع فيها من عسال الورد لتركيا.

فتدخل أبو اسماعيل، أحمد جعفر، في الحوار قائلاً:

– أبو أحمد، طول بالك. لا يروح تكون متوهم شوي، أو غلطان. بلكي أنت مخربط بين الفريكة أو الكزبرة أو حبة البركة، وبين اليورانيوم؟

– اسمعوا على هالحكي؟ قال مخربط قال؟ أي شو أنا ولد صغير ما بعرف اليورانيوم، لحتى أخربط بينه وبين الكزبرة؟ أنا رجل عمري اليوم ستين سنة، مشتغل خمسين سنة منهن بالتهريب، كيف ما بعرف اليورانيوم؟

فسأله أبو اسماعيل:

– وشقد كنت تربح باليورانيوم؟ يعني الكيلو، شقد كان يجمع معك مربح.

– والله المربح بركة من الله يا أبو إسماعيل، ما فينك تحزر عليه. مرات الكيلو بيجمع خمسطعش ورقة. مرات بيربح خمسين أو ستين ورقة. مافي سوق سعر ثابت لليورانيوم.

بينما علق أبو بكري الصوص، بصوت خفيض، لرجل كان بجواره:

– الله لا يوفقو لحافظ أسد. ما خلى حدا داشر وشارد بهالبراري وهالشوارع، من أمثالي مثلاً، وأمثال أبو أحمد خلوف، إلا وجابُن عالسجن. قال على أساس سياسيين قال.

بينما علق أبو محمد طماشة على الموضوع قائلاً:

– أبو أحمد عسال الورد خيالو خصب شوي. هيك بيقولو المسئفين الفهمانين من أمثال أخونا سعدات بهجت. مابتطلع معاهن يقولو بيكزب، بيخصوروها شوي، بقولوا خيالو خصب.

– وأنت أبو محمد طماشة، شو رأيك بكلام أبو أحمد خلوف؟

– والله ياخيو أنا ماني مسأّف ولا بفهم، لا بيورانيوم ولا بغيرو. نحن ناس منمشي الحيط الحيط. بدنا نعيش بس. ما منعرف نشتغل غير بالتتن الفرط. أما أبو أحمد خلوف، يبدو شغلتو كتير كبيرة.. كبيرة.. بس صعب.. صعب.

– شو هو اللي صعب أبو محمد طماشة؟

– أنا بعرف انو صعب الواحد يكون سمين وسجين بنفس الوقت. يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم.

فعلق أبو أحمد خلوف على قول طماشة، مشيحاً بيده بما يشبه الاستهانة:

– عيفك منو هذا طماشة. هذا المسكين بشو بيفهم يا قبيري عليه. بتوقع الجحاش اللي بيهرِّب عليها، أذكى منو بكثير، وآخذة شهادات بالفهم أكثر منو.

فجعل طماشة يرمق أبا أحمد خلوف بازورار حاد، بينما رفع صوته عالياً حتى سمعه كل من في المهجع:

– إن "المنافئين" في الدرك الأسفل من النار.

- 4 -

ذات فجر، قبل شقشقة الضوء بحوالي ساعات.

فتح باب المهجع 38 فجأة. كان جميع من في المهجع نياماً، أو هكذا بدا من حيث الظاهر. دلف الشرطة إلى داخل المهجع، وقرؤوا اسمي بصوت واضح. ثم طلبوا مني أن أجمع أغراضي وأمضي برفقتهم.

بعد مضي زمن طويل تقادم على هذا الحادث، قال لي كثيرون في المهجع؛ إنهم ظنوا فيما يشبه اليقين لأول وهلة، بأن الشرطة قد غدوا بي نحو ساحة الإعدام. ولما كنت محكوماً لفترة خمس سنوات، فقد أسقط الكثيرون هذا الاحتمال، ونزعوه من مخيلتهم، ودعك من المهولاتية والسابحين دوماً في التخيلات المعقولة وغير المعقولة. كما رجح الأغلبية بعد ذهابي مع الشرطة، بأن شأن استدعائي في مثل هذا الوقت المفاجئ حقاً، لا يمكن أن يعدو إلا أمر استعادة إلى أحد فروع المخابرات، بغية إعادة التحقيق معي، أو استكماله لطارئ ما قد حدث فجأة، في شبه يقين مؤكد.

وبعد 37 يوماً مضت في الانتظار، علمت بأن الأمر هو أمر زيارة خاصة استطاع والدي أن يحصل عليها، رغم صعوبة الظروف واستحالتها في مثل ذلك الوقت. وبناء على توجيهات خاصة، تم نقلي من سجن تدمر إلى فرع التحقيق العسكري، لغرض اللقاء بوالدي، بعد مرور أكثر من سنتين مرت على الاعتقال.

في التحقيق العسكري أودعوني في زنزانة جماعية تحت الأرض بطابقين. وهنالك، حيث لا يمكن تمييز الليل من النهار، ولا صباح من مساء، شرعت أتحسس، على ضوء نور خافت، المعتقلين المودعين داخل تلك الزنزانة الضيقة. كان عدد أفرادها قريباً من العشرين فرداً. وأبرز ما ميزته هو ذلك الرجل النحيل، ذو الشعر الطويل المتجعد، والذي كثّ من الأوساخ، وقد طُرح جانباً، وهو يتوجع ويكاد يصرخ لشدة مالقي من ضرب مبرح، منذ لحظات. بينما انكب فوقه بضعة شبان، أخذوا يمسحون جروحه، والكلوم التي أحدثها التعذيب الشديد في جسده، فقد بللوا خرقة، راحوا يمسحون بها جسمه نصف العاري.

علمتُ وقتئذٍ أن الرجل كان محامياً من اللاذقية اسمه نعمان قواف.

وأنه قد عاد من غرفة التحقيق لتوه. وأن ثمة أمراً جللاً قد حدث بينه وبين المحققين، منذ لحظات سبقت دخولي الزنزانة. وسمعت الحكاية من الآخرين في الزنزانة. حيث كان المحامي نعمان قواف، قد راح يجادل جدالاً، معترضاً وساخراً ومحتقراً كل المحققين الذين اجتمعوا حوله.

كان المحامي نعمان يقول للمحققين:

– ياسيدي طيب شو الأزباب اللي بتدفعكن لحتى تفترضوا هيك تهمة بحقنا..؟

فانفجر المحقق وقد استطار من الغضب:

– ولك يا حيوان، أزباب تدفع أمك وأبوك وعشيرتك واللي خلفوك. قول أسباب ولاه. أسباب بالسين مو بالزاي. شو هنت محامي وما بتعرف تلفظ حرف السين منيح؟

– ياسيدي آسف وعدم المؤآخذة إذا قللت أدب مع حضرتكن. والله مو قصدي. بس نحنا هيك باللاذقية متعودين نلفظها. ما بتطلع معنا غير هيك.

– ولك هنت محامي ولاه؟

– إي نعم يا سيدي، وفاتح مكتب محامي وعندي محامين متمرنين بيتدربوا بمكتبي. إذا حبيت تشرفنا نهار بشي زيارة، نحن بالخدمة والله.

بس أنا كنت عم قول: يعني شو الأزباب اللي خلت قيادتنا الرشيدة الحكيمة، إنها تعتقل هالعالم كلها بدون مذكرة توقيف.؟ يعني فيه أزباب قوية ومستوجبة لهذا الشأن ال–.....

– آمنت بالله على هيك محامي.! ولك لسه الحمار بيقول أزباب.! ولك انت أجحش مخلوق بالدنيا عدا عليّ.

ثم صرخ المحقق في الجلادين المحيطين به:

– اضربوه. اجلدوه حتى الموت.

بينما صوت الرجل تعالى بينهم صارخاً:

– وليش الضرب سيدي؟ شو الأزباب اللي بتدفعكن لتضربوني كل هالضرب.؟

بعد سبع سنوات مضت على افتراقي عنه، في فرع التحقيق العسكري، علمت بأن المحامي نعمان قواف قد نقل إلى سجن المزة، حيث نفذ فيه حكم الإعدام شنقاً هنالك.

كان ثمة داخلاً تلك الزنزانة، ذات الضوء الخافت، والتي تشبه القبر، اثنان أو ثلاثة رجال عراقيين، مقبوض عليهم في أماكن متفرقة. فكان يتناهى إلى مسامعي بين وقت وآخر، بعض لغطهم وشتائمهم ومزاحهم فيما بينهم. كنت أصغي إليهم، أو أسمعهم يتشاتمون فيما بينهم، كلما أرادوا التعبير عن احتجاجهم، وكلما كانوا يغضبون من بعضهم أو من الآخرين، وهم يرددون فيما بينهم:

– عظم سني بقبر ابوك.

فسألت أحدهم مستوضحاً:

– ولكن ما معنى هذه الشتيمة؟

فشرح لي في نوع من عدم الاكتراث واللامبالاة، بأنهم يعتبرون أن عظم السني أنجس شيء موجود في هذا الوجود.

فقلت لذلك الرجل العراقي:

– حسناً. هذه فهمتها. ولكن لاحظت أنه حتى السُنة بينكم، يشتمون بعضهم أحياناً بها.؟ قال:

– صحيح. السنة يرددونها تقليداً، لأنها شائعة على الألسن. نحن جميعاً نقولها بدون تفكير في مضمونها. أخوي عادية عادية لا تاخذ الشي بالشي.

فعلاً. لم آخذ الشي بالشي. وابتسمت قائلاً لذلك العراقي:

– روح انشالله عظم سني بقبر أبوك.

بينما سمعت زياد مكية، ذلك الشاب الجميل الرائع، ابن حي الميدان الدمشقي، يقول ممازحاً رفيقه نضال درويش، وهو الشامي الميداني أيضاً:

– ولك قوم ياخي اجلي الجليات يرضى عليك. اليوم دورك بالجلي.

بينما نضال يرد عليه ممازحاً:

– ولك روح انشالله عظم سني بقبر ابوك يا زياد.

في إحدى زوايا تلك الزنزانة، كان قد تجمع قريباً من مجموعة مؤلفة من خمسة أشخاص. وقد انتحوا جانباً، ونأوا بأنفسهم عنَّا نأياً مُنكراً. لم أشعر حيالهم بأية كراهية. كانت مشاعري محايدة تُجاه كل شخص أراه، أو أتعرف عليه في السجن. لا أستطيع في الاعتقال إلا أن أعمل بأحد مبدأين اثنين: إما أن أتخذ من الآخر صديقاً، أو أنحشر أنا ومشاعري في زاوية الحياد، وبعيداً عن كراهية الموقف المسبق. أما هم،

رئيسهم الكبير الأصلع، والشبان الثلاثة الذين كانوا ينفذون أوامره دائماً، فيبدو أنهم كانوا يعايشون لحظات رُهاب لم تكن بواعثه واضحة لأول وهلة، واختلاط مشاعر غير طبيعية.

كان "الكبير"، يتعمد أن يصدر إليهم الأوامر بصوت مسموع، ربما عن قصدٍ، متقصداً أن يجرح مشاعرنا جميعاً، أو أن يغيظنا. أو أراد أن يرسل رسائل مبطنة لقيادة فرع المخابرات أنه، هو و" الزلم تبعو"، شيء مختلف عنا كل الاختلاف.

وربما كانت الأسباب؛ لا هذا ولا ذاك. إنما كان يريد أن يشيع في نفسه جواً من الطمأنينة، وحرارة اليقين بأنهم (مجرمون عاديون لا أكثر). أو (قضائيون)، كما كنا نطلق عليهم، وهي تسمية تُذَكِّر المعتقل فوراً بالسجن المدني ونعيمه ورفاهيته، الذي يقضي سني عمره، وهو يحلم بها كما يحلم العابد الزاهد بالفردوس الأعلى في النعيم.

اعتدت على صوت الكبير الأصلع خلال أيام، وهو يصدر لهم أوامر من النوع التالي:

– لا تقربوا عليهن. لا تقعدوا معهن. نحنا شي وهالناس هي شي تاني. هالخلق هي توبها مو من توبنا.

يجيبه أحدهم – وكان عبيطاً أبله، كحالة سريرية مشاهدة –:

– شو يعني؟ شو قصدك؟

– ولك يا ابني نحنا عصابة نصب واحتيال. هيك سجلونا بالتحقيق. هيك كتبتنا الدولة بالتحقيق. يعني نحن شغلتنا بسيطة. عم تفهم يا بهيم. نحن لسنا أخواناً ولا مجرمين، ولا يمين ولا يسار ولا شيوعيين. ولا منشبه هالعالم هي كلها. بعّد لي عنهن ولا تخالطهن، ولا تحكي معهن بنوب. الله يرضالي عليك. نحن عصابة نصب واحتيال. فهمت ولك ابني، ولا أرجع أشرحلك ياها.؟

يعاود صاحبه "البهيم" السؤال:

– إي.؟ وشو يعني؟ شو رح تفرق هيك ولا هيك؟ ما نحن كلنا مساجين متل بعض؟

يغضب الكبير عند هذا الحد:

– ولك يا أمة الله. بقللو نحن مجرد عصابة نصب واحتيال، مانا عاملين شي، ولانّا سياسيين، وما علينا شي. ولك يعني يا حمار؛

بالمشرمحي، هدول كلهن بكرة رح ياخدوهن على تدمر، ونحن لأ. نحن قضائيين رح نتحول على سجن عدرا. فهمت ولا لسه. نحن كم شهر منتحاكم ومنطلع. هي خلوها علي المحاكمة والطلعة. حفظان كل هالدروس شي عشرين مرة قبل هالمرة. بس يا ويلكن اذا حكيتوا مع هدول الـ. أو قربتو على شي واحد من هالنّمَر هي. ما بتعرف. بجوز يشوفك السجان ويوصلها للمحقق. بتتغير قضيتنا فوراً. والله إذا لمحونا معاهن لينخرب بيتنا. والله اذا بتحكوا مع هدول الناس بينخرب بيتنا كلنا. ما بتعود الدولة بتعتبرنا بعدين عصابة نصب واحتيال. خدوا حذركن يا شباب، ما صفي غير كم يوم وبيتسفروا الكل. هنن على تدمر، ونحنا على عدرا.

خلال بضعة أيام كنت أسمع هذا "الموشح" صباح مساء من "أخوتنا عصابة النصب والاحتيال"، حتى جاء اليوم الذي أزف فيه موعد التسفير من الفرع، بعد أن قضيت فيه أكثر من شهرين في تلك الزنزانة.

حين نزلنا من الباصات، واصطففنا للتفقد أمام مكتب اليومية، لمحت "الشباب الأربعة إياهم". وسمعت المساعد المشهور باسم "أبو جهل"، يخاطب أحد عناصر الشرطة بالقول:

– خدلي هدول الجحاش الأربعة على الباحة الأولى. نزلهن على دولاب الاستقبال، وسوّي معهم الواجب كالمعتاد، وبعدها دخلهن على مهجع البلديات (القضائيين)، مشان من بكرة ينزلو عالخدمة ويعلموهن رفقاتهن عالشغل.

سمعت صوت الأصلع، أكبرهم، خفيضاً ذليلاً يرشح رجاءً وضراعة:

– يا سيدي. نحنا جماعة النصب والاحتيال. الله وكيلك مانا معهن.

وأبوجهل يرد عليه وهو يمضي:

– كول خرا وخراس ولاك كلب.

أبو عبدو البغل

– 5 –

أعادوني إلى سجن تدمر بعد أن تم استدعائي إلى فرع التحقيق العسكري، بعد السماح لوالدي بزيارتي في السجن، زيارة خاصة عام 1982، حيث قضيت قرابة أكثر من شهرين، في تلك الزنزانة الجماعية الواقعة تحت الأرض في التحقيق العسكري، وحين تم تحضير "قافلة المساجين الجدد"، للتحرك نحو سجن تدمر، كنت أنا (مُعاداً)، كما كانوا ينادونني وقتها. وصلنا الباحة الأولى، ونزل من الباصين الكبيرين عدد من السجناء، زهاء مئة سجين أو أكثر، لم أكن أعلم أن رفاق طريق العودة إلى تدمر هذه المرة، كانوا في معظمهم يساريين، من حزب العمل الشيوعي. يجمعهم رابطة التنظيم اليساري الجديد، وبسبب منشور تحريضي شديد اللهجة ضد السلطة، وُزّع على نطاق واسع في مدن الساحل، صدرت الأوامر باعتقالهم جميعاً، وعلى مسؤول مكتبهم السياسي، فاتح جاموس.

ولقد كان لمحض الصدفة أن جمعتني، أثناء إعادتي إلى سجن تدمر، بفاتح جاموس، المسؤول الأول في رابطة حزب العمل، وبأعضاء اللجنة المركزية والمكتب السياسي، وعدد كبير من كوادر وقواعد أعضاء الرابطة، ولم أكن قبل تلك الصدفة قد سمعت بهذا التنظيم.

كانت الشمس على وشك المغيب، وتقرر تأجيل "دولاب الاستقبال"، وحفلة العقوبة التي هي فريضة لازمة من لوازم أي داخل جديد إلى السجن، والتي غالباً ما كانت تخلف شهداء ومعوقين إعاقات دائمة، بسبب قسوتها الزائدة عن كل ما يمكن أن يمر على سجين في تدمر.

انتهى تسجيل أسماء السجناء الجدد في باحة اليومية، وصدرت الأوامر من المساعد أبو جهل بإيداعهم في المهجع الأول حتى الصباح، للفراغ من عقوبة استقبالهم وتوزيعهم على مهاجعهم المخصصة لهم.

وسمعت الشرطي يسأل المساعد سؤالاً بخصوصي:

– سيدي والسجين القديم المُعاد؟

أجابه المساعد أبو جهل ببرود، وهو يمضي:

– خليه معاهن للصبح. والصبح رجعوه على مهجعو.

هكذا توافر لي من مساء ذلك اليوم، حتى ضحى اليوم التالي، فرصة

زادت على اثنتي عشرة ساعة، أمضيتها كلها، ودون نوم، حتى صباح اليوم التالي، في جلسة مسامرة ومحاورة طويلة، مع فاتح جاموس ومعظم قيادات الرابطة الذين عرّفني بهم.

تحدثنا أحاديث طويلة متعددة ومتنوعة، سألني كثيراً عن سجن تدمر، وعما كان الناس يسمعونه من رعبٍ وغموضٍ يكتنفان سيرة هذا المعتقل وأسراره، وسألته عن أبرز الأحداث، وما كان يجري وقتها من تطورات لأوضاع البلد بشكل عام. خاصة أن مذبحة حماة الكبرى كانت حديثة العهد، لم يمضِ عليها أشهر. وقد لاحظت اضطراباً عاماً وخوفاً شديداً مما كان ينتظرهم من حفلة الاستقبال.

وأخيراً نفَّسَ فاتح جاموس بعض احتقانه وجزعه الشديد، بالتساؤل قائلاً:

– ألا يوجد أية طريقة للخلاص من دولاب الاستقبال؟ قلت:

– لا أظن. التعذيب الأول والدولاب، لا أمل في إسقاطه كعقوبة عن أي سجين. قال:

– وبعد الاستقبال؟ هل حقاً بأنهم سيظلون يعذبوننا إلى نهاية العمر؟

قلت:

– نعم. النظام العام في سجن تدمر يقتضي تعذيب السجين ليلاً ونهاراً، وبشكل دائم دون توقف. وهذا السجن وجد لهذا الغرض.

بدا الرجل وكأنه يوشك أن يغمى عليه من شدة الجزع والإحباط والخوف:

– وعلى مدار سنوات؟

– نعم. لا أعتقد بأن هنالك أملاً ما.

قلت:

– أستطيع أن أعطيك فكرة عامة مختصرة عن السجن وعن السوريين بشكل عام كيف يعاملون. هل قرأت الكوميديا الإلهية لدانتي؟ يقول دانتي في وصفه للجحيم في الكوميديا الإلهية: (مكتوب على بوابة جهنم الخارجية: أيها الداخل إلى هذا المكان، تخلَّ عن كل أمل). وتدمر شيء يشبه هذا الذي وصفه دانتي.

في الصباح افترقنا، أنا المُعاد – كما أسموني – حيث أعادوني إلى

مهجعي، المهجع 38 في الباحة السابعة، أما فاتح جاموس ومجموعة الرابطة الأولى، الذين كانوا في صحبته، فقد ساقوهم إلى دواليب الاستقبال. كنت أسمعهم وأسمع أصوات صرخاتهم والكرابيج تنهال عليهم، وأنا أبتعد عنهم، في رفقة الشرطة نحو الباحة السابعة، حتى توارى الصوت واختفى عن سمعي.

– 6 –

السجن يعني موت البطولة الكامنة فيك. هو سلسلة من الانكسارات والتقصفات والخضوعات المتوالية بلا حساب. لا للجدران المطبقة وللجلادين والقتلة فحسب، بل الأحرى، حتى للسجناء الآخرين الذين يعيشون من حولك. ولقد كان شعور المرارة هذا، يورثني هياماً وإعجاباً بأولئك النفر القليلين، الذين كانوا يتعملقون ويتعالون بأخلاقهم السامقة، التي تطاول خلق الأنبياء وطبائع القديسين، وبشعور بالغيرية وإنكار الذات، الذي يسحق كل من يتعرف إليهم عن كثب، حين يتكشف له عن قرب وكثب، أنه مجرد إنسان. مجرد إنسان لا أكثر. وليس لديه ثمة أمل كبير أن يستعلي على كونه مجرد إنسان، أو أن يلحق بأولئك "الأنبياء". كالدكتور حسام الخَن، مسؤول مهجعنا في النواحي الصحية.

ذات يوم، لم أستطع أن أقاوم تلك الرغبة العميقة وغير المفهومة بداخلي، في أن أرد على فضائله الكثيرة على الجميع، ولست أدري كيف بادرته القول، في مزاحة تشبه الجد، أو هو جد في صيغة المزاح:

– ذات يوم سوف أخرج من بين جدران هذا السجن الرهيب. سوف أتذكره بكل تفاصيله، وتفاصيل الناس الذين عاشوا بين طبقات جدرانه. سأتزوج، وسأنجب ولداً جميلاً، وسأسميه حساماً. لكي يذكرني دوماً بك. لا أحب أن تطوى ذكراك من ذاكرتي ما حييت.

ضحك الدكتور حسام، وقال:

– اخرج أنت من هذه المغارة المرعبة إلى سماوات الحياة، ولن نختلف كثيراً فيما ستسمي ابنك ذات يومك.

ولقد وفيت بوعدي له. رغم أنه خرج من السجن وعاش بعده بضعة

سنوات، لكن السلطات عاودت خطفه واعتقاله بعد سنوات عدة، وغيبته في زنازين الموت. ولكن هذه المرة إلى الأبد.

هناك دائماً صورة من صور الكمال المطلق، تكسو هالة الأشياء والأشخاص. ربما كان السجن يسحب نسبيتها ويغذي تلك المطلقية فيها. أذكر مثلاً، في المهجع 29، حواراً كان يجري بين مجموعة أصدقاء، راح فخر نينو،(وهو ثالث الأشقاء نينو، غير أنس ويُسر، في سجن تدمر) يقول:

– أنا لا أتمنى في هذه الحياة، سوى شيئين اثنين؛ أن أنجو من سجن تدمر في الدنيا، وأن أنجو من نار جهنم في الآخرة. وبعد ذلك أي مصير في الدنيا خارج السجن سوف أرحب وأكون راضياً به، وأي مصير في الآخرة سوف أرحب وأكون راضياً به. حتى لو كان كوخاً صغيراً في مكان عادي في الجنة سوف أرضى به. المهم أنه يعني لي نجاتي من النار في الآخرة..

فاعترض قوله ذلك أحد المستمعين قائلاً:

– شرعاً ما بصير تحكي هيك أبو سعيد.. المسلم دائماً ثقته بالله عظيمة، وأمله في منتهاه. لذلك يجب دائماً أن تسأل الله "الفردوس الأعلى".

فقال أبو سعيد نينو:

– ولك خيو حكيك هو اللي ما بصير.. طيب إذا أنا صار منزلتي بالفردوس الأعلى، وين ممكن يروحو بعمار الشغري؟ ووين ممكن يلاقو مكان مناسب يليق برامي عثمان؟ يعني كمان بتتصور مافي عدالة بالآخرة..؟

بعد سنوات طويلة. عقب خروج الأخوة نينو من السجن، ووفاة أنس بمرض السرطان. وبعد أن تشردنا، معظم من أعرف من أصدقاء السجن ومعارفه في أصقاع الأرض، وخروجنا من سورية. اتصل بي فخر نينو. فسألته على الفور:

– أين مكانك الآن؟ ومن أين تتحدث معي؟

فأجاب:

– أنا الآن في قرية معزولة في أقاصي السويد. تغمرها الثلوج طوال السنة. وهي قريبة من البرغي..

قلت:

– البرغي؟ أي برغي؟

– البرغي الذي كنا نراه في مجسمات الكرة الأرضية في درس الجغرافيا. والذي يُثَبِّت ويمسك الكرة الأرضية من قطبها الشمالي.

بعد أسابيع عدة، عقب عودتي من فرع التحقيق العسكري، وذات صباح، فتح الشرطي باب المهجع 38، كما جرت بذاك العادة كل يوم. صاح الشرطي قائلاً:

– أدخل الفطور ولاك بسرعة.

فهُرِع عناصر السخرة، وأدخلوا جاطات الفطور. والفطور عادة ما يتألف من ثلاثة جاطات للمهجع، أولها يُملأ قريباً من ربعه بالزيتون، وثانيها فيه كمية من الشاي، والثالث فيه غالباً دون ربع محتواه من اللبنة. بحيث كانت مخصصات كل فرد في المهجع ما بين ثلاث إلى خمس زيتونات، ولعقة لبنة توازي مساحة ظفر إصبع الإبهام. إضافة إلى الشاي البارد، (لأنه كان يمر وقت طويل منذ تسخينه وتوزيعه تقارب ثلاث أو أربع ساعات). فيختص عادة كل فرد في المهجع بكمية من الشاي، تقارب الثمالة التي يتركها المرء في قعر كأس الشاي حين ينتهي من شربها. في ذلك الصباح، لم تكن الحال كما جرت عليه كل يوم، فقد باغتتنا المفاجأة التي لم يكن لها سابقة أو مثيل من قبل، حين ألفينا جاطات الطعام وقد امتلأت إلى حافاتها بالخراء.

وقف رئيس المهجع – الرائد عثمان أصفر – كمن أربكته المفاجأة وبهتته. وقرع باب المهجع ليستطلع الأمر من الشرطي، لكن الأخير كان قد ذهب. عاود الطرق على الباب بإلحاح، فسمع صوتاً من طرف الباحة يسأل غاضباً:

– شو في ولاه مهجع 38.؟ ليه ما تدق الباب يا حقير؟

– بدي حضرة الرقيب أو المساعد. الأمر ضروري.

غاب الشرطي قليلاً، ولم نلبث أن سمعنا صوت الرقيب رئيس اليومية. هتف به رئيس المهجع فوراً، كمن يشكوه إلى فاعلين مفترضين (مجهولين)، والذين يحتمل أن يكونوا بعض عناصر الشرطة غير المنضبطين، والمسؤولين عن الطعام، أو بعض عناصر البلديات:

– سيدي. انظر ماذا وضِع في جاطات الطعام. لقد مُلئت نجاسة.

أجاب الرقيب بهدوء العارف وغير المتفاجئ:

– اي. بعرف. هي عقوبة إلكن. أنا مَعاقبكن اليوم ولاه رئيس المهجع. أنا اللي أمرت يعبولكن الجاطات خرا بدل الأكل. لكن كيف بتتجرؤوا انتو تطلعوا بالجاطات مع الوسخ نجاسة؟

– نحن سيدي؟

– اي إنتو. البلديات شوفوني ياها.. قال هي الجاطات من المهجع 38.

ثم التفت وراءه ونادى على عنصر البلديات المكلف بالطعام:

– ولاه بلديات. روح وريهن الجاط اللي خريانين فيه ومطلعينو بره.

وذهب عنصر البلدية ثم عاد سريعاً، وهو يحمل بيده جاط طعام، فيه كتلة من بقايا تفل الخل، الذي كانوا يُصَنِّعونه داخل المهجع. أشار الرقيب بيده إلى ذلك الشيء الأصفر، الذي ظل يُعتصر حتى فقد كل ما فيه من نداوة ورطوبة. وصاح برئيس المهجع:

– شو هادا ولاه.؟

أجابه رئيس المهجع بهدوء:

– هذا بقايا خل ياسيدي.

– وشو هادا الخل ولاه، بحياتي آسمعت فيه ولا شفتو.؟

غرق رئيس المهجع في شرح وتفصيل طويل، استغرقه بضعة دقائق، ثم أخرج له بيدون بلاستيك صغير مليء بالخل من صنع المهجع، وشرب منه أمامه، ثم مد رئيس المهجع يده، وتذوق بقايا التفل الملقى في الجاط.

– سيدي ها أنا أطعمه أمامك، حتى تطمئن بأنه نوع من الحامض الذي نستعمله لتحسين الطعام، حيث نخمره من بقايا التفاح الحامض، الذي يقدم أحياناً مع الدوسير. وأحياناً نأتدم به مع الخبز اليابس الحاف، حين يكون الطعام قليلاً. وأحياناً نستعمله كمطهر جروح وحروق وطفح جلدي. وغير ذلك.

– يعني هذا اللي اسمو خل. ولاه رئيس المهجع. يعني ما هو خرا؟

– لا سيدي. أعوذ بالله. كيف ممكن نفكر نحط النجس بالجاط اللي مناكل فيه كل يوم؟

– وأنا هيك قلت لحالي كمان. أنا ما سمعت بحياتي كلها بشي اسمو خل!

هدأ الرقيب قليلاً، وتحول غيظه وهياجه الذي جاء به إلى ما يشبه اعتذاراً صامتاً. أراد أن يداري الموقف بالقول:

– طيب رئيس المهجع. طلعولي جاطات الخرا بره. وأنا بعد شوي رح

ابعثلكن الفطور متل كل يوم. أنا ما سامع بحياتي بشي اسمو خل. وعلى كل حال صار فيه غلط أكيد بالموضوع.

وبسبب انعدام ثقتنا بمستوى النظافة، التي ستعالج بها الجاطات بعد هذه الفعلة، والتي ستغسل سريعاً برش قليل من الماء عليها، كما كنا نتوقع، ثم تُملأ بطعام جديد لمهجع آخر، فقد بادر رئيس المهجع بالقول:

– نحن سنتولى تنظيفها داخل المهجع يا سيدي.

وذهب الرقيب. ونسي أن يرسل الإفطار الموعود لمهجعنا. ولم نطالبه بالإفطار من جهتنا ذلك الصباح. صمت وصمتنا.

كما كانت حالات تفكك الشخصية واستفحال الذُهَانات النفسية قد أخذت تتفاقم وتتكاثر بعد العام الرابع. غالب تلك الحالات كان يجري التأقلم معها، وهي تتوازن وتتعايش بهدوء غير مكترث بالأحداث المتوالية من حولها. من مثل ذلك كان العجوز المتصوف الزاهد الذي يعرفه الجميع باسم "العم أبو محمد"، كان يتخيل ويتوهم أموراً غريبة جداً، أغرب وأعجب منها، أن هناك ما لا يقل عن اثنين من مريديه و مجالسيه الدائمين، ومن رواد مجلسه، كانوا على ثقة ويقين مطلقين بما يرى في سُبُحاتِهِ المنامية تلك، أثناء النوم وأثناء الاستيقاظ. وذات مرة حدثني بحديث طويل ختمه بالقول:

– هل تصدق لو قلت لك الآن، بأن الرئيس الأمريكي رونالد ريغان، يبطن الإيمان بالإسلام؟

– يا للهول والعجب..!

هز رأسه هزة من يفشي بحقيقة طالما جرى التكتم عليه لدهر طويل، وهو يبتسم ابتسامة ظافرة مشرقة:

– نعم. من حقك أن تتعجب، فجميع البشر لا يعلمون شيئاً عن هذا الأمر. إلا أهل الله وخاصة عباده.

– أهل الله وخاصة عباده عرفوا بالأمر؟

– وكشف اللهُ عن قلوبهم هذا السر. وأزيدك أيضاً بأنه من الأبدال الأربعين، الذين أوكل الله إليهم مهمة حفظ الكون، ورسالة الحق، والطريقة الماضية فيه إلى يوم الدين.

تدخل أبو بكري، الذي كان يستمع بطرف أذنه إلى جانب من الحديث:

– إذا كان حكي العم أبو محمد صحيح، معناها ما في لا إمبريالية أمريكية ولا أكل خرا. كل الحكي اللي حكولنا ياه عن الامبريالية طلع فاضي.

عاد أبو محمد إلى ابتسامته المستيقنة المشرقة، والتفت نحو أبو بكري يقول بثقة مفرطة، كمن يهمس له بسر خطير:

– أبو بكري. كن متأكداً، وفي منتهى اليقين:

لا يأكلُ السِرحانُ لحمَ جسومِهِم. مما عليه من القنا المتكسرِ

فنهض أبو بكري منصرفاً، دون استئذان، قائلاً بتعجب:

– والله هالحكي شي متل الكدب يا خاي..!

كانت حالة الذُهانات، وتفكك الشخصية تلك، تزداد أعدادُها باضطراد بين السجناء، كلما تقادمت أو مضت الأيام قُدماً، سنة وراء سنة. ولعل أبرز الحالات التي كنت قريباً منها لفترة طويلة، كانت بعد مغادرة المهجع 38، ومكوثي لفترة في المهجع "جديدة السادسة صدر".

في هذا المهجع، جديد سادسة صدر، انتقلت مجموعة صغيرة لم تكن تجاوز أعدادها عشرة. فالتف سائر أفراد المهجع حول المجموعة الجديدة، وانهمرت عليهم الأسئلة الفضولية المستفسرة عن كل ما يعرفونه وما سمعوه أو ألموا به، من أخبار اطلعوا عليها من داخل السجن أو من خارجه. وكان من بينهم شاب ضخم الجثة، ذو سمت ومظهر حسن، وهيئة عامة تفصح عن اتزان، وتشف عن وقار. هذا الشاب كان معروفاً باسم "أبو حسن منصور". وما إن التأمت دائرة الحلقة المتحلقة حوله، وقبل أن يبادره أحد بالأسئلة. راح يعلن قائلاً، بمنتهى الثقة بالنفس:

– اطمئنوا يا شباب. وبشراكم.. إذ لدي ما يثلج الصدور ويفرح القلوب. فالفرج وإخلاء السبيل والخلاص من السجن بات مؤكداً، والأمر لن يتعدى أياماً أو حتى ربما ساعات قليلة معدودة قادمة..

– الفرج من السجن، وإخلاء السبيل خلال أيام أو ساعات؟

– ياله من خبر بالغ الخطورة..!

– من أين مصدر الخبر؟ من أخبركم به؟

قال أبو حسن منصور:

– لقد أبلغني به رسمياً، وبشكل مباشر وشخصي، الدكتور سليم الأسد.

– الدكتور سليم الأسد؟ ومن يكون الدكتور سليم الأسد؟

– الدكتور سليم الأسد هو شقيق رئيس النظام السوري حافظ الأسد.

وراح بعضهم يتساءل بدهشة:

– وهل للرئيس الأسد شقيق اسمه سليم الأسد؟

– هذه أول مرة نسمع باسم هذا الشقيق.

تدخل أحد رفقاء أبي حسن منصور، من المجموعة التي رافقته أثناء نقله إلى مهجعنا، شارحاً مفسراً:

– يا شباب.. دعكم من هذيانات هذا الشاب، فهو على غير تماسك عقلي.

– غريب جداً.. لا يشي مظهره العام بالجنون.

– نعم. وهو غير متماسك لقواه منذ زمن طويل. والدكتور سليم الأسد الذي يحدثكم عنه، هو طبيب من أهالي ريف دمشق. ومحكوم بالسجن المؤبد. وهو المسؤول الصحي المشرف على المهجع الذي قضينا فيه وقتاً قبل الانتقال إلى هنا. أبو حسن منصور، رسخت لديه هذه الفكرة الثابتة، التي لا تتزعزع أبداً، وهي أن الدكتور سليم الأسد هو أخ شقيق لحافظ الأسد.

أكثر ما كان يثير الدهشة في هذا الشاب، "أبو حسن منصور"، هو قدرته الفائقة على التحدث باللغة الإنكليزية الطليقة، كأنها لغته الأم. مع أنه كان طالباً في السنة الأولى من قسم اللغة الإنكليزية. ولقد كان سائر الوقت، يقرأ لنفسه نصوصاً وأشعاراً، وغالباً ما يتلو نشرات إخبارية باللغة الإنكليزية لربع أو نصف ساعة متواصلة، تضارع مهارة نطقها وكيفية قراءتها، طلاقة مذيعي الإذاعة والتلفزيون في قراءة نشرات الأخبار باللغة الإنكليزية. دون تلكؤ أو تلعثم في النطق. بالطبع كان يستعرض كل أخبار العالم كما يتخيلها تلك اللحظة، ولكن دون أن ينسى بأن يُصَدِّر الخبر الأول بالنشرة الإنكليزية، كيف استقبل، (أو التقى أو ودع)، السيد الدكتور سليم الأسد، شقيق الرئيس حافظ الأسد بعض رؤساء الجمهوريات أو الملوك في العالم.

ولقد بقي أبو حسن منصور مقتنعاً لسنوات طويلة، حتى بعد أن أفرج عنه وغادر المعتقل، بأن الدكتور سليم الأسد، ما هو إلا الأخ الشقيق للرئيس الأسد.

الفصل الثامن

أسطورة القطة العمياء

– 1 –

في الليل الطويل، كانت الرؤوس تتقارب مع الرؤوس بينما تكون الأقدام في الاتجاه المخالف. وتحت البطانيات ثمة مجالس وسهرات قد تمتد طوال ساعات من الليل. تتخللها وشوشات وهمسات ونوادر. تاريخ العالم الحقيقي هو التاريخ الذي يجري في الغرف السرية. على فرش النوم. في الزوايا المعتمة والمختبئة في المقاهي والمطاعم. أما في تدمر، فتاريخ العالم كله يختصر في الوشوشات تحت البطانيات، أثناء الليل. فهناك اثنتا عشرة ساعة يجب أن تمضي تحت البطانيات يومياً.

أحياناً كان يتم قتل الوقت الطويل ليلاً، في مراجعة القرآن الشفوية، بين حافظ متمكن، ومتعلم يسعى إلى حفظ السور والآيات بتلقائية وجدارة، تنقي حافظته من الأخطاء وعثرات التلقين الشفوي. وكانت أحياناً تتخلل تلك المسامرات الطويلة، حكايات وقصص وذكريات فائتة منطوية. ولقد صادف لأمد طويل من الأسابيع والأشهر، أن كان رأسي ملاصقاً أثناء النوم لرأس أحمد إسماعيل جعفر، وهو ضابط ريفي له طبيعة شعبية بسيطة، تمتاز بغير قليل من السذاجة والتحلل من المجاملات والكلفة.

ولقد عرفت أبا اسماعيل منذ الأشهر الأولى في سجن تدمر، وعشت معه في مهجع واحد، لم نتفارق خلال أربع سنوات متواصلة، بين أربعة جدران المهجع 38 في الباحة السابعة. كنا أصدقاء أو أكثر، وأخوة أو أكثر. ومن خلال الاختلاط الطويل بيننا، أستطيع أن ألخص صفاته العامة، بأنه كان رجلاً بسيطاً، متواضعاً، ريفياً قروي الطبيعة، بالرغم من كونه ضابطاً في الجيش.

لم يتشبع أبو اسماعيل من مؤثرات الجيش، ولم يأخذ عنه أية صفة تدل على أنه ضابط. فإن عاشرته ولم تعلم مسبقاً أنه ضابط سابق في

الجيش، برتبة نقيب يخال إليك تخميناً أنه فلاح. فلاح أصيل. وابن قرية أصيل. يميل إلى البساطة والوداعة المفرطة.

هذا الرجل تمَّ قتله فيما بعد، بعد خروجنا من السجن بأكثر من خمس وعشرين عاماً، على يد مقاتلي داعش، حين نفذت داعش مجزرة رهيبة في قريته تفتناز، في ريف إدلب. ولقد كانت تهمته المباشرة اعتقل بسببها ودخل السجن، أنه من جماعة حزب التحرير الإسلامي، فهو إسلامي المنبت والنشأة العائلية والتربية.

فكان أبو بكري الصوص يخاطب أبا إسماعيل من تحت البطانية، هامساً بالقول:

– نم أبو إسماعيل يكفيك كلاماً الليلة..

– أنا نايم منذ ساعات. أنت من يتوجب عليك أن تنام.

– حتى وإن كنت نائماً. عليك بالنوم، في كل الأحوال.

– إيييه. لقد مضى عهد النوم يا خديجة. المكان لا يتسع من شدة الضيق، وأكاد أختنق من الحر ومن الضغط الذي عن جانبيَّ..

كان أحمد جعفر، أو أبو إسماعيل كما غلبت عليه التسمية في المهجع، يصغي إلى أبي بكري الصوص، وهو يسرد عليه بعض ذكرياته ومغامراته الكثيرة منذ أيام الشباب، قائلاً:

– كان يحلو لنا، أنا ومجموعة من أقرب أصدقائي من رفاق السوء، (ثم يستدرك أبو بكري مؤقتاً: عفا الله عنا وعنهم وعن تلك الأيام)، كان يحلو لنا صبيحة العيد، أن نجتمع معاً من أجل لعب القمار بورق الشدة، في مقابر الكلاسة بحلب. وذات صباح، كان يوماً من أول أيام عيد الفطر، حاصرت الشرطة المقبرة، وشهروا المسدسات، طالبين منا الوقوف ورفع الأيدي والاستسلام. والويل لمن قد يفكر فينا بالهرب من بين أيديهم.

كنا غنيمة سهلة لهم، فساقونا إلى مخفر الكلاسة، وهنالك وقف الضابط، رئيس المخفر، مقطباً غاضباً، وهو يرعد في وجوهنا ويزبد:

– اصطفوا جميعاً بجوار الحائط. وجوهكم إلى الجدار. وممنوع الكلام إلا لمن يُسأل. وعليه الإجابة على قدر السؤال وباختصار. وفوراً دون تردد..

بدأ الضابط بالسؤال عن أسمائنا، إذ يجب على كل شخص فينا أن يُعَرِّف بنفسه. فأجبته أنا أولاً:

– أنا محسوبك معروف الصوص سيدي.
– اي بلا محسوبك هذه.. قل الجواب باختصار. وأنت؟ الذي بجانبه؟
أجابه صديقي:
– أنا طه الخرفان.
– وأنت؟
– أنا عنّوق المفتوق سيدي.
– وأنت؟
– أنا القاشوش سيدي.
– وأنت؟
– انا المشحور سيدي.
– وأنت؟
– أنا الرَّناش سيدي.
– وأنت؟
– أنا الفرمة سيدي.
– وأنت؟
– أنا القدم سيدي.
– وأنت؟
– أنا العير سيدي.
قال الضابط:
– وأنت العير.. إيييه.. الله يلعن أبوكن الكبير مع الصغير. مافي حدا اسمه أحمد ولا محمد ولا سعيد ولا عمر ولا عبدالله ولا عبد الرحمن ولا عبد الكريم. مافي ولا واحد اسمه بيشبه أسماء البشر. كلكن صوص ومشحور ومفتوق ورناش وفرمة وقدم وعير؟ ولك ريتو الله يلعن فيكن الكبير والصغير.
فقال له أبو إسماعيل:
– احكيلنا أبو بكري كيف سألوك المحققين عن النسوان، وأنت حكيت الهن عن عمتك الختيارة.
فراح أبو بكري يستجمع ذكرياته عن التحقيق في فرع المخابرات، وكيف اجتمع الجلادون عليه يسألونه:

– طالما إنك متزوج أربع نسوان ومطلقهن كلهن. معناها إنت صاحب خبرة عظيمة بالنسوان. بدك تحكيلنا أحلى ذكرى، ما زالت عالقة بنفسك عن النسوان.

فقال لهم أبو بكري:

– سيدي يستر عرضك تشيلنا من هالسيرة كلها.

– مستحيل اليوم أتركك، إلا تحكيلنا حكاية عن النسوان.

– طيب سيدي.. بس بتوعدني إنك ما تسجل الكلام بإفادتي.؟

– بشرفي.. ولا رح اعتبرك حكيت شي. إلا كلام صديق لصديقو.. وهي شلنا الأوراق والأقلام كلها من فوق الطاولة. تفضل احكي..

فاستجمعتُ ذكرياتي، ورحت أقصُّ عليهم حادثة قديمة حصلت معي:

– هادا بزماناتو يا سيدي كان عندي عمة. امرأة كبيرة عمرها حوالي خمس وتمانين سنة. عمتي بحياتها ما كانت تغادر حي الكلاسة، إلا كل عدة سنوات مرة، وللضرورات الشديدة الملزمة، وبتتخيل إنو الكلاسة هي أول الدنيا وآخرها، وما في شي بعد الكلاسة. وما كانت متفرغة لشيء، إلا للصلاة والتسبيح، وحجابها وأثوابها بدك تقول تقريباً، طبقات تحت طبقات. حتى أننا لما كنا نجيب سيرة انو في نسوان، بيمشوا في الشارع بدون غطاء، وشعرهن مكشوف، عمتي ما كانت تصدق هالشي. كانت تعتبر كلامنا نوع من الكذب عليها.

في مرة من المرات اضطرت للخروج من الكلاسة بصحبتي، إلى حي السبيل لمناسبة ضرورية. خرجت أنا وهي، وركبنا الباص حتى شارع النيل، لنعرج سيراً نحو السبيل. في الباص الذي كنا نستقله، وعند أحد المواقف، صعدت فتاة شابة. فتاة متبرجة في غاية الجمال والأناقة والزينة. كانت ترتدي بنطالاً ضيقاً يهصر قدميها، وقميصاً مزركشاً كشف عن ساعديها، وجزءاً من صدرها. كما انحسر عن بعض أجزاء من بطنها وظهرها. أما مكياجها وزينتها، فماذا أقول عنها؟ لعل نصف طن من الحمرة والبودرة والكريمات والمساحيق والعطور قد سكبت على قوامها وثيابها.!

وخلال الفترة التي قضيناها ونحن نستقل الباص، لاحظتُ بأن عمتي قد أصابها ما يشبه الذهول والدهشة المفرطة. ولم تعد تقوى على أن

تُحوِّل بصرها عن الفتاة. فكانت تنظر نحوها، وكأنها قد صُعقت من منظر مخلوق غير متوقع المنظر، هبط من عوالم السماء إلى الأرض فجأة.

وحين نزلنا من الباص بعد قليل، قلت لها ونحن منصرفَين نحو وجهتنا:

– عمتو، لاحظت عليكي طول فترة ما طلعنا بالباص، ما شلتي عينك عن هديك البنت اللي وقفت قبالنا.

فقالت وهي تردد بأسف وتذمر:

– الله يساعدكن يا هالرجال. والله أنا الحرمة الكبيرة، عمري خمس وثمانين سنة وعلى حافة القبر، اشتهيت أبعصها. شلون انتو بتتحملو هيك شوفات ما بعرف؟

فانفجر المحققون بالضحك العالي. تشردق الأول وغص الثاني من شدة ما ضحكوا، وكاد الثالث أن يقع من على الكرسي أرضاً. فقال أبو بكري للمحقق:

– سيدي يستر عرضك. أوعى تكون سجلت الحكاية بضبط إفادتي. والله بعدين بجيبو عمتي لهون عالتحقيق بتهمة كتم معلومات، وبنزلوها بالدولاب. أو، بجوز عمتي تدخل بكتب التاريخ، وتتدرس بالمدارس.

فأجابني المحقق:

– لا تخاف ولا يهمك. ما سجلت عليك شي أبداً.

– 2 –

كان أبو اسماعيل بطيئاً في حفظه للقرآن، ولديه ثقل في الحافظة الشفهية، وكنت ممن اضطر إلى تخصيص بعض الوقت، كلما طلب مني، من أجل أن أستمع منه بعض المحفوظات. والممتع في الأمر، أن أبا اسماعيل، حين يتلو ما بلغ من حفظه للآيات الأخيرة، كان يعلق ويشرح، وله استفاضات ورؤى خاصة به. فكان يقف بعض الوقفات الخاصة، ليزيد من شروحه، وما فهم من نصوص الآيات. ولا أزال أتذكر جيداً واحدة من وقفاته، وكان يومها يراجع مشافهة سورة هود، وأنا أصغي له مصححاً، فلما وصلنا إلى الآية: {قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول، وإنا لنراك فينا ضعيفاً، ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز}. توقف أبو إسماعيل عن متابعة التلاوة، والتفت إلي قائلاً ومفسراً:

– بتعرف شو معناتها وشو تفسيرها لهاي الآي؟

قالها بلهجته الإدلبية التفتنازية العميقة.. فقلت له:

– لا والله يا ابو اسماعيل.. ياريت تشرح لي معناها.. قال:

– معناتها، والله أعلم، أنو هدول قوم سيدنا شعيب عليه السلام، كانوا جماعة وسخات ورزال على ما يبدو.. فأجو لعندو وقالولو: شوف يا ابن الطيبين.. كلمتين ورد غطاهن. إزا بدك تضل تدعينا للتوحيد ولعبادة الله، ترى ما تلوم إلا نفسك. نحنا هالحكي كلو ما خرط مشطنا. ولو ما يكونو جماعتكو وعيلتكو محترمين وعيلة كويسة. ولو ما يكون لسه بظل بالعين فيه قشاية صغيرة، كان ما تلوم إلا نفسك. وكان شفت شو رح نسوي ونعمل.

تدخل الصوص مستفسراً منه:

– هذا تفسير الآية أبو إسماعيل، إلا عم تحكيلنا عن قتالة بالضيعة؟

– هذا التفسير منين جبتو من البيضاوي ولا القرطبي ولا ابن كثير؟

– هذا تفسيري أنا..

بعد سنين طويلة، وحين استيقنتُ من أن تنظيم داعش قد نفذ حكم الإعدام بأحمد جعفر، أبي إسماعيل، أثناء ارتكابهم مجزرة في قريته الوادعة تفتناز، لم أعتم أن همست في نفسي وأنا أقاوم حزناً كظيماً: رحمك الله أيها الرجل الطيب، الصافي كالزلال، والبريء كالأطفال.

أبو بكري الصوص اعتاد النكتة اللامبالية، وأوكل كل عذاباته النفسية والجسدية للسخرية، حتى في أحلك الظروف وأكثرها قسوة في تدمر. رجل يقترب من الكهولة والشيخوخة، وقد زودته الحياة بزوادة تجارب وخبرات لكل موقف، ولسائر الظروف المحيطة والمتوقعة. تَخَرَّجَ من حارات باطن المدينة، في حلب المجهولة. حيث أزقة حارة بحسيتا وشوارعها الخلفية. من هناك كانت تبدأ العاب الكشتبانات، ولا تنتهي في مسالكها عند أفق.

في ذلك الصباح، كان ينظر نظرة ازدراء وشزر إلى مأمون الشايب، ذلك الشاب الذي اعتاد كلَّ صباح، أن تتحلق حوله حلقات ممن يرغبون بتفسير أحلامهم، فقد كانت المنامات والأحلام جزءاً من عالم السجن العميق وأسراره الدفينة، فالمنام ترجمان المستقبل الذي

تستجليه الروح وتتوسمه، إن لم أقل تتوهمه، وهو عضيد السجين في حفر أنفاق الأمل الباهت، وسط هذا العماء واللا معنى، ونبوءتُه الوحيدة المتاحة، التي يمكن لها أن تبوح للسجين بسر الخروج من تلك المستعمرة العقابية الجهنمية.

في ذلك الصباح، قال لي أبو بكري:

– ولك هادا مأمون، اش بيقعد كل يوم بيجمع الناس حواليه، وبلش على خرط وحكي فاضي؟ قال تفسير منامات قال.

قلت له:

– أبو بكري.. يجب أن تعلم أن المنامات حاجة ضرورية للسجين، مثل الطعام والشراب والتنفس. المنام هو السند النفسي الوحيد المتاح، وهو أحد أهم الخنادق الدفاعية التي يتمترس خلالها السجين في وجه يأسه القاتل. فالمنام حامل أوجه الرؤيا المتعددة، وهو بهذا يصنع توازناً بينك وبين نفسك المحطمة. من الخطأ أن ننظر إليه بوصفه وهماً، وإلى مفسري الأحلام بوصفهم بائعي أوهام، فهو الثغرة الوحيدة التي تفتح في قلب السجين ليتحسس المعنى، أي معنى كان قد يحرض فيه بعض التفاؤل، وهو المشجب الذي نُعلِّق عليه الأمل، حيث لا يجد الأمل مكاناً حولنا يتعلق به، لكي ننتصر على الإحباط والهمود القاتل.

لم يقتنع أبو بكري بهذا المنطق من أساسه، وأصر على رأيه المعاند:

– اش كل ما واحد ما شاف منام بيركض على مأمون. وخود على خرط وحكي فاضي. هادا بيفسرلو المنام بدك تطلع من السجن. والتاني بيفسرلو قدامك فرج قريب. هادا بيحكيلو بدها تجيك زيارة، وبدك تشوف أهلك عن قريب. وهادا عمينطر بشارة رح يفرح منها كتير. وخود من الحكي اللي ما لو طعمة.

ثم فجأة، نهض أبوبكري من مكانه وقال لي:

– تعال معي..

– لوين رايح؟

– تعال معي نروح على مأمون.. في عندي منام بدي أحكيلو ياه..

قلت له:

– أبو بكري، اجلس مكانك، ولا داعي للتدخل في شؤون الآخرين ومضايقتهم.. قال:

– يا رجل صلي عالنبي.. والله، لن أزعجه ولن أضايقه.. علي الطلاق لن أتغالظ عليه، أو أثقل دمي كالمعتاد. سأروي له مناماً أسوة بالآخرين، وأريده أن يفسره لي. يا أخي بجوز الفرج قريب، من ورا هالمنام وأنا مالي خبر، والطلعة من تدمر قرّبت ومانا دريانين. خلينا نشوف المفسر الخطير مأمون، اش رأيه بالموضوع.

اصطحبني أبو بكري الصوص معه، في ما يشبه الإكراه. سلَّمنا على مأمون بعد أن انفضّ كل طالبي تفسير المنامات من حوله. وبعد أن جلسنا ابتدره الصوص بالقول:

– بدي ياك تفسر لي هالمنام.

قال مأمون:

– تفضل أبو بكري احكيلي منامك..

قال أبو بكري:

– الحقيقة، سأكون صادقاً معك منذ البداية، فالمنام لست أنا من رآه، وإنما أنا ناقل الرؤيا لا أكثر.. أنا لا أرى منامات منذ زمن طويل، ولقد كففت عن رؤية المنامات منذ أن كنت طفلاً صغيراً، وبقرار شخصي من حالي، وإنما رآه غيري وسمعته منه.

قال مأمون:

– ما بتفرق كثير أبو بكري.. هات قص عليَّ الرؤيا أو المنام.

فقال الصوص:

– والمنام ليس وليد اليوم. إنه رؤيا خطيرة. خطيرة جداً، وأكثر مما تتوقع. رائي هذه الرؤيا رآها منذ سنوات طوال. ولقد اتفقت الآراء وأجمعت على أنها رؤيا خطيرة وهامة وتحمل مضامين خطيرة.

قال مأمون:

– خلصنا، دوختني. شو هالمنام؟

قال أبو بكري، وبجدية متناهية:

– يا أخي الكريم: المنام في الحقيقة، وبصراحة شديدة، شافتو المطربة سميرة توفيق في فيلم عنيترة بنت عنتر. طبعاً إذا كنت ما زلت تتذكر فيلم عنيترة بنت عنتر لسميرة توفيق. وقد روت المنام بأسلوب أغنية من أغانيها. غنته على شكل أغنية تقول كلماتها:

شفت بمنامي طير... فارد عليّ جناح

ياريت فالو خير... مسّا علي وراح

هاه.. شو رأيك؟ أنا فسرتو بيني وبين حالي. بس يمكن تفسيري غلط. انو بدنا نطلع من سجن تدمر. بدو يجينا إخلاء سبيل عن قريب، أو يفتحولنا زيارات ونشوف أهلنا. انت اش تفسيرك لهالرؤيا ولك خاي؟

نظر إليه مأمون ذاهلاً وقال:

– أبو بكري، قوم من قدامي وافرقني بريحة طيبة يرضى عليك. ماني ناقصك.

وأبو بكري ازداد تجهماً وجدية وإصراراً على موقفه:

– ليش يا أخي ما بدك تفسر منام سميرة توفيق. اشبو مو منام يعني؟ مو متل هالمنامات اللي عم تفسرها كل يوم؟ واش بيعرفك بلكي على تفسير منام سميرة توفيق منطلع كلنا من تدمر..؟

امتعض مأمون، ولم يفسر للصوص منام سميرة توفيق.

بعد سنوات طويلة، عقب خروجنا من المعتقل، التقيت أبا بكري الصوص، ورحنا نتذاكر بعض ذكريات تلك الفترة. ولقد أتينا على تلك الذكرى، حول منام سميرة توفيق. فقال أبو بكري:

– الله يسامحه هالمأمون. من الجائز أنه في ذلك اليوم، لو رضي أن يفسر لنا منام سميرة توفيق، ربما لخرجنا من السجن قبل الموعد بزمن طويل. ربما كانت تغيرت كتير شغلات.

ثم هز رأسه هزة المقتنع:

– سامحه الله، مصيرنا كله كان متعلقاً بمنام سميرة توفيق، ولكن يبدو ما حدا ناوي يقتنع بهالموضوع.

– 3 –

وفي إحدى المرات، قال لي أبو بكري الصوص، وهو في ذروة الغضب من جميع أفراد المهجع:

– خلص.. ابتداءً من اليوم سأعلن انشقاقي العلني، وأجاهر بعداوتي الصريحة للأخوان وللسلفيين معاً. للأبو أنسين معاً: الأخوان، جماعة أبو أنس أحمد سالم، وللسلفيين، جماعة أبو أنس هواري.

– ليش؟ شو صاير بينك وبينهم؟

– يا رجل يتعاملون معي بمنتهى الفوقية والاحتقار. كأنني نكرة وغير جدير حتى بنصح منهم، أو توجيه أو تعليم، أو حتى مجاملة من أي نوع كان. خلص خيو، أنا من اليوم رح أشوف سعدات، وأنضم له، وأصير من جماعة سعدات بهجت.. خلي الكل ينفلقو..

وسعدات بهجت شاب فلسطيني غامض. وضعته إدارة السجن في مهجعنا 38 منذ بداية انتقالنا إليه. لا يخالط أحداً، ولا يقترب من أحد. يزعم أنه كان عضواً بارزاً في منظمة الصاعقة الفدائية الفلسطينية، التابعة للنظام السوري، وأنه حصل خلاف شديد بينه وبين عصام القاضي، مسؤول منظمة الصاعقة. وأن هذا الأخير قد حرَّض السلطات السورية عليه فاعتقلوه. كذلك زعم بأنه تمَّ اختياره في إحدى المرات، للاشتراك في عملية خاصة لاغتيال ياسر عرفات، من قبل النظام السوري، وبإشراف عصام القاضي، مسؤول منظمة الصاعقة نفسه، وأنه وقع عليه الاختيار وترشح في إحدى المرات، للاشتراك في عملية اغتيال ملك الأردن الملك حسين. ولا يُدرى حقيقة مدى صدق سعدات من كذبه.

ثم رجع أبو بكري يقول:

– بعد أن يشعروا بخسارتي وبالتفريط بي، سوف يتقابل الأخوان والسلفيون في المهجع 38 معاً، وسيذرفون الدمع حزناً لأنهم فرَّطوا بي وخسروني، بعد أن أعلن على الملأ عن رفضي لهم جميعاً، وعن عداوتي المعلنة لهم، وانضمامي إلى جماعة سعدات بهجت. سأجعلهم يرددون من الأسف والحزن، قول الحاجة المرحومة أم كلثوم:

تفيد بإيه يا ندم. وتعمل ايه ياعتاب. طالت ليالي الألم. وتفرقوا الأحباب.

ثم غاب قليلاً، ورجع متأبطاً ذراع سعدات بهجت، في كثير من المودة والحبور. وسعدات ينقل البصر بيني وبينه، ذاهلاً متعجباً مما يرى ويحدث حوله. ثم أردف أبو بكري يقول:

– ها قد أصبحت من رفاق الأخ سعدات. وسوف ترى كيف ستكون النتائج، بعد هذا الانشقاق الكبير الذي أعلنته ضد الأخوان والسلفيين. خليهن يضرطوها معي.

ثم التفت إلى سعدات مزهواً معجباً، وسأله:

– أبو الزين (سعدات).. من أين حصلت على كل هذا العلم، وكل

هذه الثقافة التي تلمُّ بها..؟ ما شاء الله عليك!؟

قال سعدات:

– أنا يا أبو بكري، قضيت خمس سنوات في المزة، في المهاجع المفتوحة. كلها قضيتها في القراءة والمطالعة، إلى درجة أنني اليوم ملمٌّ بكل الفكر الإنساني قديمه وحديثه.

– ما شاء الله عليك. والله تستحق أن تنحني لك القامات إجلالاً.

– شكراً لك أبو بكري.

– وهل استطعت أن تدرس وتتعلم كل الفكر الإنساني في المزة؟

– نعم.. كله..

– أما أنا فلم أتعلم من الفكر الإنساني شيئاً.. ولم أُحَصِّل من الفكر إلا أغنية عبده الحمولي: (الفكر تاه.. قلت اسعفيني يا دموع العين).

ولقد بلغني بعد سنوات من مفارقة المهجع 38، أن سعدات بهجت قد طلب مواجهة إدارة السجن، وبلغهم كثيراً من الأمور التي كانت تحدث في الداخل؛ مثل حفظ القرآن، وتلقي دروساً تعليمية مختلفة. ونقل لهم كثيراً من الحوادث والحوارات التي حصلت منذ سنوات. حتى أنه لم يترك شاردة ولا واردة إلا وأتى على ذكرها في تقريره الشفهي الذي بلغه إدارة السجن. مما استدعى إدارة السجن إلى شن حملة اعتقالات وعقوبات قمعية شملت قريباً من أربعين إلى خمسين شخصاً ممن كانوا في المهجع 38. بمن فيهم رئيس المهجع، الرائد عثمان أصفر، الذي حُمِّل كامل المسؤولية.

لقد أنزلت إدارة السجن بهؤلاء المعاقبين نتيجة وشاية سعدات بهجت، اقسى العقوبات، وعزلوا في زنزانات إفرادية في الباحة الخامسة، المرعبة وسيئة الصيت. وظلوا ينكلون بهم ويمارسون بحقهم ألوانا شتى من العذاب، حتى سقط قتلى جراء العذاب ما لا يقل عن ثلاثة أشخاص منهم. (من بينهم أحد الشبان الدمشقيين الأحداث الصغار، ويدعى محمود السخني) وبعضهم أصيب بعطب دائب، وحمل إعاقة دائمة على إثر ذلك.

أزف الرحيل عن المهجع 38 أخيراً، واتُخِذ قرار من مدير السجن بفرط مهاجع الباحة السابعة جميعها، وتوزيعها على سائر مهاجع السجن.

ذلك المهجع كان شبه قرية صغيرة. قرية عدد سكانها 206 نسمة. احتوتهم جدران زنزانة كبيرة بطول عشرين متراً، وعرض ستة أمتار تقريباً. أكثر من مائتي فرد عرفوا بعضهم لفترة قاربت أربع السنوات. حفظنا عن ظهر قلب خلال هذه الفترة، كل تفاصيل وجوهنا وتضاريس ملامحنا. مسامات الجدران، وتضاريس أرضية المهجع. نعرف عدد البطانيات وجاطات الطعام. وأواني الشرب وقرّاضات الأظافر، وقطع معالجة الطبابة السنية، المصنوعة من معادن دقيقة هُرِّبت على فترات. لقد بتنا على علم ومعرفة حتى بالشأن العائلي لبعضنا. لم يعد ثمة خافية تخفى فيما بيننا. أحببنا بعضنا حد العشق، وكرهنا بعضنا حد نهايات الملل والضجر.

كان سبب قرار توزيع الباحة السابعة المباشر هو انتشار مرض السل. فلقد انعقد عزم الإدارة، على تخصيص الباحة السابعة بمهاجعها الأربعة لمصابي وباء السل، الذي كان يجتاح السجن كالحريق الذي يصعب لجمه وإيقافه. وإضافة إلى المهاجع الأربعة، هنالك الباحة الصغيرة المحصورة بين السادسة والسابعة، والتي تحتوي المهجعين 31 و29، إضافة إلى المهجع الصغير المخصص للنساء، والذي غلبت عليه التسمية بين جميع السجناء باسمه الدارج: "مهجع النسوان". ولقد تمَّ إفراغ مهجع النسوان من السجينات النزيلات، ونقلهن إلى خارج السجن، حيث لا نعلم الجهة ولا المكان الذي نقلن إليه.

كان خبر فرط مهجعنا وتوزيعه صادماً، بخلاف الترحيب والفرحة الغامرة التي عرت جيراننا في مهجعي الأحداث؛ 36 و 37. والذين تلقوا الخبر مثل بشارة من السماء هبطت عليهم. أخيراً عليهم أن يتفرقوا، وأن يخالطوا مهاجع الرجال الكبار. ولقد كانوا حتى ذلك التاريخ قد بلغوا جميعاً سن الرشد، وجاوزوا البلوغ منذ سنوات حتى أواخر عام 1986. وإن يكن غالبيتهم العظمى قد تدمرت صحتهم، ونخرهم السلُّ نخراً، وأمراض أخرى كثيرة، ربما كان من عديدها بعض الأمراض النفسية التي وصلت في كثير من الحالات، إلى حدود الفصام العقلي، وشتى أنواع الذُهَانات والجنون، وغير ذلك. وهذه الأخيرة لم تكن محصورة بالأحداث والأطفال، الذين كانوا يمضون حتى ذلك التاريخ، عامهم السادس في سجن تدمر، وإنما تكاثرت أيضاً في مهاجع الرجال الكبار الآخرين.

نُقِلنا، أنا وعدد قليل جداً، من أفراد المهجع 38، بعد أن انضم إلينا مجموعات صغيرة أخرى من مهاجع أخرى، إلى مهجع تمَّ الفراغ من بنائه حديثاً، بعد التوسعة التي توسعت من خلالها باحات السجن ومهاجعه، والذي شُيِّد في صدر الباحة السادسة من جهتها الخلفية، وغلبت عليه تسمية ارتجالية اعتباطية، حيث لم يُسم أو يُطبع عليه رقم تسلسلي، هي اسم: "جديد السادسة صدر".

جديد سادسة صدر مهجع صغير جداً، إذا ما قيس بحجم المهجع 38. موحش ومشاد في موقع ناءٍ، بعيد عن كل شيء. ويثير منظره الكآبة والانقباض في النفس. هذا المهجع سوف أمكث فيه قريباً من سنة ونصف أخرى تالية.

في جديد سادسة صدر، تعرفت على أكثر الجوانب الخفية والمغيبة عني في السجن، والتي لم آلفها في طبيعة المهجع 38، والتي تشيع جواً من الإلفة المشتركة، وتقارب الروح الجماعية.

– 4 –

سمعت لأول مرة بجماعة "يشار". ويشار هو معلم وموجه إسلامي كبير، دمشقي النشأة من أصول شركسية. تتلمذ في بداية نشأته على كتب الندوي وسيد قطب، وتلقى بعض علمه في فترات شبابه الأولى عن الشيخ جودت سعيد. ثم أصبح يعتبر نفسه من مجددي الدين ومن دارسي العقيدة والمتبحرين فيها. وقد عاش سنواته الأولى في المهجع 21 في الباحة الرابعة، الذائع الصيت في تدمر، وحكم في المحكمة الميدانية في تدمر، بالسجن المؤبد.

ولقد التف حول يشار مجموعة من المؤمنين به إيماناً مطلقاً. وكان هؤلاء اليشاريون يعتقدون بأن جميع البشر، هم من الكفار الواجب اعتزالهم، والاعتقاد بكفرهم كفراً مطلقاً. بما فيهم غالب السجناء في سجن تدمر، حيث حرَّموا على أنفسهم الصلاة مع السجناء في جماعة، أو الترحم على من مات في سجن تدمر، أياً كان سبب موته، وبغض النظر عن أسباب الموت.

كان اليشاريون، يرفضون القاعدة الأصولية التي استنها الصحابي ابن

عباس، والتي تقول بمبدأ: (كفرٌ دون كفر)، ويعدون الذنوب جميعها، كبيرها وصغيرها، ضرباً من جحود الخالق وتحدياً له، وبالتالي كفراً به. فالبدعة كفر، والكفر اللفظي كفر، والكفر القلبي أو اجتراح أية معصية، حتى لو كانت معصية صغيرة، يعد تجرؤاً على خالق الكون، وتحدياً له. ولقد توصل اليشاريون بعد تحاور واجتهاد ودرس لنصوص الدين، إلى أنه لا يوجد إلا قلة قليلة من المؤمنين على ظهر هذه الأرض، وأنهم، اليشاريين، هم من بقية هؤلاء القلة القليلة التي استمسكت بصحيح الإيمان، أو مازالت مؤمنة بالله في هذه الدنيا، الإله الحق، خالق الكون ومنزل الرسالات السماوية، وأن بقية الناس، ما هم في حقيقتهم إلا كفارٌ، يجب دعوتهم للإيمان مجدداً، أو اعتزالهم ونبذهم على.

ولقد استفاد اليشاريون من خروجهم من عزلتهم المفروضة عليهم، في المهجع 21، بعد انتشار مرض السل، الأمر الذي ألجأ إدارة السجن إلى فرط مهاجع، وخلطها بأخرى، وتجميع مهاجع جديدة حسب الحاجة، وحسب ما اقتضته درجات ومستويات انتشار وتطور المرض، الأمر الذي كان يتم فيه توزيع كثير من سجناء تدمر على المهاجع اضطراراً، وأحياناً بصورة اعتباطية كيفما اتفق. في هذه المرحلة، وجد اليشاريون فرصة ذهبية متاحة، لنشر أفكارهم ودعوتهم. حتى أصبحت أعدادهم في تزايد، وأصبحوا يعدون بضعة عشرات.

في جديد سادسة صدر، توثقت عرى الصداقة بيني وبين أستاذ حكيم..

كنت أحب أن أسميه بالأستاذ الحكيم. وذات مرة اتصل بيننا الحديث لساعات طويلة، حول العلة الأصلية التي استولدت العقائد والأفكار من أسطورة، كانت هي علة وجود البشر، والسبب الذي سوف يفضي إلى عاقبة وجودهم. الأستاذ الحكيم سماها الأسطورة الأولى الخالقة، والمستمرة الى أبد الآبدين. ويا لها من أسطورة..!؟

وذات مرة، سألت الأستاذ الحكيم على حين بغتة:

– هل أنت مؤمن بتلك الأسطورة؟

أجاب بثقة ويقين:

– الأسطورة لم توجد ليؤمن بها الآخرون أو يجحدوها. لقد وجدت فحسب. هل تؤمن أنت بوجود السماء فوقك والأرض تحتك، أم لا

تؤمن؟ وما قيمة إيمانك من عدمه في هذه الحالة.؟ حتى لو ثبت لك علمياً اليوم، أنه لايوجد، ولم يوجد، يوماً شيء اسمه فوق، أو تحت؟

الناس على قرب من الحقيقة، بحيث أنهم لا يلحظون وجودها في حياتهم، ولا يعترفون بأنها هي من تقرر مصيرهم في النهاية.

– تحاول أنت من خلال أسطورتك أن تفضي إلى نتيجة، مفادها بأن الخير والشر ما هما في الحقيقة إلا وجهان لعملة واحدة.

ابتسم ابتسامة موبخة، وتحمل في طياتها لوماً وتأنيباً:

– أنت سريع الاستنتاج دوماً. متعجل النتائج. مباشر الفهم. ما يهمك دوماً هو مبدأ الوصول بأي سبب أو وسيلة. مع أنك لو تفكرت قليلاً في الأمر، فلسوف تعثر على نتيجة أشد خطراً: وهي أن الوصول في رحلة الطريق، ليس هدفاً من الأهداف الحقيقية، إنما هو وهم من أوهام عقلنا الضئيل.

في تلك الأزمنة السحيقة أعلنت نخبة من العلماء أنهم نجحوا في تطوير تجربة علمية خطيرة جداً، ومثيرة للاهتمام. تجربة يمكن من خلال تطبيقها على الإنسان، أن تمنحه خلوداً أبدياً. وسوف يكون ذلك الإنسان، أي إنسان، شيئاً خالداً على مرِّ العصور. وقد اصطلحت نخبة العلماء على تسميتها باسم سري، غير معلن للعوام ودهماء الناس، ألا وهو "تجربة القطة العمياء".

أطلقت نخبة العلماء على هذه التجربة مسمى " القط الأعمى"، أو "تجربة سرمدية الروح والجسد". كما وضعوا مصطلحاً علمياً لهذه التجربة، هو "اختبار الشباب الدائم". بينما تهامسوا فيما بينهم بأن الموت والفناء والعدم، قد باتت أشياء رهن الماضي فحسب.

في ذلك الزمن، جرى تحضير مختبر علمي هائل وضخم، لاختبار التجربة لأول مرة في التاريخ، مختبرٌ لاحِبُ الطول والعرض، في قلب الغابة الكثيف المتشعب. ولقد زودوه بخبرات وأجهزة عالية القيمة والكلفة والتقدير. فخرج ذلك الاكتشاف العلمي، بعد تكتم وتستر طويلين إلى العلن أخيراً، ولم يعد الأمر سراً متداولاً فقط بين نخبة العلماء أنفسهم. لقد دخل العلماءُ عصرَ الإعلان عن النبأ العظيم، وتحدد تاريخ البدء بأول تجربة سوف تُجرى على المشتركين الأوائل، باختبار الخلود والأبدية.

وبدأ الناس يتحدثون فيما بينهم، ويلغطون كثيراً حول هذه التجربة المثيرة والشيقة، ومعلومٌ أن غالب الكشوف العلمية، إنما تستثير الاهتمام الشديد، بادئ الأمر، وإن كان الوسط العام في البداية غالباً، ما ينحو نحو التكذيب والتشكك، والمزاج الجماعي للجمهور الواسع، يختلط فيه عند البدايات التكذيب بالتصديق، ويميل بادئ كل أمر، إلى الريبة الكبيرة بمثل هذه الكشوف، التي تنطوي على غموض وضباب كثيفين يحجبان العقول، وعلى خبرة غير مؤكدة. فلا تنجلي ريوب الناس بسهولة.

ولقد دار واختلط اللغط والجدال بين الناس جميعاً، من أن تكون تلك النخبة من العلماء قد جاؤوا شيئاً فريّاً، أو كانوا سيئي الغرض والغاية، وإن يكن الفضول الشديد الأعمى، الذي يملك القلوب والأبصار، قد أسَرَ الجميع، حتى أشدَّ المشككين الذين ألحدوا في حقيقة هذه التجربة العلمية الباهرة.

فالفضول والرغبات الدفينة التي تأسر الناس، عادة ما تتحول شيئاً فشيئاً، إلى شغف خاص؛ إن المرء لا يسعه أن يقاوم الرغبة بالخلود وقهر الموت، حتى وإن لم يبلغ في ذلك اليقين مستوى عالياً، يحفز على الخضوع للتجربة أو الإقرار بنتائجها، إلا أن كل امرئ ، في ذلك الزمان، وفي سالف العصر والأوان، قد انطوت نفسه، جزئياً أو كلياً، على هاجس الخضوع للتجربة العلمية الخارقة، والرضوخ والاستسلام لقدر النتائج المتوقعة. واستبد به شغفٌ خاص وحارق، لأن يشارك التجربة وأن يخضع لها.

فمن منا، نحن معشر البشر، من يمكنه أن يقاوم الرغبة بالخلود..؟

شرع المختبر الكبير في الغابة، يستقبل الراغبين بإجراء التجربة الفردية على أنفسهم، وابتدأ موظفوه المكلفون بتسجيل أسماء الناس. لقد كانت الأعداد الأولى من الأسماء المتقدمة، تشير إلى ذلك التردد الكبير في الأنفس، حيث لم تتجاوز أعداد المتقدمين لإجراء التجربة عليهم، أكثر من بضع مئات من المتقدمين من الأفراد المتطوعين.

ويوماً بعد يوم، تشجع الناس رويداً رويداً، وبمرور الوقت، راحوا يُحَمِّسُ ويُحرض بعضُهم بعضاً. بعد أن تحولت تلك الرغبة الجماعية، التي أخذت تستبدّ بجميع الناس، تحولت إلى حالة جموح عامة، لا

يمكن كبحها أو مقاومتها، أو التستر والتكبر عليها. فصارت أعداد المتسجلين، الراغبين بأن يخضعوا لتجربة الخلود بالآلاف، ثم بعشرات الآلاف، ثم بالملايين.

بعضهم حضر إلى الغابة بنفسه، وبعضهم راح ينتظر دوره من بعيد، وقد اتخذ مثواه من خارجها، أو بعيداً عنها. حتى باتت الغابة مصدرَ جذبٍ للناس من داخلها ومن خارجها. بل من شتى جهات الأرض، وسائر أقطارها. فالغابةُ تجذبُ فرائسها كما يجذبُ المغناطيسُ برادةَ الحديد. والفرائسُ تنجذبُ إلى الغاب، كما ينجذبُ فلوُ الأفراس إلى مرضعته، وكما تنجذب الأطلاءُ إلى أُمَّاتِها. الغابةُ لها هَبَواتٌ ونَزَوات وسكنات. فإذا كان التذكرُ هو ثوب الذاكرة وسترها، فإن النسيان هو بهرج زينتها العذب وزخرفه.

أصبحت حقيقة الخلود وأمره المتوقع، لا ينتظر إلا مجرد الإعلان عن النتائج، وبيان رسمي من نخبة العلماء، يجلو كل ذلك الغموض؛ ويؤكد على أن التجربة قد نجحت، وأن هؤلاء المتطوعين الذين أجريت عليهم التجربة، قد باتوا خالدين لا يعروهم الموت والفناء مهما طالت بهم الأيام وامتد أمد الدهر. وقد أوكل العلماء لتيسير أمر دخول المجموعات المتسجلة، في جدول التجربة، لبعض الموظفين الإداريين، الذين حُصرت مهمتهم في الاعتناء بتنظيم دور كل فرد متسجل.

وفي موعد التجربة المحدد، بدأ العمل على دخول أول مجموعة، وكانت مؤلفة قريباً من بضع مئات من الأفراد. وهنالك ابتدأت الإجراءات العلمية المخبرية الصارمة والدقيقة، في تحضير المجموعة الأولى، التي أصبحت داخل المختبر، وباشرت بالعمل على ما يجب عمله بحقهم، في صالة كبيرة رحبة الأرجاء، اتسعت للجميع.

لم يرَ أحدٌ يوماً ما، ما الذي يحتويه هذا المختبر، ولم يطلع على ما بداخله أيُّ إنسان، إلا نخبة العلماء أولئك. كان الناس قد احتشدوا بالمئات والآلاف، عند بوابة المختبر وهم يراقبون ويأملون، منتظرين دورهم في الوصول إلى داخل المختبر. وبمرور الوقت وتتالي الأيام والأشهر، أخذت تنتظم حركة عفوية غير محتسبة أو مخطط لها، خارج المختبر العلمي الهائل الحجم.

لقد أصبح هناك خيام إيواء مؤقتة، وبيوت عشوائية مرتجلة البناء، وأماكن مخصصة للاستحمام وقضاء الحاجات، وراحت تنشط حركة

التجارة والبيع، بين جمهور الناس الذين ازدحموا حول المختبر. فكان ثمة بصطات تجارية، وضعت على عجل في البداية، غرضها تأمين حاجات الناس الضرورية من أطعمة وأشربة. ثم بمرور الأيام وتتالي الأشهر والأعوام، تحولت تلك البصطات الى محلات تجارية ومخازن متنوعة، بعضها صغير وبعضها كبير، ووجدت إلى جانبها العيادات الطبية والصيدليات ودور الإسعاف والتوليد والتمريض وغير ذلك.

وانتشرت القرى والمدن، وعمرت الحضارة وازدهرت. وانتظمت حركة المرور والشرطة بالتدريج، ثم تعززت الحاجات والكفايات، فأصبح كل ما يحتاجه الناس من حاجات أولية ضرورية، كانت مفتقدة داخل الغابة – التي كانت حتى وقت قريب، بقعةً خاليةً من العمران والناس والحضارة – متوفراً مبذولاً، وتحولت الغابة، التي لم تكن أكثر من أدغال كثيفة كئيبة المنظر، تأوي إليها الوحوش والضواري، تحولت إلى مكان آهل مبهج، يشع بالحياة وينبض بالحركة والبركة.

ومن هذه الحشود الغفيرة تشكلت نواة المدنية الأولى في مدرج البشر. ولكن فجأة حدث مالم يتوقعه أحد. بل وما لم يطلع عليه أحد فيما بعد حتى اليوم. فلقد أخفقت التجربة العلمية داخل المختبر منذ دقائقها الأولى.

حدث انفجار عظيم في حجرة عمليات المختبر. كان ذلك الانفجار نتيجة خطأ غير محسوب، ولا مفهوم من نخبة العلماء حتى اليوم. فكانت نتائج الانفجار كارثية بحق؛ لقد تقوضت التجربة، وتدمرت غرفة المختبر تدميراً كبيراً. وانفرطت صالة الأجهزة العلمية نثاراً في كل أرجاء الصالة. والأدهى، أن جميع أفراد الدفعة الأولى من المسجلين لإجراء التجربة عليهم، كانوا قد سقطوا قتلى نتيجة الانفجار.

– 5 –

وقف نخبة العلماء ينظر بعضهم إلى بعض، وقد لفهم الذهول والحيرة والصمت. شاع الخوف والارتباك، وراح الجميع ينظر إلى رئيس العلماء والمدير المسؤول عن التجربة، وهو واجم لا يقوى على النطق بحرف. لم يفهموا ما الذي حدث بالضبط، ولا كان مستوعَباً لِمَ آلت الأمور إلى تلك النتائج. ولا أين كمنت علة الخطأ المرتكب في التجربة. وفوق ذلك، لم يكن لديهم الوقت الكافي لمراجعة ما حدث بتمهل وتريث، وعلى وجه الدقة.

كانت الجماهير المحتشدة المتزاحمة، تنتظر عند الباب الخارجي، في عراء الغابة، وهي تحبس أنفاسها آملة منتظرة، فكان الإعلان عن فشل كل شيء وانهياره بمثابة مصيبة وكارثة علمية غير مسبوقة، لا على المستوى المهني والعلمي لأولئك النخبة من العلماء، وإنما على المستوى الشخصي الذي يحط بالسمعة، وينزل من قدر كرامتهم الشخصية. ولقد كان من أكبر الحظوظ، وبالغ ما حالفهم التوفيق يومذاك، أن صوت الانفجار لم يبلغ مداه أسماع تلك الجماهير المحتشدة. فلم تصل إلى الناس نأمة أو خبر، ولم يرتابوا بشيء مما يحدث داخل سور المختبر. وخلف جدران حجراته السرية. فجعل رئيس نخبة العلماء يعيد تقييم الموقف على أساس هذه الحقيقة الجديدة، والتي عدَّها جزئية انتصار وتوفيق صغير على هامش ما حدث.

في أول ردة فعل على الذي جرى دونما توقع أو احتساب، اقترح بعض أولئك النخبة على المجموع، أن يفروا من باب سري في المختبر، ويتواروا عن الأنظار، فلا يرون أحداً ولا يراهم أحد، وهكذا يمكنهم أن يخلصوا من هذه المصيبة وهذا الحرج، مرة واحدة وإلى الأبد.

غير أن الرئيس، رئيس لجنة العلماء، لم يُعجب بهذا الرأي، ورفضه البتة دون مناقشة أو كثير تفكر. لقد اعتدَّ رئيس لجنة أولئك العلماء، بكون الجمهور المحتشد، ما اطلع على شيء مما حدث خلف جدران المختبر. ولقد كان جهل الناس بكل ما حدث ويحدث، أو سوف يحدث مستقبلاً، نقطة لصالحه. واعتبر هذا الأمر شيئاً ليس بقليل في تلك اللحظة الرهيبة الحرجة، ولاح وكأن شيئاً مخصوصاً، أو فكرة معينة، قد

جعلت تلحُّ عليه، فأمر على الفور بأن تغلق الأبواب والنوافذ، وأن يُسعى فوراً في نقل جثامين القتلى، قتلى التجربة العلمية، وأن يتمَّ إخراجهم من المختبر سراً، إلى عراء الغابة، وهنالك؛ في مكان بعيد ناءٍ، سوف يُدفنون ليلاً دون أن يلحظهم ملاحظ، أو يشعر بهم أو يفتقدهم أحد.

الأمر الآخر الذي أصدره الرئيس، هو أن يجري التكتم الشديد على كل ما حدث داخل المختبر، فلا يطلع عليه أحد، وما آلت إليه نتائج التجربة من مآلات مخيبة. كل ذلك كان تمهيداً، ريثما يتم التفكير بهدوء واتزان، كيف يمكن مواجهة الموقف الكارثي الجديد، وكيف يمكن البناء عليه في المستقبل.

الأوجب أهمية في خاتمة المطاف، والأحرى بأن يُتَمعَّن فيه جيداً، أن رئيس العلماء قد أصدر إعلاناً رسمياً، خاطب فيه جميع الناس، بأن التجربة قد نجحت، وأن الخلود بات قدراً ممكناً في حياة البشر الفانين، وما على الناس إلا أن يعتقدوا بذلك ابتداءً، ثم أن يصرفوا ذهنهم وعقولهم وطاقاتهم، ويرتبوا كل سلوكهم على مجهر هذه الحقيقة. وعلى الأفواج الأخرى التي كانت قد تسجلت للخضوع للتجربة، وهي تنتظر أمام المخبر، في تلك الغابة الواسعة الأرجاء، ما عليهم إلا أن يبدؤوا بالدخول والخضوع ليكونوا مادة التجربة القادمة.

بادرتُ إلى القول، فيما يشبه أن يكون اتهاماً للأستاذ الحكيم:

– إذن فأنت تريد أن تصل بالنتائج، إلى أن نخبة العلماء ورئيسهم المزعوم هذا، ما هم إلا عصبة من مستغلين ومجرمين وقتلة؟

– كيف توصلت إلى هذا الاستنتاج؟

– واضح جداً. هذا ما تخلفه أسطورتك في النفس من انطباعات. مع أن العلماء لم يرتكبوا أية خطيئة أو جناية، باستثناء غلط علمي لم يعثروا على أسبابه، ولا كانوا هم جناته بمحض إرادتهم، الغلط الذي استنزل الكارثة فوق رؤوس الجميع. فالعلماء ما خطر ببالهم قط، شيء ينطوي على نوايا إجرامية. بل العكس هو الصحيح. وإذا كان ثمة خطأ علمي قد وقع، فهذا لا يُحَمِّلهم وزراً ولا تبِعةً.

– استمع لما سأقوله جيداً: قلت لك من قبل بأنك مهووس بالوصول إلى النتائج، والآن أرى أنك قد أصبحت أشد هوساً في تقسيم المسؤوليات، ووضع الحقوق والواجبات والمحاسن والشرور، في

مواضعها التي تعتقد بأنها الأنسب. حسنٌ. سأجاري منطقك، وطريقة تفكيرك، ولو مبدئياً ومؤقتاً، وأسألك هل ترى أن العلماء ورئيسهم غير مذنبين إذن؟

– بكل تأكيد! لا يجب أن ننسى بأنهم وقفوا حياتهم لصالح ذلك الجمهور المنتظر النتائج في الخارج، ولخيره العام.

– والجمهور الذي ينتظر خارج المختبر، هل تراه مبرأً من أي اتهام؟

– الجمهور غافل لا يعلم شيئاً. فكيف يمكننا نسبة جريمة إلى من لم يسمع بها، ولا أقدم عليها؟

– لكنه يتحمل جزئياً، ولو بشكل مبطن، بعض الأسباب والمسؤوليات، التي أدت إلى كل هذا الخراب الكبير في حصاد النتيجة. الناس يلهثون وراء الخلود لأنه قد استحوذ عليهم الشغف بأن يصبحوا آلهة. استبطاناً، وجزئياً، هذا هو خطؤهم غير المشعور به وغير الملاحظ. وبالتالي فإنهم متسببون بالنتائج وإن يكن بصورة غير مباشرة، ومن غير الممكن النظر إلى الناس نظرتنا إلى أبرياء مطلقين.

– تبرئة العلماء خطأ مبين، أما تجريم الناس الغافلين، فهو أكبر الشرور وأفدح الخطايا.

– إذا لم يكن هناك مَنْ هو مذنب مدان، فهذا يعني أنه ليس ثمة جريمة في الأصل؟

– لكن الجريمة وقعت. وهي موجودة، وهنالك قتلى سقطوا ضحايا. ولا مجال لإنكارها، لا عقلاً ولا قانوناً. هذا ما تقرره الأسطورة على الأقل. أليس كذلك؟

– هنالك جريمة كبرى وقعت في هذا الكون بدون فاعل، وليس وراءها عقل يمكن أن يتحمل مسؤولية، أو واجب الإدانة. ومحاولة الخروج منها ونفض اليد بنسبتها إلى قدر غير مفهوم، هو نوع من محاولة يائسة لتبرئة الجميع بأسلوب متحايل وملتوٍ.

ضحكت وأنا أقول مخاطباً الأستاذ الحكيم:

– لاحظ بأنك قد أصبتَ بعدوى العقلانية، وبلوثة المنطقية مني، حتى بتَّ مستعجلاً ومكترثاً بالنتائج والمسؤوليات، وعلى من تقع، أكثر مني.

– لا تستعجل. لا تستعجل الاستنتاجات بسرعة. إنما أنا أحاول مقاربة التوصل إلى فهم الأفكار حتى أقربها منك، وليس غير.

– ولاحظ كذلك، بأن العلماء إنما كانوا ينشدون خير الناس وخلودهم، وليس إلحاق الأذى بهم أو إبادتهم، كما انتهت إليه النتائج.

– لكنهم خدعوا الناس وكذبوا عليهم، وأعلنوا نجاح التجربة.

– هذه خطيئة صغيرة، وملحقة بالحدث الأصلي. فإن سميتها ذنباً أو جنوحاً منهم، فلك ذلك، لكنها، بحال من الأحوال، ليست الجريمة، ولن ترتقي كذبتهم إلى مصاف الجريمة. كما أن دوافعها ليست دوافع جرمية، ولا كذلك مسبباتها. بل هي من اللواحق والنتائج التي رتبها السير العام للحكاية أو الأسطورة.

– فلنتفق إذن على أنهم يتحملون ربع الوزر أو نصفه، وليس كله.

– لا جريمة كاملة يتحمل الجاني فيها ربع المسؤولية القانونية أو نصفها. هذا وحده يمنحه صك براءة من اقترافها.

– الواقع أن الأسطورة تقرر ما هو أخطر من ذلك، والذي لم تلحظه ولم يقترب عقلك منه. ألا وهو أن الجريمة سوف ترتب سلسلة من الجرائم اللانهائية بحق البشر، فالناس اشتعل فيهم الحماس للخضوع للتجربة، والعلماء مرحبون في السير بتلك التجربة إلى ما لانهاية له. والتجربة سوف تفضي إلى العدم المطلق. وهكذا فإن السلسلة الدائرية، سوف تمضي من بذرة جريمة بحجم حبة السمسم، إلى جريمة كونية بحجم المجرة.

– لا زلت أجد في نفسي حدساً ينبئني بأن الناس يحتملون بعض الذنب بطريقة ما، وإن لم يكونوا مذنبين ذنباً كاملاً يوجب الإدانة. ولكن من الصعب أن أجد اللغة والصيغة التي تسعفني لقول ذلك بصورة منطقية.

ضحك الأستاذ الحكيم ملء قلبه من الابتهاج. ضحك وكأنه انتصر عليَّ أخيراً، وقال:

– هذا رائع. لقد بدأت تتلمس طريقك في كيفية استعمال حدسك بشكل صحيح. إنك توشك على أن تستبدل العقل بالحدس.

قلت:

– بل قل الأصرح والأصدق؛ إنني اصبحتُ أسند عقلي بالحدس.

الفصل التاسع

مهجع 29 وحقائب الذاكرة

– 1 –

وجدت نفسي فجأة في بداية عام 1987 وقد أصبحت رئيساً للمهجع 29. وهو المهجع الذي كانت إدارة السجن تصنفه تحت تسمية "سلّ الأصحاء"، أو "أصحاء السلّ". والمهجع 29 كان أشبه بمستودع مؤقت لمصابي السل، الذين ثبت طبياً بأنهم قد تعافوا، ولو مؤقتاً، من محنة مرض السل وتماثلوا للشفاء. فلم يكن ممكناً إعادتهم إلى مهاجعهم، قبل وضعهم تحت مراقبة المسؤول الصحي العام عن مرض السل في السجن كله؛ الدكتور زاهي العبادي، أبو واقد.

كان على الدكتور زاهي أن يعيد فحص المرضى الذين شفوا يومياً، حتى يتم التأكد بأنه لم يعد ثمة خطر من عدوى جديدة، وإعادة اختلاطهم بين السجناء الآخرين. وفترات المراقبة هذه، قد تستغرق بقاء السجين في المهجع 29، فترة تتراوح بين الشهرين حتى السنة والنصف، إذ أن احتمالات الانتكاسات السلّيّة تبقى من أقوى الاحتمالات. وفي مرحلة متأخرة، بدأ معظم سجناء تدمر يصابون بالمرض، حتى أصبح واضحاً، بأن السل سوف يشمل الغالبية الساحقة من السجناء.

بعد أن ألفيتُ نفسي وقد أصبحت رئيساً للمهجع 29، تكاثرت عليَّ أعباء جمة. فالمهجع 29 مهجع رئيسي ومركزي بالنسبة لمعالجة مرض السل، وفحص كل حالات الإصابات السلية، وتحديد درجة الإصابة ومستواها. سواء إصابات مهاجع الباحة السادسة أو السابعة، والتي تحولت جميعاً إلى مهاجع عزل لمرضى السل. وذلك لكون إدارة السجن كانت تعتمد على الدكتور زاهي العبادي، أبي واقد، اعتماداً كلياً بهذا الشأن، وهو المسؤول الصحي المباشر للمهجع 29.

إدارة السجن وطبيبه، كانا يعتبران أبي واقد، هو المرجعية المعتبرة والوحيدة في هذا الموضوع، ورأيه مرجح حتى على آرائهما، وكلمته هي

الفصل في أي شأن أو مقترح يتعلق بتطور المرض، وحالات انتشاره وتوزعه في المهاجع.

كانت أكثر الهموم والمشاكل تتعلق بكمية الدواء المتوفرة. فإدارة السجن دأبت على توزيع الدواء في جاطات طعام كبيرة، لكل المهاجع، (أحياناً كانت الجاطات الكبيرة تطفح بحبوب الأرشيدين، بما يعدل ضعفي كمية الطعام المقررة للمهجع). وفي أغلب الأحيان كانت كمية الأدوية المضادة لذلك الوباء الكاسح يتمُّ تجميعها كلها في مهجعنا رقم 29، ثم يُفوَّض الدكتور زاهي، أبو واقد، بتوزيعها حسبما يرى المصلحة في ذلك.

كان الدواء ثلاثياً، يتألف رئيسياً من أمبولات حبوب تعد الحبوب العلاجية الأساسية. وتسمى طبياً (ريفامبيسين)، أو حسب الاسم التجاري المتداول تسمى بـ(الأرشيدين)، وتُدعم جرعة الأرشيدين، بنوع ثانٍ يسمى الستربتومايسين، وهو على شكل أبر عضلية، كانت تصل إلى سورية، كمنح وهبات مصنعة ومقدمة من حكومة ألمانيا الشرقية. وغالباً ما تكون مخزنة منذ وقت طويل، ومنتهية الصلاحية. إضافة إلى نوع ثالث من الحبوب، داعم لحب الأرشيدين، كان يسمى (ايزونيازيد). والسجناء اعتادوا على اسم مختصر له، هو: حب الإيزو.

كذلك كان يمنح لكل مريض محقن (سيرينغ) واحد، يستخدم لحقن 60 إبرة، بدون أي إجراءات تعقيم، وعلى مدى ثلاثة أشهر ونصف. ومعظم هذه الأدوية التي كانت توزع في السجن، هي من منح وهبات منظمات الأمم المتحدة التي تزود بها الحكومة السورية.

ومع أن الأرشيدين كان هو المضاد الرئيسي لمرض السل، والذي جرى تقسيم حالات الإصابة به من قبل الدكتور زاهي، إلى إصابة من الدرجة الأولى، ثم الدرجة الثانية، ثم الدرجة الثالثة. أما بعد الدرجة الثالثة، فكان يصنف كحالة في طور الإبلال والتعافي والشفاء، أو ما يمكن أن يسمى الإصابة السلِّية المتماثلة للشفاء. والتي أصبح المهجع 29 فيها، منذ بداية عام 1987، مركزاً للمراقبة، ولاحتواء ومراقبة حالات الإصابة في سائر أطوارها.

أما بالنسبة لحالات الإصابة من الدرجة الأولى، التي لم تكن لتستجيب للعلاج بالأرشيدين وبقية الأدوية الأخرى، فقد كانت إنذاراتُها تنتهي بوفاة المريض في غضون ستة أشهر وحتى السنة. وأما أعداد

السجناء الذين انتهت حالتهم بالوفاة بسبب المرض، فلا يمكن حصرها بحسبان تقديراتنا اليوم، ولم يجرِ أيُّ تقصٍ تقريبي لها.

والمشكلة الكبرى التي باتت أكبر المعاناة التي يعيشها السجناء، في حالات الإصابة السلية، هي أعراض الدواء نفسه ومداخلاته. فالأرشيدين رغم فاعليته ونتائجه الطبية المضمونة، إلا أنه كان عقاراً يؤدي، عند كثرة التناول، الى الإصابة الكبدية، أو تلف في كبد المريض.

وهكذا فإن كثيراً من المصابين بالسل، رغم علمهم بهذه الحقيقة، كانوا يفضلون ما يسمونه "ضرب الكبد" – وهو علة غير مميتة، في الحدود المعقولة والمنظورة – على توقف الأرشيدين أو انقطاعه، خاصة في حالات العلاج التي مضى عليها عدة سنوات دون نتيجة حاسمة، ما يعني أن ندرة حبوب الأرشيدين هي موتٌ محتمٌ للمريض، عاجلاً أم آجلاً.

أما الأعراض الجانبية الأخرى، لبقية الأدوية المُدَعِّمة لتناول الأرشيدين، فقد كانت تؤدي بصورة مؤكدة وسريعة التأثير، إلى الإصابة بالتهاب الأعصاب، كما كان الستربتومايسين، يؤدي إلى عطب العصب السمعي، لينتهي بمريض السل إلى الصمم أو ضعف السمع.

أما أسوأ ما يمكن توقعه في الإصابة السلية، فقد كان استقرار الإصابة في عضو من الجسم غير الرئة، (أكثر من تسعين بالمائة من الإصابات كانت تستقر في الرئتين). فتَوَضُّع الإصابة السلية في الخصيتين، كان يؤدي إلى تلف وظائفها، والنتيجة ستنتهي بعقم مؤكد للمريض. أما الأسوأ فكان توضُّع الإصابة في العمود الفقري، حيث تبدأ بنخره بالتدريج إلى حد تآكل الفقرات. ولقد عاينت حالة على الأقل في المهجع 29، لفتى حموي يافع لا يتجاوز عمره السابعة عشرة، وقد تحول ظهره نتيجة الإصابة، إلى تحدب مبوّز، على شكل زاوية مثلث متصالبة مع جذعه.

كان على المريض المصاب إصابة من الدرجة الأولى، أن يتوافر له كمية يومية قبل الإفطار، لا تقل عن ثلاث حبات من كل نوع، أي يجب أن يتناول كل صباح قرابة سبع حبوب من مجموع عقاقير السل. ولفترة لا تقل عن ثلاثة أشهر. وقد تبدأ كمية تناوله للأرشيدين تتناقص ابتداءً من الشهر الرابع، هذا إذا ما كان هناك استجابة وتعافٍ ملحوظ، تظهر علاماته على المريض.

بالطبع كان يتم توقيف تناوله للأنواع الأخرى المدعمة لعقار

الأرشيدين، وذلك حين يتمُّ التأكد من انتقاله إلى الطور الثاني من المرض، الأقرب للتعافي. ولقد كان العلاج بالدواء، دون دعم أو سند غذائي، في واقع يشبه مجاعة مستدامة، وقلة طعام إلى درجة لا تكاد تصدق، كان العلاج أشبه بإلقاء النقود من النوافذ، أو رمي قطع ذهبية في قاع المحيط.

كذلك برزت مشاكل أخرى كثيرة غير متوقعة. فمن جهة كانت تحدث أحياناً ونادراً شجارات وعراكات، بسبب توزيع الأرشيدين. كما أنه أصبح هنالك ما هو أقرب إلى السوق السرية السوداء، غير المعلنة على الملأ، من مقايضة بعض السجناء بعضاً بحصته من كمية اللحم الضئيلة جداً،(التي لا تتعدى بضعة غرامات)، أو حصته من الدوسير، وهي أضأل وأندر، أو مخصصاته من الخبز أو الزيتون أو جرعة الشاي الصباحية الصغيرة، ولفترة قد تمتد لبضعة أشهر، مقابل كمية من حبوب الأرشيدين، ليعمل على تخزينها تحوطاً وتحسباً من الأسوأ.

وأحياناً كانت تحدث المقايضات على بضعة حبوب أرشيدين، مقابل بعض قطع الثياب الممزقة المهترئة، التي كان يرتديها السجناء. وفي حالات نادرة جداً حدثت بعض السرقات القليلة التي انتهت بتبادل الاتهامات، وفتح تحقيقات وتقص للحقيقة من قبل الطبيب ورئيس المهجع. كذلك في حالة نادرة ووحيدة، سمعت بأنها حدثت في أحد المهاجع الأخرى، وإن لم تكن حقيقتها مؤكدة، (رجحتُ بأنها ضرب من المبالغات والتلفيق)، أنه جرت عملية ابتزاز واستغلال جنسي بين رجل كبير وفتى يافع، مقابل بضعة حبوب أرشيدين. ولقد طغى ما أسميه (رُهاب الخوف من انقطاع الأرشيدين) على الأحداث والشبان الصغار، حتى أن بعضهم ظل يخبئ كميات كبيرة من حبوب الأرشيدين، حتى فترة ما بعد انتقال أكثريتهم إلى سجن صيدنايا لاحقاً، بل وإلى ما بعد إخلاء سبيلهم وخروجهم من السجن بأشهر طويلة.

– 2 –

في الفترة التي توليت فيها رئاسة المهجع 29، مهجع سل الأصحاء، (وكان من بالغ دهشتي أنني كنت السجين الوحيد في كل مهاجع السل، الذي لم يصب بالسل طوال تلك الفترة، حتى خروجي من المعتقل)، كان هنالك مشاكل أخرى مهولة، لا يمكن تخيّلُها، ولا توقعها أو السيطرة عليها بسهولة. فحبوب الأرشيدين في تركيبها الكيماوي، كانت مكوّنة من مادة ملونة تشبه السماق أو الصباغ الأحمر، فإذا وُضعت في الفم، أو تحت اللسان دون ابتلاع لدقائق، فإنها تذوب وتخالط اللعاب داخل الفم، حتى تستحيل إلى كتلة لعابية دموية شديدة الاحمرار، تشبه الدم، فيصعب كثيراً التفريق بينها وبين الدم الحقيقي، الذي يمكن أن يبصقه أو يتقيأه المريض في أولى حالات إصابته وأسوئها.

هذا الأمر كان يدفع بعض الأشخاص إلى خداع الطبيب، وإيهامه بأنه قد تقيأ دماً، وانتكست إصابته من جديد وعادت إلى نقطة الصفر، وذلك لكي يتاح له أن يطالب بعزله أو إعادته إلى مهاجع إصابات الدرجة الأولى. وذلك بغرض أن يجتمع في مهجع واحد، مع أخ أو أب أو ابن، يعلم أنه موجود في مهجع آخر. وقد تقتضيه رحلته للتنقل بين المهاجع، للوصول إلى قريبه فترة أشهر طويلة، قد تصل إلى سنة أو أكثر؛ فهو قد يبدأ الرحلة، بعد انتقاله إلى مهجع إصابة من الدرجة الأولى، ثم ينتظر دوره وعلاجه المفترض فيه عدة شهور، حتى يتم ترحيله إلى مهجع ثانٍ فثالث، كل ذلك لكي يصل إلى بغيته في رؤية قريب له، والاجتماع به في مهجع واحد.

أما أسوأ وأكثر ما يمكن توقعه، فهو حدوث الانتكاسات المتكررة بسبب التعذيب اليومي الذي يمارس على السجناء. إذ كثيراً ما كان يصادف أن يمعن الشرطة في جرعة تعذيب فائقة الحد، بحق بعض المصابين الذين تلقوا علاجاً لفترة سنتين أو أكثر، حتى تماثلوا للشفاء التام أو كادوا، فإذا بهم بعد حفلة تعذيب طويلة، قد توقع فيهم جلداً متواصلاً بالكرابيج، مئات أو آلاف الضربات، يتمزق لحمهم كله على وقع تلك العقوبة، وما إن يعادوا إلى المهجع حتى يبدؤوا بدلق الدماء وبصقها من الرئتين.

وأحياناً كانت تبلغ الاختناقات إحاطة من أنواع العذاب، بحيث يوشك الجميع على الانفجار من هول ما يصلون من دركاتٍ في التدهور، بسبب

الإصابة بالسل والجوع وانقطاع المياه في بعض الأوقات، وارتفاع درجات الحرارة العالية في الصيف. وما قد يحيط بكل ذلك من ظروف مصاحبة.

وفي إحدى تلك الحالات التي بلغ الأمر مبلغاً، شعر الجميع أنهم على هاوية فناءٍ وشيك محقق، هبَّ فخر نينو، أبو سعيد، هبوباً مفاجئاً غاضباً، ونهض معاتباً لائماً المسؤول الصحي الدكتور سليم الأسد، والذي تولى مؤقتاً مسؤوليات الطبابة والشأن الصحي، فترة من الوقت في غياب أبي واقد، بسبب وعكة صحية ألمت بالدكتور زاهي. وانبرى يقول للدكتور سليم الأسد:

– ياخي قوم دق الباب خلي حدا يرد علينا. والله رح نفطس بعد شوي. بلَّغ الطبيب أو رقيب اليومية أنه لا ماء ولا طعام ولا دواء، ونحن مرضى سل. قل لهم درجة الحرارة تكاد تبلغ الخمسين، ونحن أكثر من مائة وسبعين إنساناً نتحلل ونموت ببطء. سنفطس خلال ساعات، إذا لم يتمَّ تدارك هذا الوضع حتى غد.

أجاب الدكتور سليم الأسد بيأس مطبق:

– أنا غير مقتنع بجدوى الحديث معهم نهائياً أو الشكوى. وغير مقتنع بأنهم سوف يستجيبون أدنى استجابة.

صاح أبو سعيد:

– غير مقتنع.؟ لَكَنْ مقتنع انو "المجتمع جاهلي". أي نعم، ومقتنع أنه "يجب ولادة جيل قرآني فريد". أي نعم. بس مانك مقتنع تدق الباب وتقول للرقيب، أو لطبيب السجن بأننا رح نفطس بعد ساعات، إذا بقيت الأمور على ماهي عليه حتى الغد..؟

– 3 –

برزت مشاكل جانبية على هوامش الجائحة السلية ومعالجتها، فمن جهة كان الدواء يتم توقيفه من قبل إدارة السجن، إلى حد منعه نهائياً لبضعة أيام. وأحياناً أخرى كان يُستكثَر من توزيعه كثرة، تجعل الأطباء والمسؤولين الصحيين يدَّخرونَه كما يُدَّخر الذهب أو العملات الصعبة. ولقد كاثرَ هذا الشح الذي قد يطرأ أحياناً في كميات الأرشيدين، من حالات الانتكاسات السلية الكثيرة، وفي العموم كانت ثلاثة أرباع حالات المعالجة تنتكس، فيعاود المريض الذي ربما تابع علاجه لسنتين أو ثلاث أو أربع، إلى مرحلة الصفر، ويبدأ بعد انتكاسته الطارئة، بتناول العلاج من جديد، لكأنه يبدأ به منذ يومه الأول.

ورغم أن مديري السجن ومسؤوليه، كانوا محاطين بكل تفاصيل تلك المشاكل. مع ذلك كان مألوفاً في العادة، أنه كلما خرج الدكتور زاهي إلى الرقيب أو المساعد، المسؤول اليومي المناوب، كي يُذَكِّرَه بأن الكمية التي وصلت المهجع اليوم، تنقص بحدود النصف أو الربع، عن الكمية التي وعد طبيب السجن بها، كان من المعتاد أن يكون الجواب التلقائي، حاضراً لدى الشرطي المناوب اليومي:

– لطيزي الدوا ناقص. شو فيني أعمل إلكن. بدك ياني أنا أصير حبوب أرشيدين لأكفيكن؟

– سيدي، طبيب السجن وعد بأن لا يكون هناك أي نقص في الكمية، بعد حالات الانتكاسات الأخيرة.

– أنا ماني طبيب، ولا عاد تسألني هيك شي. بعد شوي بيجي الطبيب وقلو.

ويغلق باب المهجع الحديدي ثم يمضي.

ذات يوم من أيام المهجع 29 التي كانت تمر رتيبة بطيئة، بدا وكأنَّ أمراً خفياً قد تمَّ تدبيرُه في الليل، بين الأخوين الشقيقين، فايز وعبد الكريم، وقد تكتما عليه تكتماً شديداً. والحقيقة التي اتضحت لي فيما بعد، أن ثمة دائرة قريبة منهما، قد علمت بما يدور بين الأخوين. كانت الدائرة المقربة من الشقيقين فايز وعبد الكريم مؤلفة من شخصين، وبدخول الدكتور زاهي على الخط، أصبح الذين يعلمون بخطة

الشقيقين، وما قرراه وبيتاه من نية، ثلاثة أشخاص، لم أكن، أنا رئيس المهجع 29 واحداً منهم.

كانت المحكمة العسكرية الميدانية برئاسة الخطيب، قد حكمت على عبد الكريم بالإعدام. كما حكمت على فايز بالسجن لمدة خمس سنوات. وبعد همس سري ونجوى داخلية بين الشقيقين، عرض فايز على شقيقه الأكبر أن يضحي ويفتديه بنفسه، وأن يخرج في الموعد المقرر لتنفيذ الحكم بعبد الكريم، بدلاً عنه.

أسرَّ لي زاهي بعد الحادث بوقت طويل، أن عبد الكريم قد عارض بشدة، وأن فايز قد أصر على موقفه بعناد لا يتزعزع. فقد كان فايز هو الأصغر بينهما، فهو يصغر شقيقه بحوالي خمسة أو ستة أعوام، ولقد رأى بأن عائلته وعائلة شقيقه الكبيرة ستصاب بضرر جسيم، ولسوف تنفتح عليها بوابات الجحيم، إن انتهت حياة عبد الكريم، أو أطبق الموت عليه في السجن. بينما ظل عبد الكريم مصراً على رفض نوايا شقيقه، ربما إلى ما قبل اللحظات الحاسمة بساعات. وكان يرى أن مستقبل فايز أهم من مستقبله، وشبابه الغض أولى بالحياة التي تنتظره منه، فهو محطُّ عناية العائلة وأملها، وهو نور شمسها الساطعة أو المنتظر شروقها.

كدت أن اختنق من الحزن والغم بسبب ما حدث. ولقد انقطعت ليومين تاليين عن تناول أي طعام. وفقدت كل رغبة بالكلام أو التحدث إلى أي شخص ما. لم تكن صلتي بالأخوين أكثر من عادية، ولقد أوشكت أن أنفجر غضباً وقهراً، فلم أجد ملوماً أفرغ عنده غيظي الذي يكاد يأكلني أكلاً، إلا أبا واقد، حيث أسرفتُ وأنا أجلده جلداً بعتابي المرير.

قلت للدكتور زاهي:

– كنت تعلم مسبقاً بما أضمرا من خطة.

– للأمانة، سأخبرك بالحقيقة. الموضوع كله لم يكن يتعدى حديثاً عادياً. ولم يكن وارداً أن يصدق أحدٌ ما خططا، أو يأخذه على محمل الجد.

– لكنهم نادوا باسم عبد الكريم، وأنا بصراحة لم أكن بقادر على أن أميز كثيراً بين الشابين واسميهما، وأنت تعرفهما منذ أربع سنوات.

– سأقول لك أمراً مهماً: أنا حسبت القضية بحسابات أخرى مختلفة؛ من بينها أن فايز قد يتراجع في اللحظة الأخيرة عن افتداء أخيه، ولا يخرج مع الشرطة إلى باحة الإعدام. هذا كان أرجح تقديراتي،

ولم أكن أعوّل على ما سمعت من همسهما، فيما بينهما، الشيء الكثير.

الأمر الآخر، أنا طبيب مسؤول صحي، أي أنني لا أتحمل أية مسؤولية إدارية داخل المهجع سوى مهامي الصحية كطبيب، أما أنت، فإنك سوف تحمل عبء مسؤولية ضخمة وخطيرة جداً بحقك، لأنك رئيس المهجع، والمسؤول عن كل ما يحدث بداخله. فما بالك إذا ما انكشف لهيئة المحكمة وإدارة السجن، أنك سمحت بخروج شخص بديل عن أحد المحكومين بالإعدام، حتى وإن كان شقيقه الآخر؟

قد تكون نهايتك محتمة بسبب هذا الخطأ الذي لم أرد أن أشركك فيه، ولو حتى بتلميح، أو خيط رفيع يُستدل عليه. حتى وإن كان لا ترقى درجة الظن به إلى عتبة من درجات اليقين. هذا هو سبب تكتمي وعدم مصارحتك بالأمر، وذلك حتى لا أُحَمّلك أدنى مسؤولية.

سكت أبو واقد بعض الوقت. ثم أضاف:

- ساعدَهما كثيراً على نجاح خطتهما، أن معظم المهجع تقريباً، لا يعرف اسميهما الحقيقيين. فالجميع يعرفها بلقب "أبو حذيفة" و"أبو زيد". فأي الشابين كان فايز، وأيهما كان عبد الكريم؟ فإن القليل من الناس من كان يعلم حقيقة اسميهما على وجه اليقين. وليس ثمة من يعلم حقيقة الاسمين، إلا اثنان أو ثلاثة. وهم يمتّون إليهما بصلة قربى.

لم أستطع النوم قريباً من ثلاثة أيام، من شدة ما ألحت عليَّ مشاعر القهر والقلق. وأجهدتني كأداء من ألم داخلي متعس ومبئس. ولم أستطع أن أنظر في عيني عبد الكريم بعد ذلك اليوم، إلا بسرعة؛ وكأنني اختطف النظرة اختطافاً، أو أسرق بعيني بعض ملامحه.

وحتى بعد مرور أربع سنوات مضت على الحادثة، وبعد أن نسيتها نسياناً تاماً، غشيته طبقات من الظلمة الكثيفة، والتي رانت على الذكرى، حتى محت كل أثر لها، إذ بها تنبثق فجأة، وتهبُّ هبوباً مثل بركان هائج واعد في تدميره.

أعاد الاستذكار لتلك الحادثة، ما علمته بعد أربع سنوات مضين، وأنا في سجن صيدنايا، أن عبد الكريم نفسه، الذي افتداه شقيقه فايز، ومضى إلى المشنقة بثقة ويقين، مضحياً بنفسه افتداءً لأخيه الأكبر.. عبد الكريم كانت قد انتكست حالته السلبية بعد مرور سنتين على حادث إعدام شقيقه، الذي قدم روحه من أجل أن يحيا من

بعده، وقد تدهورت صحته تدهوراً كبيراً، حتى فارق الحياة هو الآخر، في سجن تدمر في وقت لاحق.

- 4 -

لا يمكن أن يكتمل تعريف أو توصيف سجن تدمر العسكري، بل ولا يصح التأريخ الكامل له، مالم يُقرن به ذكرُ سجين من سجنائه الذين مروا به يوماً ما، في تلك الثمانينات السوداء من عمر سورية. الطبيب زاهي العبادي، أو "أبو واقد"، كما يعرفه الجميع. هل لأن زاهي كان طبيباً من بين أطباء السجن الكثر؟ لا بالتأكيد. فسجن تدمر كان يحوي مئات الأطباء، ومئات الاختصاصات الطبية المختلفة والكثيرة؛ بعضهم كان يصنف في شهرته وسيرته الطبية كأعظم النخب التي عرفتها سورية في علوّ الخبرة وعِظم الاختصاص. بينا كان الدكتور زاهي طالبَ طبٍ في بداية السنة الخامسة، فهو بهذا لا يصح أن يُعرف به كطبيب، أو أن ينادى بلقب طبيب.

مع ذلك فقد كان زاهي، الفتى الرقيق الحاشية، اللطيف البسيط المتواضع، ابن دير الزور، الذي لا يشبه إلا الفرات في سحره وجاذبيته الاجتماعية، وعلاقاته بمعظم سجناء السجن تقريباً. وزاهي يكاد يكون من السجناء القليلين الذين سُمح لهم بأن يتنقلوا بين كل مهاجع السجن، وقد اطلع على كل باحاته، وعرف الكثير من السجناء على مدار ما يزيد عن خمس سنوات.

بدأت حكاية زاهي، ومنطلق نجوميته التي خلقتها محض صدفة؛ ابتدأت حين ظهرت علامات أول حالة إصابة بالسل. يومها استطاع أن يكتشف الإصابة دون سماعة أو أجهزة طبية، فقط راقب الحالة، واعتمد بخبرته وحذاقته ومعلوماته الخاصة على طريقة خاصة، تعتمد على النقر الخفيف على ألواح الظهر، ثم الاستماع إلى خرير رئة المريض، في مركز الطنين الذي يخلفه ذلك النقر الخفيف. وحيث كانت الأذن المباشرة هي بديل السماعة الطبية الفاحصة.

كان ذلك في بداية السنة الثانية للسجن، حوالي نهايات عام 1981، وكان يومها مسؤولاً صحياً لأحد المهاجع التي لا يوجد فيها طبيب متخرج

أو أخصائي، يومها خرج إلى الرقيب مسؤول اليومية، وأعلن له بصراحة ووضوح مباشر، أن هناك بداية حالة إصابة تدرن، وأن الحالة مالم يتم عزلها وعلاجها بالسرعة القصوى، فإنها سوف تنقل العدوى إلى سائر السجناء في المهجع، وربما في السجن بأسره. كما شرح له بأن خطر التدرن قد يطال عناصر الشرطة العسكرية أنفسهم، وكامل الطاقم العامل في تدمر.

لم يؤخذ قوله بالجدية الكاملة، وخلال أسبوع واحد، خرج مرة أخرى إلى رقيب اليومية المسؤول، وأعلن له أن الحالات بدأت بالانتشار. فقد أصبح العدد يزيد عن ثلاث حالات، واضطر رقيب اليومية إلى استدعاء طبيب السجن، الذي أجرى فحوصات بواسطة السماعة، وأكد أقوال ومخاوف الطبيب "أبو واقد". وبعد حوالي شهرين، اضطرت إدارة سجن تدمر إلى تخصيص مهجع خاص بالإصابات، وبدأ علاج المساجين المصابين بحبوب بجرعات من أربع أنواع من الحبوب، أشهرها أمبولات حبوب الأرشيدين، حيث يتم ملء أوعية بلاستيكية كبيرة تسمى " الجاطات"، تشبه قدور الرز، التي تقدم في المناسبات، فيتم توزيعها يومياً مع جاطات الإفطار.

بعد مرور عدة أشهر، توسع مهجع السل، ليصبح مهجعين، واستمر أبو واقد يسهر على كل المصابين، والعناية بهم، ثم اتسع الأمر لثلاثة مهاجع أخرى. ثم أصبحوا أربعة. وخلال أربع السنوات التالية، تحول نصف سجن تدمر إلى مهاجع سل، (بعد خروجنا إلى سجن صيدنايا، علمنا بأن السجن فيما بعد، قد بات يتم التعامل معه كاملاً، كمهجع إصابة سلية، حتى دون فحص أو اختبار أو عزل مصابين).

عرفته مدة تقارب عاماً كاملاً. كان شاباً لطيفاً دائم التبسم، مرحاً يتدفق بالنشاط والحيوية. خادماً خدوماً للجميع، وبحكم اعتماد إدارة السجن عليه في التنقل بين المهاجع، بات يعرف معظم المساجين، والمعظم يعرفه. كان قطب السجن المركزي ورحاه الدائرة، وكان طبيبه ومختاره ويعسوبه. وقد طوّر خبراته الخاصة على مدى أكثر من خمس سنوات بتفاصيل مرض السل، حتى لكأنه هو من اكتشفه، وأصبح على دراية وخبرة بكل إصابة وبشتى المراحل، فكان يحفظ عن ظهر قلب القصة السريرية لكل مريض، وتاريخ الإصابة ومراحل وأعراض كل

مريض، وفي كثير من الحالات، تنبأ بمواعيد وفاة كثير من المساجين، فكانت تأتي نبوءته كما خمن تخميناً في تحققها، لا تبعد عن الواقع أياماً أو ساعاتٍ أو أسبوعاً أو أسبوعين على الأكثر. كما كان يتوقع شفاء بعض الحالات، والمدى الذي تحتاجه، فكانت توقعاته تأتي مطابقة للواقع، لا تكاد تخطئ أبداً.

عشنا معاً أكثر من أخوين خلال عام كامل، ولقد شرحت بأن ظرفاً أشبه بالمصادفة قد رمى بي لأن أصبح رئيس مهجع سل الأصحاء، في المهجع 29، في خلفية الباحة السادسة.

ومهجع سل الأصحاء، المخصص لمرضى السل الذين تماثلوا للشفاء، اقترحه زاهي بنفسه على طبيب السجن، حتى لا يتم إعادة المرضى المعافين إلى مهاجعهم التي انتقلوا منها إلى مهاجع السل، وإنما يقضون فترة نقاهة واختبار تحت المراقبة، خوفاً من الانتكاسة والعدوى مرة أخرى.

أعجبت بشخصية زاهي وأعجب بي، وأصبحنا أكثر صديقين قرباً في المهجع 29، فكنا نقضي سائر الوقت نتبادل شتى الأحاديث والحكايات والنكات الديرية والرقاوية.

قال لي ذات مرة:

– اعتقلت من دمشق، من الجامعة بسبب الدكتور "حسن الهويدي"، المراقب العام لجماعة الأخوان، لأنه كان قريباً من أقربائي، وكنت على علاقة طيبة وصلة صداقة قوية به. كان قريبي وصديق والدي في الوقت نفسه. وبسبب هذه الصلة عُرضت على المحكمة الميدانية هنا في تدمر، وأصدر اللواء سليمان الخطيب، رئيس المحكمة الميدانية، بحقي حكماً بالسجن المؤبد، بعد جلسة محاكمة لم تزد عن خمس الدقائق. ومع ذلك أشعر بأنني سوف أخرج خارج هذه الأسوار إلى العالم مرة أخرى. كم سيكون خروجنا رائعاً وغير عادي.! سنحكي للناس كل هذه القصص والأساطير التي مرت بنا وعشناها هنا في تدمر. ترى هل يصدقوننا برأيك؟ أم سيشككون بما سنرويه، ويعتبرونه مبالغات؟

وقال لي زاهي:

– إذا خرجنا من السجن سأنتظرك بفارغ الصبر لكي تزورني في

بيتنا في دير الزور. بيتنا واسع كبير، وهو حوش عربية تتوسطها بركة ونافورة جميلة، والفناء كله محاط بأصص الزهور التي تعتني بها والدتي طوال النهار. سوف أعرفك على أبي وأمي. أمي أطيب وأجمل أم في العالم كله. ليتك تتصور كم تحب أصدقائي. كل أصدقائي تذوقوا طبخها الرائع، فهي من أمهر النساء في كل أنواع الطبخ الشرقي، في كل دير الزور. جميع من عرفها من النساء يشهدن لها بذلك. (ثم يعدد لي أنواع المأكولات التي تصنعها والدته). ثم يلح عليَّ ليأخذ عهداً بأنني سوف أزوره، وسوف يعرّفني على والديه وأخوته. ولقد اضطررت لأن أحلف له في أكثر من مناسبة، لأتخلص من إلحاحه، بأنني سأزوره في الدير، ما من بدٍ، ولا شك في ذلك.

حين بدؤوا بتجميعنا قبل انتقالنا إلى سجن صيدنايا العسكري، ودعت زاهياً. تمنى لي الخير، وذرَّ بعض كلمات كثيرة. كلها أمنيات لي بالتوفيق والفرج والخلاص من هذا الجحيم، وجددنا العهود والمواثيق السابقة بأن نزور بعضنا، حالما نتنسم فضاء الحرية ونصبح خارج هذه الأسوار. وانقطعت أخبار زاهي عني قريباً من أربع سنوات. لم أعد أعرف أين انتهى أمره، ولا وصلني خبر عنه.

وبعد أربع سنوات تقريباً، وصلت دفعة من سجناء سجن تدمر إلى صيدنايا، فهرعت إليهم أسألهم عن كثير من الأصدقاء القدامى، وعلى رأسهم زاهي. نظر إلي الشاب الذي سألته باستغراب، وقال:

– أنت تحكي جد إلا تمزح..؟ زاهي العبادي.. أبو واقد.. توفي منذ أكثر من سنتين ونصف في تدمر..

شعرت ببرودة وقشعريرة مستني كمس الكهرباء. لم أستطع أن أتابع الأسئلة، غير أن الشاب تابع من تلقاء نفسه يقول:

– أصابه مرض غريب. وكان سبب الوفاة أنه أصيب بدُمّل في الركبة، ذات جرثومة لا هوائية، كما قيل يومها. وقد أهملها في أول الأمر، حتى انفتحت على الوريد، فتسمم سائر جسمه منها. ونقل إلى مشفى في مدينة تدمر، لكنهم لم يفعلوا له شيئاً ذا فائدة. فأعادوه إلى المهجع. وبعد عدة أيام توفي. رحمه الله.

أضاف الشاب يقول:

– لا أدري، ولست فاهماً ما الذي اعترى أبا واقد حتى الساعة!

انهارت قوته. وظل ملازماً الفراش بضعة أشهر، وقد انتفخت بعض أطراف جسمه وتورمت، فوق هذا ازداد نحولاً وضموراً، وتساقط شعره قليلاً. ظل يتألم ألماً فظيعاً، ويتوسل حبة دواء أو علاج. إلى أن فاضت روحه أخيراً. فأسلمها لخالقها.

زاهي. واحد من أولئك الذين رحلوا بسلام. أولئك الذين لا أسماء لهم، ولا صور لهم، ولا أحد يعرفهم أو يذكرهم اليوم. أولئك الشهداء الذي ذابوا دون أن يوقظوا أحداً من النائمين بأنينهم، وصرخات آلامهم. وصعدوا إلى الله بصمت وهدوء وسكينة. وهم لا يحلمون أو يتوقعون، إلا أن يكون الله في انتظارهم. لكي يعانقهم عند بوابات السماء، ومن الذين انتظموا في طوابير الموتى مع ملايين السوريين.

- 5 -

في هذه الفترة، ساعدني وأعانني كثيراً على تحمل مسؤوليات المهجع 29 الكثيرة، عدد من الشباب، ربما كان زاهي العبادي، أبو واقد، أبرزهم. وربما كان لي بعض المساعدة والعون، في وقت من الأوقات من بعض الشبان، كذاك الذي غلب عليه لقب "علي كِيْف الهمة"، وفي فترة أبكر، ذلك الشاب الطبيب البيطري الحموي، الذي يدعى محمد سفاف، والذي كان معروفاً في سجن تدمر كله، بلقبه الشائع: " الأخ الذي بزق بزقتين وكان ريقه ناشفاً".

كان محمد سفاف، وهو الشاب الذي غلب عليه لقب " الأخ الذي بزق بزقتين وكان ريقه ناشفاً"، شاباً يؤدي فترة الخدمة العسكرية، رقيباً مجنداً في مدرسة المدفعية في الراموسة بحلب، حين وقعت الحادثة الشهيرة، الهجوم والمجزرة الكبيرة التي خطط لها مقاتلو الطليعة المقاتلة، ونفذوها في مدرسة المدفعية بالراموسة، بتخطيط وقيادة النقيب ابراهيم اليوسف.

ولقد كان لهذه الحادثة، وقعٌ على السلطة وتغيير كبير في مجريات الثورة، التي بدأها فصيل مسلح، ظل يُحتسب طوال الوقت على تنظيم الأخوان المسلمين، وإن كان في الحقيقة منشقاً عنهم. مما سبب انجرار معظم المجتمع السوري إلى الوقوع في أتون تلك الثورة، التي ذهب

ضحيتها آلاف القتلى ومئات آلاف المعتقلين والمهجرين قسراً آخر السبعينيات، وتوجتها السلطة الأسدية بمجازر حماة، وتدميرها تدميراً كاملاً عام 1982.

بعد أن تمكنت السلطات الأسدية من قتل ابراهيم اليوسف، وإمعاناً منها في الانتقام والتشفي منه حتى بعد مقتله، قاموا بسحب الجثة إلى مدرسة المدفعية، ثم ربطوها إلى سيارة زيل عسكرية، وراحوا يسحلون جثة ابراهيم اليوسف سحلاً، أمام كل عناصر وضباط وصف ضباط المدرسة. وطلبوا من الجميع أن يبصقوا على الجثة، بينما هي تمر معفرةً مسحولة أمامهم.

محمد سفاف كان مجنداً مع زملائه في المدفعية، ويبدو أنه لم يبصق على الجثة بطريقة مرضية كما طلب منه، أو أن طريقة بصاقه والكيفية التي تم أداء البصاق بها، لم تعجب أو ترضِ ضابط الأمن الذي لاحظه. وسرعان ما كتب تقريراً إلى فرع الأمن، بأن فلاناً لم يبصق على جثة ابراهيم اليوسف، تعاطفاً مع صاحب الجثة، الأمر الذي دفع عناصر الاستخبارات العسكرية، إلى الحضور فوراً إلى مدرسة المدفعية، ومداهمة الشاب محمد سفاف، واعتقاله فوراً.

وبدأت رحلة العذاب معه مسيرتها. تنقلات من فرع إلى فرع، ومن سجن إلى سجن، ومن زنزانة إلى زنزانة. في التحقيق راح محمد سفاف يقسم للمحقق بأنه قد بصق أربع مرات أثناء مرور جثة إبراهيم اليوسف، وهي تسحل سحلاً بالسيارة من أمامه، في مدرسة المدفعية بالراموسة. لكن المحقق في البداية لم يقتنع بكل ما أدلى به من إفادة وأقوال. وظل الشاب يقسم مردداً:

– أقسم بالله العظيم ياسيدي بأني بزقت أربع بزقات..

والمحقق يصر مواصلاً الضغط عليه:

– تريد الصراحة..؟ أنت لم تبصق حتى بصقة واحدة على جثة إبراهيم اليوسف.. قل لي بصراحة: هل تأثرت من المشهد؟ هل شعرت بشيء من التعاطف مع صاحب الجثة؟

– لا والله.. أقسم لك بأنني قد بزقت أربع بزقات ياسيدي..

– ذكر التقرير أنه لم يخرج من فمك أي رذاذ ولا بزاق.. وإنما نفخت الهواء نفخاً من فمك..

– يا سيدي يومها كنت مرضان ومكرب وكان ريقي ناشفاً.. أقسم لك على ما أقول..

أخيراً، وبعد تفكير وتقليب نظر في القضية، قرر المحقق ما يلي:

– طيب.. أنا رح أتعاطف معك، وشايف إنو إنت صادق... بس من غير الممكن إني أثبتلك بضبط إفادتك بأنك بزقت أربع بزقات.

– والله أربع بزقات يا سيدي.

– طيب.. خلينا نقسم البيدر بيناتنا بالنص، مشان ما نظلمك ولا نظلم حالنا في الإفادة، رح أثبت بأنك بزقت بزقتين.. شو رأيك؟ هيك بكون تعاطفت معك وما ظلمتك.

– يا سيدي بس ضروري كمان، طالما عملت معي كل هالمعروف، أن تذكر بأني كنت مرضان في هداك اليوم. كنت مكرّب وريقي ناشف. لحتى ما..

– ولا يهمك. كمان رح أثبت بإنو ريقك كان ناشف. منيح هيك؟

– شكراً لك يا سيدي، وكتر خيرك.

وانتهى به المطاف أخيراً في تدمر. بالطبع كان عليه أن يعرض أمام المحكمة العسكرية الميدانية، التي يرأسها سليمان الخطيب. هنالك تفاجأ سليمان الخطيب بأن الطبيب البيطري محمد سفاف، لم يكن له ملف ادعاء، بل ولا حتى تهمة واضحة. كل ما كان أمام قاضي المحكمة الميدانية، عبارة عن سطرين فقط، ولا شيء غير ذلك.

نظر سليمان الخطيب إلى محمد سفاف، وإلى إضبارته المحيرة المحرجة، ولم يعرف كيف سيتصرف معه أو يبدأ بالكلام. فسأله:

– احكيلنا يا ابني. شو قصتك.؟ مكتوب عندي إنك ما بزقت على جثة المجرم ابراهيم اليوسف. ليش يا ابني ما بزقت؟

أجابه محمد مرتبكاً مذعوراً خائفاً، وهو يعلم يقيناً بأن مصير حياته كله سوف يتقرر في دقيقتين أمام سليمان الخطيب:

– والله ياسيدي بزقت. أقسم بالله العظيم بزقت. بزقت أربع بزقات، بس المحقق بالأول ما رضي يثبت بإفادتي ولا بزقة. بعدين اقتنع وثبتلي بزقتين. ويومها كان ريقي ناشف.

هز سليمان الخطيب رأسه بتفهم وتعاطف. وقال بلهجة مسايرة ندر أن يحظى بها أحد:

– طيب يا ابني لا تخاف. شوبك خايف..؟ أنا رح أساعدك، والمحكمة متعاطفة معك ومع قضيتك.

ثم التفت الخطيب إلى لجنة المحكمة من حوله، فشاورهم وشاوروه، بعدها أمر الكاتب المكلف بكتابة حيثيات التهم والأحكام الميدانية، مملياً عليه نص الحكم:

–.. واستناداً إلى الفقرة د من قانون العقوبات المذكور، وبعد الاطلاع والتحقيق في الأدلة والشهادات، تبين بأن المتهم محمد سفاف، قد بزق بزقتين، وكان ريقه ناشفاً بسبب المرض، وللأسباب المخففة تقرر الحكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات.

وثلاث سنوات سليمان الخطيب ومحكمته الميدانية تعادل تقريباً حكم البراءة، وأقصى درجات التعاطف التي لا يصل إليها إلا القليلون.

محمد كان لا يعرف في كل المهاجع التي تنقل بينها في سجن تدمر، إلا بلقبه الجديد: (الأخ الذي بزق بزقتين وكان ريقه ناشفاً). كان اسمه الجديد كافياً للتعريف به وبقضيته. وقد تم الاحتراز عليه عرفياً بعد انقضاء فترة حكمه، وأفرج عنه من سجن تدمر، بعد حوالي اثني عشر عاماً.

ها أنذا في المهجع 29، ساجمٌ اتأمل عبادة الفكرة. في نفسي كنت أتأمل الفكرة المعبودة. فكم نتعبد في محراب أفكار تعلو على الحياة! وكلما شرد ذهني في تأمل تلك العبادة الخافية، استحضر ذكرى تلك الحادثة الغريبة. فلقد سمعت كثيراً عن الشيخ ياسر عبد العليم. كانت سمعته هي الطائر الوحيد الذي يظلُّ يرفرف في سماء السجن، فيدلف في المهاجع حاملاً الأخبار والفتاوي والتهاويل التي تعبق برائحة العلوم.

وقد كان للشيخ ياسر مواقف في مواجهة السلطة، ارتقت بسمعته ومكانته إلى الحد الذي سمق به إلى المكانة الأرفع، بين جلة العلماء والشيوخ. فكان التعرف عليه كعالم زاهد، ومجتهد وحافظ ومجاهد، لا يشبع نهم تلامذته وعشاقه المفتونين بسيرته العطرة منه، ومتخب أقواله وأفعاله وسجاياه التي لا تنتهي.

كم تمنيت أن ألتقيه في مصادفة، وأنا أنتقل بين مهجع وآخر. لكن أكبر الأسف والإحباط قد تضافر مع أقدارٍ وُضِعت سداً بيننا. فكلما انتقلت إلى مهجع، كان يفارقه للتو، قبل دخولنا بلحظات، أو كان يُحَتم

عليه حظ من الأقدار أن يغشاه الشيخ ياسر، بعد خروجنا بلحظات. وهكذا مضى ردح طويل من الزمن، فلم أظفر بصحبته، ولا عثرت بغيتي على أن أتعرف به معرفة شخصية.

وصدف أن ربطتني بالشاب الدمشقي، المهندس رسلان، صلة وصداقة حميمة، في المهجع 29. وإن تقاصر أمدها، فلم تطل إلا بضعة أشهر، وهنالك علمت صدفة أن المهندس رسلان كان من رفقاء الشيخ ياسر وعشاقه الكثيرين وتلامذته المقربين. وفيما كان يحدثني عن الشيخ مسترسلاً في فتنة الذكرى، قطع نشوة الاسترسال فجأة، وراح يقول:

– إلا أمراً واحداً، ما أزال حتى اليوم في حيرة منه..

ورأياً صارماً استبد به الشيخ، كان من أوجه الغرابة وفقد المعنى، أنني لا أزال حتى يومنا هذا، لا أفهم ما المراد منه، ولِمَ استمسك الشيخُ بكل ذلك العناد والمكابرة فيه. حيث جاءه أحد الشبان، من عناصر السخرة اليومية، ذات مرة، وسألوه سؤالاً فجّاً غريباً:

– شيخي.. ألا يطهر الثوب الداخلي، الذي تلطخ بالمني أثناء الاحتلام، بغمره كاملاً بالماء؟

أجاب الشيخ، وهو يرفع بصره الثقيل نحو الشاب:

– لا.. عند السادة الشافعية، لا يطهر ثوب أصابته نجاسة عينية، إلا بسكب الماء عليه، بعد غسل عين النجاسة وإزالتها. والماء الذي غُمر الثوبُ فيه أصبح نجساً، لا يجوز استعماله لأي غرض كان. هذا هو مذهبنا الذي نحن عليه.

قال الشاب:

– لكن الأمر جرى يا شيخي. ولقد استعملنا الماء في غسل سائر ثياب المهجع. والماء كما ترى قليل في المهجع، فنحن نستهلك نصف كمية الماء المخصصة للمهجع لغسل الثياب، ونصفه الآخر لسائر حوائجنا وأغراضنا الأخرى، من شرب ووضوء واغتسال وغيره.

– عليكم إذن أن تفتشوا بين الغسيل، عن كل ثوب لُطخ بالنجاسة، وأن تعيدوا تطهيره ثانية، حسب الأصول الشرعية للمذهب، وإلا فإن صاحبه لا يُقبل منه صلاة ولا دعاء.

– وإذا لم نعرف الثوب على وجه الحقيقة؟ فهنالك حوالي أكثر من

خمسمائة قطعة من الثياب، جميعها فرغنا من غسلها ونشرها على الحبل المخصص حتى تجف.

قال الشيخ:

– إذا لم تتأكدوا؛ أي ثوب من ثياب الغسيل ذاك الذي تنجس، وخالط ماؤه الذي تنجس أيضاً كل الغسيل أو بعضه، فقد أصبح الغسيل المنشور على الحبل، لجميع أفراد المهجع، كله داخلٌ في حكم النجاسة، ولا ينفع اليقين فيه بإقراره بالظن، ولا تجوز فيه صلاة ولا عبادة. لأن الظن لا يغني من الحقِ شيئاً.

– 6 –

كان لتنظيم العمل وتوزيعه بين مجموعات عدة، ما ساعدني كثيراً في الفترة التي أصبحتُ فيها رئيساً للمهجع 29. وبخاصة كان الفضل الأكبر لأبي واقد، زاهي العبادي، ولمعاون رئيس المهجع الشاب الفلسطيني محمد حماد، الذي واجه كثيراً من الصعوبات بهمة الجبابرة. ومن جهة أخرى كان (علي كِيْفْ الهمة)، وبعض الشباب الآخرين، قد تولوا بعض الأعباء والمهام الجانبية المخصصة لهم.

علي كيف الهمة، كان حاصلاً على البكالوريا، وعلى أهبة التقدم للانتساب للجامعة في الفترة التي سبقت اعتقاله بقليل. شفاف وذكي ولماح. وأكثر طباعه التي عُرفت عنه أنه كان يحب الشعر كثيراً. حتى أنه كان يتمنى لو يستطيع أن يحفظ كل الشعر الذي كتبته البشرية عبر تاريخها الطويل. كل الشعر عند علي كيف الهمة جميل ورائع. حتى لوكان قائله فتىً مراهقاً يرصف كلمات لامعنى لها، فهي – بالنسبة لعلي كيف الهمة – دررٌ شعرية، يجب أن تُحفظ عن ظهر قلب، وتُراجَع ويُعتنى بها.

وقد ألزمني في كل صباح بجلسة مخصصة. جلسة نصف ساعة لمراجعة وحفظ شعر نزار قباني واحمد شوقي. في الظهيرة خصصنا الوقت ليحفظ أشعار الجاهليين والإسلاميين. فقد كنت في تلك الفترة ذا ذاكرة حفظية تعد نسبياً مهمة ونشطة، الأمر الذي جعل (علي كيف الهمة) قريباً مني معظم اليوم، في المهجع 29.

بالطبع، فإن قضية (علي كيف الهمة) التي نال بسببها حكماً

بالسجن المؤبد، كانت نادرة وغريبة جداً. وهي ليست نكتة سمعتها أو مبالغة قرأتها. لقد كانت حقيقة واقعية عشتها في السجن وعرفت بطلها عن كثب. حتى أنها كونت إحدى الخبرات العميقة التي تركت انطباعاتٍ لا تزول من نفسي ما حييت.

سياق حكاية علي كانت من عادته اليومية، التي جرت مجرى اعتيادياً، أن يلتقي مع جاره الشاب المجاور لمنزله، والذي لم تتعدَ العلاقة بينهما يوماً حدود التحية، أثناء اللقاء صباحاً حين خروجهما من منزليهما. فيلقي عليه ذلك الجار تحية عابرة وهو يمضي إلى شأنه:

– مرحبا علي.

– أهلين.

– كيفك.. كيف الهمة؟

– الحمد لله. تمام.

جرت المصادفة أن تحدث هذه المجاملة الصباحية سائر الصباحات. وفي الفترة التي انقطع فيها الشاب عن لقاء علي الصباحي المعتاد، كان قد اعتقل من قبل الاستخبارات العسكرية، وفي التحقيق معه اعترف بصلته بالطليعة المقاتلة. ولقد عُذِّب تعذيباً شديداً لكي يعترف على أسماء كل معارفه، وكل من التقاهم، أو يلتقي بهم عادة ضمن جولته اليومية. ومن هول المعاناة التي عانى منها في التحقيق، اضطر الشاب إلى القول، ربما دون أي معنى لاعترافه ذاك، أنه يصادف أحياناً، جاره الطالب، وهو يمضي من منزله نحو عمله. وفي كل صباح لم يكن الكلام فيما بينهما يتعدى تحية الصباح المألوفة: (مرحبا علي.. كيف الهمة).. (تمام).. ثم يمضي كلٌ منهما لشأنه الخاص.

في نفس اليوم الذي أدلى فيه ذلك الشاب – جار علي – باعترافه، جرى اعتقال علي، ونقله إلى فرع المخابرات العسكرية. وهناك تم الاستفسار منه فقط عن مضمون جواب تحيته الصباحية لذلك الشاب، الذي بات معلوماً لدى المخابرات العسكرية صلته بالطليعة المقاتلة.

– ماذا قصد بسؤاله لك: "كيف الهمة"؟

– لا أعلم.. هي كلمة عامة يستعملها كل الناس في تبادل تحياتهم العابرة.

– وجوابك له بعبارة: "تمام".. ماذا كنت تقصد منها؟

– وماذا يمكن أن أقصد منها؟ هي كلمة تخرج عفوياً من الفم أثناء السلام العابر.. ولو اعتدت أن أقول له "مليح" أو "ماشي الحال"، لما تعديت معنى العبارة التي خرجت من فمي بالصدفة، ولكانت العادة هي التي أوجبت سبق نطقها بأي لفظ كان.. حتى لو كان بلا معنى.

واستمر التحقيق مع علي على هذا المنوال بلا تقدم، وبلا أية قضية واضحة. فقط كان هنالك ريبة في المضمون، الذي يمكن أن تحتمله كلمة علي لجاره "تمام". وبعد أن مكث في فرع التحقيق، في مدينة عزاز، فترة من الزمن، نُقل علي إلى الفرع العسكري بحلب. وتوالى التحقيق معه بنفس الآلية الرتيبة، ونفس المنوال.

أخيراً رُحِّل علي إلى سجن تدمر العسكري، وهنالك عُرض على المحكمة الميدانية العسكرية. وشرع اللواء سليمان الخطيب بمحاكمته:

قال له اللواء سليمان الخطيب:

– لو كانت نواياك المبيتة صافية، ولم تكن ذا ميول واستعدادات إجرامية، لما قلت لهذا المجرم، جارك الذي سألك عن همتك للانخراط معه في جرائمه، "تمام".. إذ ما معنى تمام؟

– "تمام" معناها أنني بخير، وبصحة جيدة وعال العال.

– هه شفت؟ هي فسرت كلمة تمام لحالك.

– طيب افترض سيدي أنني قلت له "بخير إن شاء الله"، أو "الحمد لله"، فهل كانت ستعني شيئاً غير كلمة "تمام"؟

– طبعاً..! كان وضعك سيختلف كثيراً الآن.

– طيب سيدي.. افترض أنه قال لي كلمة "صباح الخير"، هل كان يجب عليّ أن أجيبه بغير كلمة "صباح النور"؟

– لا، الموضوع هيك اختلف كثير.. فكلمة "كيف الهمة"، لا تعدل كلمة "صباح الخير"، ولا تعني بالنسبة لشخص مثله إلا معنى واحداً: وهو كيف همتك على العمل معنا وحمل السلاح ضد الدولة؟

– سيدي أنا كنت مستوعباً ومتفهماً أنه كان يسألني عن استعدادي لتقديم الامتحانات. هذا ما فهمته من عبارة "كيف الهمة"، وهذا معنى جوابي له بكلمة "تمام".

– ولماذا لمجرم مثل جارك هذا، أن يهتم أصلاً، إن كنتَ على وشك

تقديم امتحاناتك أم لا؟ بدي جواب صريح وواضح: قلَّك "كيف الهمة" ولا ما قلَّك؟

– بلى.. قاللي.

– وانت قلتلو "تمام" ولا ما قلتلو؟

– بلى قلتلو.

– عظيم جداً.. إذن فهمنا على بعض، ووصلنا حقنا منك يا علي.

– سيدي.. أقسم لك بالله، أنني في كل المرات التي كان يُلقي عليَّ فيها تحية الصباح، بعبارة "كيف الهمة"، إنما كان ذهني لا ينصرف إلا لمسألة سؤال عابر عن استعدادي للامتحان.

– لا تقسم يا علي.. المسألة باتت واضحة جداً وصريحة، وقد قُضيَ أمرك الآن.

ثم تلا اللواء الخطيب الحكم الصادر بحق علي العلي: السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة.

في كل صباح، اعتاد علي أن يجالسني مجلس الطالب المتجهز والمتحفز لحفظ الأشعار. فأبدأ معه بالتحية الصباحية والممازحة:

– أهلاً علي.. كيفك اليوم؟

– الحمد لله.

– اليوم تمام؟

– تمام.

أحياناً كان يشعر بالغيظ، والخروج عن طوره قليلاً، من كثرة ما يتلقى من مزاح الآخرين في المهجع. وكل المزاحات كانت تتكرر بصورة رتيبة: (علي كيف الهمة اليوم؟). فيخرج عن مألوف هدوئه المعتاد، ويبدأ بشتم الآخرين، وشتم "الهمة" واللي "اخترع الهمة" و..

– أبو الهمة على أخت الهمة. شباب لاحدا مرة تانية يجيب على لسانو قدامي ذكر كلمة الهمة.. ما بكفي بدنا نروّح عمرنا على الفاضي مشان "الهمة"..!

بالفعل، لم يكن علي مجانباً الصواب كثيراً، فقد أهدر من عمره أربعة عشر عاماً في سجن تدمر، بسبب كلمتي: "كيف الهمة".. و"تمام".

- 7 -

في المهجع 29 كان عليَّ أن أولي عناية خاصة لذلك العجوز الحموي الضرير المدعو بالعوِّير، ولذلك الشاب فاتك الباشا. فجأة وجدت نفسي في ورطة كبيرة وخطيرة، غير متوقعة ولم أكن قد حسبت لها حساباً. ففي هذه الأوقات، دخل علينا مجموعة أصحاء سل جديدة عددهم قريب من عشرة سجناء، وما إن تدبرت أمر مجموعات طعامهم، واستقروا في الأماكن المخصصة لنومهم، حتى جاءني أحدهم، وآثرني بحديث جانبي على انفراد، قائلاً:

– أريد أن أحذرك جيداً من شخص من مجموعتنا التي دخلت مهجعكم اليوم. امنع كل الممنوعات، إخفِ الأدوات الحادة، قصاصات الأظافر، الغِ صلاة الجماعة، والوضوء، وأوراق باكيتات الدخان المكتوب عليها قرآن وحديث وغيره.

أشعرني ذلك الشاب بخوف غير قليل، وسألته مضطرباً:

– لماذا؟ هل يوجد بين مجموعتكم الجديدة مخبر للإدارة مثلاً؟ يمكن أن يشي بما سوف يرى من ممنوعات؟

قال:

– ياريت يا أخي لو أنه مخبر. هو أسوأ من ذلك!

قلت:

– فما إذن؟

قال:

– إنه شاب طيب القلب. بسيط وساذج جداً.. يعاني من اختلال عقلي ونفسي، أخوه استشهد في إحدى المعارك في مواجهات مع الجيش.

ازددت دهشة واستغراباً، وسألته:

– فما خطورته إذن برأيك؟.. قال:

– مشكلته وخطره يا أخي أنه صادق.. نعم صادق لا يكذب، وهو لا يستحل الكذب حتى على إدارة السجن. حتى على المخابرات. إنه بسيط ومريض نفسي يا أخي، ويعتقد أن دين الإسلام لا يبيح الكذب مطلقاً، لا رخصة في ذلك، ولا ضرورات تبيح المحظورات. والكذب قرين الشرك بالله.

نظرتُ إلى الشاب من طرف خفي، كان نحيفاً ضعيفاً ككومة عظام،

صوته فيه ضعف، كأنه صادر من قعر بئر عميقة، اسمه فاتك الباشا من مدينة الرستن. وتحيرتُ في الأمر، ورحت أقلبه على جميع وجوهه، والشاب يخوفني أكثر فأكثر:

– أنت هنا رئيس المهجع، وكلنا يعلم كمية الممنوعات الموجودة في أي مهجع في تدمر. ماذا ستفعل لو سأل الشرطة فاتك عن الممنوعات ودلهم عليها؟ ستُقتَل تحت الكرابيج بكل تأكيد. أقسم لك بأنك ستصفى جسدياً بسبب هبل هذا الصادق الصديق المصدوق. هذا الحيوان الذي قد يتسبب في موتك، أو في عقوبة جماعية للمهجع لا تدارك لها.

حسمت أمري قائلاً له:

– لن أمنع شيئاً.. أترك لي الأمر وسأتصرف بمعرفتي.

اقتربت من فاتك، وتعرفت عليه أكثر. كان يعطي انطباعاً أولياً بأن شيئاً غير طبيعي، يميز كلية شخصيته، ثم بعد مساجلات بسيطة معه علمت بأنه شاعر، يقرض القصائد العمودية، ويهوى حفظ الشعر كثيراً. قلت في نفسي:" هذه هي البوابة، وهذا هو المدخل ". خصصت له جزءاً من وقتي اليومي، أستمع لأشعاره وأراجعه وأُحَفِّظُه كثيراً من القصائد. وشيئاً فشيئاً بدأ فاتك يتعلق بصحبتي، ويجد فيَّ مثالاً للصديق الذي ينشده.

كنت أداري هلوساته التذكرية وجنوح خياله ، فقد طفق يحدثني عن فتاة سلبت عقله من تونس. ولم أفهم يوماً هل التقى بتلك الفتاة حقاً، أم أنه رآها في أحلامه فحسب).وثقت به مع الأيام ووثق بي، وكنت أحارب شياطين المهجع وهواة المسخرة والتنكيت الذين أولعوا بخلع الألقاب عليه. (علي كيف الهمة) كان يلقبه بلقب: (فاتن الباشا أو فاتن حمامة).

اقترحت عليه مع بعض شعراء المهجع، تنظيم أمسية شعرية يلقون فيها أشعارهم على ملأ من المهجع. (في هذه النقطة ربما قادني التفكير من حيث لم أنتبه، إلى إشراكه في إحدى الممنوعات التي سيكون شريكاً معنا فيها)، كما اقترحت عليه أن يؤلف مسرحية شعرية نمثلها في المهجع، على أن أساعده في نظمها وتأليفها.

وبعد توطد تلك الصداقة بيني وبين فاتك سألته مرة على حين بغتة:

– فاتك، أريد أن أسالك سؤالاً، وأريد منك جواباً صريحاً على سؤالي.. لو سئلت من قبل إدارة السجن، عما ترى وتسمع ويحدث من تفاصيل داخل المهجع، هل كنت لتشي بنا عند الإدارة؟

ابتسم ابتسامة ذات معنى، وأجاب بمنتهى الصراحة:

– أعلم يا صديقي أنهم حدثوك كثيراً عني وخوفوك مني. أنا لا أكذب حقاً كما بلغوك عني، ولم أكذب، ولم أستحل الكذب في حياتي البتة. لكن ثق تماماً أنني لو وقعت فرضاً في موقف حرج كهذا، فسوف أوَرّي تورية، وأُكَنِّي بكناية. أنت صديق عزيز، ولك المكانة والقدر العظيم في نفسي. سأوَرّي تورية، وسأستخدم المجازات والكنايات. وتعلم كم أنا بارع في هذا الباع.

فرحت بما قال، وقلت له:

– بوركت أخي فاتك.. هذا ظني دائماً بك.

وشكرته على موقفه. لم أتعرض بسببه لأي موقف محرج طيلة فترة بقائي رئيساً للمهجع 29. وبقينا على تلك المودة حتى غادر فاتك المهجع، ولم ألتقِ به بعد ذلك.

أما العجوز العَوِّير، فقد كان يخطو نحو التاسعة والسبعين من العمر حين طُلب ليقف أمام قاضي المحكمة الميدانية الثانية في تدمر. جعلت الإصابة بمرض السل تأكل جسده النحيل، الذي كان يتلاشى بالتدريج، وتراجعت قدرته على الرؤية حتى فقد تمييز الأشياء تدريجياً، (بعد سنتين ونيّف أصبح كفيفاً تماماً)، فبات غير قادر على التنقل داخل المهجع، أو حتى دخول المرحاض أو الحمام إلا بالاعتماد على حفيده الفتى المراهق، الذي كان يظل إلى جانبه سائر الوقت. والذي لم يكن يسلم لحظة من تذمره وصياحه في الليل والنهار، وكلما ازداد غضبه، كان يكيل سيلاً من الشتائم بحق حفيده الشاب اليافع، ثم بحق كل من كانوا معه في المهجع.

بزيه المتميز، وقنبازه الحموي التقليدي، وعينيه الزائغتين دوماً في فراغ المهجع، كان يهاجم ويشتم، وإن يكن من الصعب معرفة الأسباب المباشرة لغضبه وصياحه. وحين سار برفقة الشرطة إلى أمام القاضي، اللواء سليمان الخطيب، كان يعتمد بذراعيه المرتجفتين على مساجين آخرين، رافقوه اثناء الرحلة إلى المحاكمة. فقال له

اللواء سليمان الخطيب، وهو يُنَقّل الأنظار بينه وبين الأوراق المبسوطة أمامه على الطاولة:

– شو رأيك أحكمك إعدام هلق..؟ ما بتستاهل الإعدام؟

فصرخ العوير صرخة أجفلت حتى عناصر الشرطة المرافقين والمحيطين به:

– اي العميين يا حضرة القاضي.. ولإيش الإعدام؟ ليش أنا شو عامل؟

– طيب.. بلا الإعدام.. شو رأيك بالمؤبد.. مو منيح المؤبد؟

فازداد غضبه أكثر، حتى وسع صوته الصائح إلى خارج قاعة المحكمة، صارخاً مرة أخرى في القاضي رئيس المحكمة:

– اي العميين يا حضرة القاضي.. ولشو المؤبد؟ ليش أنا شو عامل لحتى تحكمني مؤبد؟

– ولك شو شو عامل؟ مآوي ببيتك مجرمين هربانين ومطلوبين للدولة، ومأكّلهن ومشرْبهن ومنوْمهن ببيتك عدة أيام.. ولسه بتقلي شو عامل..؟ طيب بلا المؤبد.. شو رأيك بالخمسطعش سنة؟ ما منيحة كمان؟ منيحة منيحة..

– خمسطعش سنة.. بس والله.. العميين يا حضرة القاضي..

– متل ما عم قلك.. ويمكن كمان بسبب ظرفك الخاص، ولأسباب تخفيفة، يمكن ينوبك ثلث المدة ويصفى حكمك بس عشر سنين..

– هيك قولتك؟ خلص منيحة خمسطعش سنة منيحة، متل ما بدك..

– لا تقول ما ساعدتك هاه؟ وما تعاطفت معك..

– كتر خيرك يا حضرة القاضي، والله يعطيك على قد نياتك..

ولم أعلم في السنوات التالية: هل مات العَوِّير في السجن بعد سنوات لاحقة، أم أفرج عنه فيما بعد.

الفصل العاشر

صيدنايا وبقية عُمْر

– 1 –

تلك الليلة..

في الأيام الأخيرة التي انقضت وأنا في المهجع 29، ولم أكن أعلم أنها الأيام الأخيرة التي أقضيها في سجن تدمر، وأننا على وشك الرحيل والانتقال الى سجن آخر، سجن صيدنايا العسكري، قرب دمشق. كنا نقضي آخر الليالي بين حيطان ذلك السجن الرهيب، وفي كنفه المظلم المعتم، وكان جلُّ المجتمعين في تلك المسامرة المعتادة بعد العشاء، من الرجال والفتيان الحمويين الذين اعتقل معظمهم بعد مجازر عام 1982. سمعت أحدهم يقول:

– مضت المجزرة المروعة. حمل أهل حماة وحدهم عبء ذكراها الثقيلة، وتحلل العالم بأسره من مسؤوليتها. بعض هذه البشرية تظاهر بالعمى والصمم، وبعضها اعتقد بأن الزمن وحده الكفيل بأن ينزع ذكراها من القلوب والعقول..

وقال آخر مؤكداً على كلام صاحبه:

– ظل القتلة طلقاء، بل ظلوا مرحباً بهم على رأس سلطاتهم حتى يومنا هذا، ومازال حق دماء تلك المجزرة معلقاً بين السماء والأرض، وما زال أهل الدماء يستصرخون ويتذكرون، وما زالت العدالة في هذا العالم المظلم كسيحة شلاء شوهاء.

كان قد انضم إلينا شاب يافع صغير السن، اسمه عدنان زقزوق. راح ذلك الشاب الحموي عدنان زقزوق يحدثنا عن تفاصيل نجاته من مجازر مدينة حماة، قبل اعتقاله ونقله إلى سجن تدمر. راح يروي بشجن واسترجاع ما الذي جرى لهم يومها، في تلك الليلة من ليالي السمر الأخير في المهجع 29، فقال:

– حاصرت سرايا الدفاع والوحدات الخاصة حيّنا.. شرع العساكر يداهمون البيوت، ويقتحمونها بمنتهى العنف، ثم ساقوا كل من وجدوه في

منازل الحي. الرجال والشيوخ والشباب والصبيان. لم يتركوا إلا النساء المذعورات وهن يرتجفنَ خلف الأبواب، وفي فراغات المطابخ ودورات المياه. ساقوا الجميع إلى الشارع العام، ثم أمروا الجميع بصوت موحد، أن ينبطحوا في منتصف الشارع على وجوههم وأيديهم متشابكة تحت الوجوه.

سمعنا أصواتاً لم نميزها كثيراً، وكان واضحاً من النبرة، أنها أوامر تصدر من ضباط كبار. ثم رأيت إحدى الدبابات الروسية الضخمة تتحرك بجنزيرها العريض نحو الآدميين المرصوفين إلى جانب بعضهم كقطع بسكويت منتظمة، وراح سائقها يمر مروراً فوق الرؤوس مباشرة.. كانت الرؤوس تطقطق تحت الجنزير كبيض طري يُهرَس بأقدام صلبة، ولم يستغرق مرورها إلا بضعة ثوانٍ.

لم يكن الوقت كافياً لأحد كي يصرخ. أو كي يستنجد. أو يقول أي كلمة. لم تكن ثمة فرصة لأحد كي يستنجد. لأن يقول كلمة أخيرة للضابط. لسائق الدبابة. لله. للحياة التي يودعها. مرت الدبابة كما يمضي قطار في حقول القثاء والبطيخ فوق الجماجم البشرية. سمعتُ الدبابة تتوقف، وسمعت تهديدات لمن يرفع رأسه أو يحاول أن ينظر المشهد بطرف عينه. فهمت بأن امراً جديداً قد وصل، وأن على الدبابة أن تتجه إلى مهمة جديدة، وشتيمة وجهت لسائقها بأنه "يلعب ويقضي وقته في أمرٍ تافهٍ لا وقت له الآن". رغم كل التهديدات التي لم تنقطع ناحيتنا، خصوصاً التهديد بأن لا نفتح أعيننا، وأن لا ننظر ما يجري.

مع ذلك نظرت. فتحت طرف عيني ونظرت. وأنا ما أزال منبطحاً على الأرض. رأيت الدبابة لا تبعد عني أكثر من مترين أو ثلاثة، ولا يفصلها عن "دوري" وعن " رأسي" سوى أقل من ستة أو سبعة أشخاص.. بعدها غير السائق وجهته ومضى إلى جهة مجهولة.

أما نحن الباقين، الذين فات عليهم الدور بمرور الجنزير فوق رؤوسهم، فقد سمعنا أمراً جديداً:

– الكل واقفاً. توجهوا نحو سيارات الزيل. وهناك وضعت الكلبشات في أيدينا وساقونا جميعاً إلى الفرع، ومنه إلى سجن تدمر بعد عدة أيام.

تدخل رجل حموي آخر كان يصغي الى قصته، وقد بلغ به الاحتقان مداه، قائلاً:

– حين استمرت هذه الثورة بضعة سنوات، تم تدمير نصف

أبو عبدو البغل

المجتمع السوري فيها، بينما صمت النصف الآخر ولاذ بالصمت. حين دمرت حماة، وتم إعدام وتصفية عشرات الآلاف.. حين داست جنازير دبابات رفعت الأسد وعلي حيدر، على صفوف مصفوفة من رؤوس الأطفال.. وحين غُيِّب مليون سوري وعُدوا "مجرد مفقودين لا أكثر".. لم ينطق مثقف بحرف، ولم يرَ رجل الدين أي سبب ليعترض، لا بيده ولا بقلبه ولا بلسانه.. ولبث السياسي والمعارض عيناه شاخصتان بين قدميه، والمُفكر يُقدمُ رجلاً ويؤخر أخرى، وشيخ العشيرة يلوك بلسانه لوك الأبله، والفنان تابع دبكته بكل راحة بال وهدوء ضمير، وتابع الصحفي أخباره عن الجنوب اللبناني المحتل، وعاد الجمهور يتسلى بقراءة الأبراج وحل الكلمات المتقاطعة، وقتل الزمن بأفيون المسلسلات.

الإكراه على الفضيلة لا يصنع إنساناً فاضلاً، والإكراه على الإيمان لا يصنع إنساناً مؤمناً. هذا إذا ما قرر الضمير العام للسوريين أن يوقع عريضة النسيان مع كل ما اجترحه النظام الذي طحن المجتمع بمطحنته الدموية، وأن يقطع مع ماضٍ لا يريد أن يراه أو يسمعه أحد..

صمت الجميع. سمعت أحدهم يعلق قائلاً، بينما أنا مطرقٌ، لا أقوى حتى على النظر في أعينهم، فلم أعرف من كان يتحدث أخيراً:

– إذا انفض السوق قريباً، وعاد عائد القوم إلى ما كانوا عليه، فويل لمن قصّر أو هادن، أو تهاون أو خان، أو باع ضميراً أو أرخص موقفاً من المواقف، أو هوّن من كلمة حق، وصَرَف تقلبات قلبه نحو باطل وهو يعلم أنه باطل.

لن يسامح الله. ولن يسامح الشعب، ولن يطوي التاريخ، ولن يقبل ضمير السوريين عذراً. فالسوق انفض أو يوشك. ربح من ربح. وخسر من خسر.

– 2 –

حضر الرحيل، وأزف موعد مغادرة سجن تدمر. حتى فرحة يوم الرحيل عن تدمر، خطفتها مفاجأة غير متوقعة. تم تجميع عدد كبير ممن تقرر ترحيلهم عن السجن إلى سجن صيدنايا العسكري قرب دمشق. ولقد مكثنا ليلة واحدة في المهجع الأول، وهو أكبر مهاجع السجن على الإطلاق. فكانت أكبر مفاجآت ذلك الرحيل أن ضُم إلى المجموعات

التي يجري ترحيلها، مجموعة صغيرة لا تتعدى الخمسة عشر رجلاً. هذه المجموعة الصغيرة لم يكن أحد يعرفها، ولاهي كانت تعرف أحداً من سجناء سجن تدمر. لم تلتق بأي سجين في تدمر إلا تلك الليلة.

حين اقتربنا منهم متعارفين، وجعلنا نستفسر عن حالهم ومن يكونون، أجابوا:

– نحن بقية مجزرة تدمر.

– نحن المجموعة الوحيدة التي نجت من مجزرة تدمر.

– تم عزلنا حين المجزرة، واستثناؤنا من ذلك الإعدام الجماعي.

تساءل بعضنا:

– منذ متى أنتم هنا في هذا السجن؟

– نحن معزولون في مهجع واحد منذ عام 1976.

– بعضنا اعتقل بعد هذا التاريخ بعام أو عامين، ووضع في نفس المهجع معاً.

– منذ أكثر من عشر سنوات ونحن معاً.. لا نختلط بأحد من السجناء ولا نطلع على كل ما يحدث في السجن.

وبدأت مناسبة جليلة وعظيمة خلال الليل كله، أن راح أكثر من مائتي إنسان يتعارفون فيما بينهم. أما تلك المجموعة الصغيرة التي تم استثناؤها من الإعدام ليلة وقوع مجزرة تدمر، فلقد توافق الجميع فيما بعد، وفيما يشبه أن يكون عرفاً اعتباطياً دون تفكر، أن راح الجميع يلقبونهم: (جماعة المجزرة).

في البداية تعرفت على شاب من بينهم يدعى علي الجوخدار. وكان أنشطهم تحركاً، وأرشقهم اندماجاً بنا، والأميز في حيويته. ثم راح علي يعرفنا بأشقائه الثلاثة الآخرين؛ محمد جوخدار، وأحمد جوخدار، ومُدّثّر جوخدار. كان شقيقهم الأكبر محمد جوخدار(أبو ممدوح)، طاعناً في السن ومريضاً مقعداً يحملونه معهم على بطانية، أينما ذهبوا.

ثم ختم علي التعريف ضاحكاً:

– نحن الأخوة الأربعة جوخدار.. من ريف دمشق.

– وماهي التهمة المباشرة الموجهة إليكم؟

قال علي الجوخدار:

– نحن أبرياء لا تهمة لنا.. لكن السلطات دبرت لنا تهمة محاولة

اغتيال عبد الحليم خدام، عام 1976، وألصقتها بنا. ولقد أجبرنا على الاعتراف بالتهمة بالقسر والإكراه.

أما الرجل الآخر من جماعة المجزرة، فقد عرف بنفسه:

– أنا أخوكم فؤاد الشعار.. من مدينة حلب.. وهذا الشاب (الدرويش) بجانبي، يدعى أبو حلب..

هز أبو حلب رأسه موافقاً، وهو يردد:

– أي نعم.. أنا أبو حلب.. أنا درويش على باب الله.. متل ما قاللكن الأخ فؤاد الشعار..

– وهذا الأخ محمد الأمين (أبو الأمين)، أيضاً من حلب..

ثم تولى علي الجوخدار مهمة تعريفنا ببقية رفقائه، من جماعة الناجين من مجزرة تدمر..

– وأين كنتم حين وقعت مجزرة تدمر؟

– كنا في الباحة الرابعة.

– وكيف استثنوكم أنتم من المجزرة؟

– لم نكن نعلم أي شيء.. ظننا بأنهم سوف يدخلون إلى مهجعنا ويباشروننا بالرشاشات، مثل الآخرين، حتى يقتلونا جميعاً.. جاء المساعد أبو جهل، وطلب منا قبل المجزرة أن ننحشر جميعنا في دورة المياه.. تكومنا من الرعب والخوف جميعاً في مساحة الدورة فوق بعضنا بعضاً.. وبعد دقائق، بدأنا نسمع أصوات فتح الأبواب وتجميع الناس في الباحة الرابعة. ثم انصب الرصاص والقنابل على المتجمعين في الباحة.. بدأنا نتلو بعض آيات من القرآن، ونكرر الشهادة. كنا نعد الدقائق والثواني، في انتظار الأوامر التالية: هل سيعدموننا في المهجع؟ أم سوف يخرجوننا إلى الباحة؟ ولم يساور أي منا الشك، بأن أمرنا سوف يحسم خلال خمس أو عشر الدقائق التالية..

لا ندري من أغمي عليه من الرعب في تلك اللحظات، ومن شُلَّ وفقد القدرة على النطق والحركة.. وقد استمر إطلاق النار حوالي الساعة إلى الساعة وربع تقريباً، ولم نكن نسمع إلا تكبيرات وصرخات عالية تكاد تشق عنان السماء.. بعدها هدأ كل شيء.. ولم نجرؤ حتى على تحسس أجسام بعضنا، وتفقد من بقي حياً منا، ومن مات من الرعب.. كنا في حالة من الموت، أو ما يشبه الموت. وبعد مضي ساعة أو ساعتين، بدأنا

نتحرك ونبتعد عن بعضنا، بعد أن تكومنا فوق بعضنا كما الخضار في صندوق واحد جامع..

– وبعد ذلك؟ ألم يفتح عليكم باب المهجع؟

– لا.. لم يفتح الباب.. ولا جاء أحد.. لبثنا بعدها ملتصقين بجدران المهجع دون حراك حتى اليوم التالي.. لم نسمع أية نأمة ولا صوت. كأن السجن قد فرغ من كل البشر.. في صباح اليوم التالي بدأت الحركة تعود من جديد. وأدركنا من خلال تمييز الأصوات، أن هنالك بعض الشرطة والبلديات كانوا يساعدون في نقل الجثث من الساحة.. وفجأة انفتح الباب، وعرفنا المساعد أحمد (أبو جهل). دخل إلى عتبة المهجع، ومعه عنصر بلديات واحد يساعد على إدخال الطعام، وهو يوجه له الأوامر.. ثم أدخل معه كمية من خبز الصمون العسكري، وجاط طعام فيه قليل من اللبنة.

بعد عصر اليوم التالي عاد المساعد أبو جهل، وطلب منا عناصر سخرة، لكي يساعدوا البلديات في تنظيف الباحة من الدماء.. لم يكن ثمة أية جثة في الباحة.. حتى الدماء تمت إزالتها وتنظيفها.. كان هناك بقع في أماكن عالية، وفي بعض الزوايا.. وثمة بقايا فوارغ رصاص قمنا بمساعدة البلديات على تجميعها، وتنظيف الساحة من كل بقعة دم.. بعد يوم أو يومين، بدأت الحياة تعود إلى مجراها الطبيعي.. ولبثنا وحدنا في المهجع 18 خلال ثماني سنوات متواصلة بعدها. لا يسمح باختلاطنا ببقية المهاجع، ولا يدخل إلى مهجعنا أي سجين جديد، مهما تضاعفت أعداد السجناء، أو بلغ الازدحام بداخل المهاجع مبلغاً.. هذا أول يوم نخرج فيه من المهجع، ونرى سوانا من السجناء والبشر الآخرين.. ولقد علمنا للتو بأنهم سوف يُرَحلوننا إلى سجن صيدنايا..

– وهل وضعوكم لفترة في الباحة الخامسة؟

– لا.. لا.. نحن لم نزر الخامسة ولا نعرفها.

كانت الباحة الخامسة هي سر سجن تدمر المغلق، الذي لم تفك مغاليقه حتى اليوم. كثيرة هي الأخبار التي كانت تصلنا، بأن الخامسة فيها مهاجع البلديات القضائيين. وفيها المطابخ وكل مجموعات الطعام. إضافة إلى وجود عدد كبير من الزنزانات الفردية. وهنالك أيضاً، كما يعرف كل سجناء تدمر، مهجع خاص بالجواسيس. (ترى من هم هؤلاء

الجواسيس؟ ولماذا لم يودعوا في سجون العاصمة دمشق الكثيرة؟). وبعبارة موجزة: كانت الباحة الخامسة، هي الباحة السرية المخصوصة بالسجناء، الذين تحرص السلطة على أن تبقى ملفاتهم طيَّ الكتمان، وأن تحيط بوجودهم السرية إلى الأبد.

في المؤكد، أن هنالك في الخامسة بعض السجناء من ذوي الأسرار والأوضاع الخاصة، الذين حرصت السلطة على أن لا يحتكوا بأحد، ولا يطَّلع على أوضاعهم احد. ولقد مضت سنوات طويلة قبل أن يقدم تنظيم داعش، على تفجير السجن ومحو أسراره، وطمس خفاياه الكثيرة التي لا يعرفها إلا القليل. بيد أن الباحة الخامسة، كانت وستبقى مغلاق أسرار سجن تدمر، ومفتاحه الذي لم يُفتح لأحد قط.

– 3 –

وصل رتل الباصات والسيارات الكبير إلى سجن صيدنايا.

كانت هذه المجموعة الكبيرة من السجناء هي الدفعة الأولى التي يفتتح بها السجن العسكري الذي شيد حديثا. وقد شيد وفق طراز معماري مميز، وكان مخططا له أن يكون سجنا وفق مواصفات أحدث السجون في العالم. كان السجن بناء على شكل ماركة سيارات مارسيدس، أو حرف Y، المتوزعة على ثلاثة أجنحة، تعلوها ثلاثة طوابق. وكل جناح فيها انقسم إلى قسمين: أ – ب. يتماس القسمان بضلع واصل بينهما، على شكل صندوق مفتوح، أو يشكلان حرف U. وما إن دلفنا وأصبحنا داخله، حتى بُهرْنا بفخامة البناء، ونور الشمس التي تظل ساطعة على جنباته.

منذ اليوم الأول، بعد وصولنا سجن صيدنايا، استطعنا الحصول على مرآة. وهو أمرٌ كان يُعد من المستحيلات الحصول عليه في تدمر. وما إن شرعنا تباعاً نتأمل سحناتنا في المرآة، حتى حدثت الصدمة النفسية الكبرى؛ صدمة اكتشاف أنفسنا بعد سنوات طويلة. كان النظر في المرآة بالنسبة للجميع أكبر صدمات السجن.

هنا ينكشف الزمن، وتنفتح لجة الحقيقة التي بدأت تُرى لأول مرة، وهنا يعاينُ البصر، وجهاً لوجه، ما كنا في غفلة عنه حتى تلك اللحظة:

أنفسنا. ذواتنا. بشريتنا التي كانت تُنهَب عبر مجانية الوقت والزمن المنهوب من أعمارنا، فلم ننتبه إليها طوال فترة معايشة السجن في تدمر. كنا نرى الآخرين حقاً، ولكن من ذا الذي بوسعه أن يرى نفسه آنذاك؟

لأول وهلة، لم أكد أصدق أن هذا الوجه الذي أراه الآن في المرآة، بعد سنواتٍ سبعٍ عجاف، هو وجهي. وجهي أنا، وليس وجه غيري. ولثوانٍ خاطفة يوشك المرء أن يُحدّثَ نفسه: لا.. أستبعدُ أن يكون هذا أنا.. لعل خطأً ما قد حدث، وأنا غير شاعر به. أو لعل زيفاً ما – أو شيئاً تمَّ تزييفه – قد لابسَ بمكرٍ صُنعة هذه المرآة! لقد كانت تلك اللحظات، هي الأعنف والأقسى، التي يعيشها كل سجين مضت عليها سنوات في تدمر.! ففي هذه الدقائق القليلة، يتكثف في كيان المرء ووجدانه، كل ما حدث له، وما حصل خلال سنوات عمره التي انقضتْ وأنْقَضَتْ ظهره. إنها بحق، لحظة مواجهة الحقيقة للمرة الأولى، وقد جسّدتها المرآة.

لا شك أن خسائر المعتقل بعد الإفراج عنه كثيرة جداً، وأكثر من أن يحاط بها أو تحصى. بيد أن واحدة من أفظع النتائج التي قد تخلف آلاما نفسية وجسدية لا تزول مرارتها من النفس، ما عاش المعتقل خارج أسوار السجن. ربما كان من أسوإها أن يحيا بقية العمر، وقد خضع لبعض التجارب على الأسلحة الكيميائية والجرثومية، التي كانت تجري تطبيقاتها في بعض المختبرات، والمواقع العسكرية السرية التي لم تنقطع السلطات عن تجريبها في معاملها ومواقعها، على لحوم وأنفس بشرية حية، طالما عاملتها السلطاتُ معاملة فئران تجارب، لا تُكَلّفُه ثمناً، لا مادياً ولا سياسياً ولا أخلاقياً، إلا أقل مما يمكن أن تكلف فئران التجارب من أثمان بكثير.

وكانت العينات التجريبية البشرية، التي تؤخذ إلى تلك الحقول، لكي تُجرى عليها التجارب، وتُجرب فيها نجاعة السلاح الكيماوي والجرثومي وقدر النجاح فيه.. عينات عشوائية، لا ترتبط بتهمة السجين – كما قد يُظن – ولا بالحكم الصادر بحقه. والسلطات لا يعنيها كثيراً، سوى أنّ هذا الذي سوف يخضع للتجربة، هو سجين معتقل فحسب.. أيْ مخلوقٍ، قيمتُه في ميزان الدولة والسلطة، أقل من قيمة الحشرة.

أما أن يكون قد صدر حكم ببراءته مثلاً، أو حُكِم بسجنه لفترة سنة أو سنتين أو أكثر من ذلك، فهذا خارج أي حساب أو مقياس أو معيار.

بعض الأصدقاء الذين عرفتهم في المعتقل، كانوا قد نالوا حكماً بالبراءة. وبعضُهم صدر الحكم بحقهم بالسجن لسنة واحدة. مع ملاحظة أن المعتقل قد يكون قد أنهى فترة حكمه منذ وقت طويل، وهو خاضع لتجديد الاعتقال بموجب قرار عرفي، يصدر تلقائياً بحقه دون حاجة للرجوع إلى أية سلطة مرجعية قضائية. ولقد تمَّ انتقاؤهم عشوائياً، لتجريب الأسلحة وتأثيرها الميداني عليهم بصورة مباشرة.

"غ. ك" مثلاً، وهو محكوم لمدة سنة واحدة، من قبل المحكمة الميدانية في المزة، وقد أنهى محكوميته، قبل إجراء تلك التجربة الكيميائية عليه.

"غ. ك" شاب حلبي، تم توقيفه كرهينة عن والده المطلوب للسلطات. ولقد حُكم لفترة سنة واحدة، لكن السلطات لم تفرج عنه بعد انقضاء محكوميته. وبعد خروجه من المعتقل، تزوج "غ. ك". لكنه اليوم، وبعد مرور قرابة أربعين عاماً مضت على زواجه، أكد له عشرات الأطباء الذين لم يقنط من مراجعتهم، ولا من أملٍ بحدوث معجزة ما، تحقق له القدرة على إنجاب طفل، بيد أن كل الخبرات الطبية التي عرض نفسه عليها، أكدت له أنه أصبح عقيماً عقماً تاماً، وعاجزاً عن إنجاب طفلٍ، يوماً ما. وذلك بسبب خضوعه، لبعض تلك التجارب الجهنمية الفظيعة؛ مع معتقلين آخرين، لاختبارات الأسلحة الكيماوية على المعتقلين والموقوفين. في بعض الحقول التابعة لقطعات الجيش.

كما أن نوبات ضيق الصدر، والاختناقات التي لازمته منذ تلك التجارب، دفعت جميع الأطباء لأن يؤكدوا له، أن لا علاج لها إلا الصبر والمصابرة والاعتياد عليها. كحالة إعاقة أبدية، يتعذر علاجها بأية وسيلة من وسائل المعالجات الطبية الممكنة أو المتاحة اليوم.

كان من جميل المصادفات والحظ العظيم، أن ألتقي في صيدنايا بذلك البطل السوري العظيم، الرائد محمود عبد الهادي شرّوف. بطل الحرب والسلام. بطل هذا الزمان السوري، الذي افتقد، منذ زمن طويل، عادة الترحيب بالبطولة والأبطال. وراح يُهمل أو ينسى، أو يركنهم في غيابات المجهول والنسيان.

- 4 -

البطل السوري العظيم. بطل الحرب والسلام. وأحد أهم الرجالات والشخصيات المتفوقة والعظيمة في تاريخ سورية، ربما خلال القرن المنصرم؛ الرائد محمود عبد الهادي شروف – أبو عبدو – من قرية الزَرّاعة، التابعة للقصير، في ريف حمص.

في عام 1975 قطعت سورية مياه نهر الفرات، عن العراق، الأمر الذي أغضب الحكومة العراقية وقتها، ودفعها لحشد الجيش العراقي على الحدود السورية، والتلويح بالهجوم على نظام الأسد.

وكالعادة – في مثل هذه الأحوال – بدأ إعلام البلدين (ولم يكن ثمة من إعلام بين البلدين إلا أجهزة الراديو)، بالردح والصدح والقدح. فلا مالك قال في الخمر، ما قال كلٌّ طرفٍ عن الآخر. ولا صنع الحداد ما صنعوا، وما استنوا من حراب وسيوف أشهروها مهددين بها.

أحد ضباط الفرقتين العسكريتين، اللتين حُشدتا على الحدود العراقية، رائد في سلاح الدبابات، اسمه محمود عبد الهادي شروف، وهو من قرية الزَّراعة، الملاصقة لبلدة القصير القريبة من حمص. كان الرائد شرّوف بطل سورية الأول في حرب تشرين 1973، حيث حاز على وسام بطل الجمهورية من الدرجة الأولى، لتدميره بمفرده تسع دبابات إسرائيلية، إضافة إلى سجلٍ حافلٍ من البطولات.

أبدى الرائد محمود شرّوف، تبرمه وضيقه الشديد، من فكرة الدخول في اشتباك وحرب مع العراقيين، وصرّح لبعض زملائه في القطعة العسكرية، أنه لن ولا يستطيعُ أن يقاتل أي طرف عربي، على أية جبهة يحتمل أن يكون عدوه المقابل له، عرباً مثله، خاصة إذا كانت دوافع تلك الحرب، من أجل قضية سياسية تافهة، قد يتمُّ التفاهم عليها خلال أيام بين البلدين. (وبالفعل، فقد انتهت تلك الأزمة خلال بضعة أيام قادمة، كما توقع الرائد شرّوف).. ما حدث بعد امتعاضه وتصريحاته تلك، وصل بالطبع إلى قيادة الفرقة عن طريق مخبرين ، فقامت الدنيا ولم تقعد.

تمَّ اعتقاله وخمسةً آخرين من رفقائه، الذين وافقوه الرأي والفكرة والمبدأ. أما رفاقه الذين اعتُقِلوا معه، فهم بيان حناوي من السويداء.

وعبد الوهاب الجزَّاع من الميادين. وأحمد ليلا من بلدة حمورية في ريف دمشق. وأحمد مرعي من دمشق. وحمدان ناصر من ريف إدلب. كما عمدت السلطة فوراً إلى حلّ الفرقة العسكرية التي كانوا من عدادها، بكاملها. وذلك من ارتعاد وخوف السلطة من هذه التصريحات. ولقد أشرف حافظ أسد بنفسه على مجريات التحقيق معهم، متابعاً ومنيباً عنه، فريق القيادات الأمنية والصف الأول في أجهزة المخابرات. كان فريق التحقيق مكوناً من رفعت الأسد وعلي دوبا وحسن الخليل ومحمد ناصيف، وبقية ضباط الأمن القومي يومذاك.

وقد اتفقت كلمة أبو عبد شروف ورفقائه، على كلمة واحدة لم يتزحزحوا عنها: نحن لا نقاتل إلا العدو الإسرائيلي. ونحن لسنا سياسيين، وغير منتمين لتيار أو تنظيم سياسي، ومستعدون الآن للقتال على خطوط الجبهة الأمامية في الجولان، حتى الاستشهاد. ولو وضعنا في نفس الموقف على الجبهة الأردنية أو اللبنانية لكان لنا الموقف نفسه. إننا نرفض قتال إخواننا من أجل أية قضية سياسية.

أودِعَ الضباط الستة رهن الاعتقال في سجن المزة العسكري، وظلوا في المزة من عام 1976 حتى عام 1987. حيث تمَّ نقلُهم إلى سجن صيدنايا عقب افتتاحه. هناك كان لقائي الأول وتعرفي على محمود شروف لأول مرة. هذه الصداقة والصحبة التي سوف تتواصل لأربع سنوات قادمة في صيدنايا.

أول ما يدهشك في شخصية محمود شروف ذكاؤه الشديد. حافظته الشديدة. ثقافته الموسوعية النادر أمثالها. لطفه وأدبه وتواضعه الجمّ. فضلاً عن صلابته وتمسكه بمبادئه تمسكاً يندر أن يوجد لدى كثير من الناس. ولقد وقف الفريق الأمني المكلف بالتحقيق مع محمود شرّوف، عند مسألة كتابة مدونة اعتذار واسترحام لحافظ الأسد، مقابل الإفراج عنهم، وإطلاق سراحهم من السجن. بل وإعادتهم إلى قطعاتهم العسكرية، وتعويضهم رتبهم ورواتبهم التي صدرت التعليمات بإيقافها.

كان جواب محمود شروف ورفاقه الثابت، خلال فترة سجنهم التي استمرت ستة عشر عاماً، هو:

– لم نُخطئ حتى نعتذر من أحد.. والدي ووالدتي ربياني، وأرسلاني للتطوع في الجيش حتى أقاتل الإسرائيليين فقط. ولن أوجه سلاحاً ما

حييت، لأي سبب سياسي، لا نحو لبناني ولا نحو عراقي ولا نحو فلسطيني ولا نحو أردني ولا نحو مصري أو خليجي. ولو رجع الزمان إلى الوراء أربعة عشر عاماً، لاتخذتُ نفس الموقف، ولم ولن أتزحزح عن قناعاتي ومواقفي.

كان محمود شرّوف لا ينقطع عن القراءة والمطالعة داخل السجن. يحب المزاح والنكتة، حتى تظنه خالي البال، لاهمَّ لديه. وقد ألزم نفسه بعادة أن يدعو إلى طعامه، كل سجين يدخل إلى الجناح الذي يكون فيه، في سجن صيدنايا لأول مرة. كائناً من كان. (أو إلى مهجعه، فترة مكوثه في سجن المزة من قبل). ولقد علمتُ بأن هذه العادة، هي من مألوف عاداته التي واظب عليها طيلة سني سجنه، ومنذ أول أيامه يوم كان سجيناً في المزة.

يحبه ويحترمه الجميع في السجن: المسلمون والمسيحيون، ويقضي في الخلافات إذا نشبت بين اليزيديين، ويُسِرُّ إليه العلويون بهمومهم ومشاكلهم العامة والخاصة، ويستعين به وبنصحه الشيعي والإسماعيلي. واللبناني والفلسطيني والعراقي والأردني. وكلٌّ من دخل السجن، فعرَفه أو كان قريباً منه. وهو ناصح الشبان الصغار، وخدين الكهول الكبار.

قبل مرسوم العفو الذي تم بمقتضاه الإفراج عن معظم السجناء، نهايات عام 1991 وفي بداية عام 1992، استدعي محمود شروف وبقية رفاقه الضباط للتحقيق للمرة الأخيرة. تولى مهمة إتمام التفاوض معهم، بعد ستة عشر عاماً، اللواء حسن خليل، وكان رئيس الأمن العسكري، وأشهر الضباط الأمنيين وقتها. وأعيدت الأسئلة القديمة نفسها. والمقترحات بتقديم طلب الاسترحام والاعتذار نفسها.

كان اللواء حسن خليل يراهن ويتوقع، أن يكونوا قد انهاروا انهياراً، خلال هذا الزمن الطويل في المعتقل.

لكنه تفاجأ بصلابة أجوبة، ورباطة جأش وإصرار على الموقف نفسه، وكما وقفوه قبل ستة عشر عاماً. فأمر اللواء حسن خليل بإعادة الضباط الستة إلى جناحهم، في سجن صيدنايا.

وبعد بضعة شهور، عقب صدور العفو العام، وبعد إطلاق سراح آلاف المعتقلين من سجون النظام، لم تجد السلطات مندوحة من إطلاق سراحهم، مع الآلاف الذين خرجوا أول عام 1992.

ولقد علمت مؤخراً، بأن محمود شروف، يعيش كما يعيش معظم السوريين. لاجئاً مهملاً، هو وعائلته في سهل عكار بلبنان. وقد أصيب بجلطتين قلبية ودماغية، وأوضاعه الصحية والإنسانية في منتهى البؤس.

أولئك آبائي.. فجئني بمثلهم..

– 5 –

إنه صخب السجن في صيدنايا.

تيارات وكتل بشرية، يُخَيَّلُ للمرء أن سلطات الأسد ومخابراته، لم تُبقِ على أحد من السوريين أو اللبنانيين أو الفلسطينيين، إلا وقد حشرته في تلك الأجنحة المكتظة. بعض التيارات تكاد تسمع بها، أو تتعرف عليها لأول مرة. عشرات التيارات الإسلامية، والقومية، واليسارية الإشتراكية، والشيوعية. رعاة أغنام ومزارعون ومهربون. ضباطٌ أمراء ومجندون. ونخب أرستقراطية وأصحاب صنائع من العامة.

كثيراً ما كانت أجواء عدم الانسجام الفكري، أو الوئام الثقافي والسياسي، تفضي إلى شجارات وخلافات كانت تنتهي غالباً بترك المهجع، والانتقال منه إلى مهجع آخر. وفي إحدى المرات تقدم أحد الأساتذة والسياسيين المخضرمين، (ويدعى أبو أنمار)، وهو من ذلك الرعيل الذي عاش حقبة التغيرات الكثيرة التي شهدتها سورية، تقدم بطلب شفهي بالانتقال من المهجع، ثم اتبعه بطلب كتابي بالانتقال من الجناح كله، بسبب ضيقه وبرمه الشديد، من بعض من كانوا يعايشونه في نفس المهجع.

وحين حضر المساعد نزيه، لمناقشته في أسباب تقدمه بطلب الانتقال إلى جناح آخر، قال أبو أنمار:

– مستحيل أن أستمر في العيش مع هكذا أوباش، وهكذا حثالات..

فسأل المساعد نزيه:

– مشكلتك مع اللبنانيين عموماً، أم مع شخص بعينه؟

– مشكلتي مع جميع هؤلاء اللبنانيين في العموم. ومع شخص بعينه، لا ينفك يغني أغاني مبتذلة وسوقية سافلة كل يوم عند رأسي.. من الصباح حتى العشاء..

– أغاني مبتذلة؟ هل تريدني أن أوافق على تبديل جناحك كله من أجل أن زميلك غنى أغنية مبتذلة كما تقول؟

– حضرة المساعد نزيه، لست أدري من أين اصطدتم كل هؤلاء الأشخاص البدائيين، من سهل عكار.. ولكن يستحيل أن أتعايش مع شخص يهرف بكلام يثير القشعريرة، ويخض البدن من شدة الازعاج..

– وما هي تلك الأغاني المبتذلة؟ مثل ماذا مثلاً..؟

– لا أستطيع.. بل لا أستحسن حتى أن أنطق بتلك الألفاظ السوقية التي يدعوها أغنية..

– يا رجل.. معقول هذا؟ ما تلك الأغاني؟ صدقاً إذا ذكرت لي الأغنية واقتنعت بكلامك، لسوف أنقلك الآن.. وفوراً..

فضحك أبو أنمار ضحكة مختنقة، وكأنه يوشك أن تخرج روحه من بدنه، وهو يتلفظ بها:

– أغنية تقول كلماتها: يا بنات شعيطْ معيطْ. كلاسينكن بلا مْطْيطْ

فانفردت أسارير المساعد نزيه، عن ابتسامة مشرقة وحبور. قائلاً:

– بدك الصراحة.. الأغنية حلوة، ما تقول ما حلوة.. ولو كنت محلك، ما بترك رفيقي وزميلي مشانها، وبطلب تغيير كل الجناح كرمال هيك أغنية. بالعكس كان تمسكت فيه أكثر، وأعجبت فيه أكثر.

أنا على وشك أن أجزم بأن 90% من السوريين لا يعرفون هذا الأوقيانوس العجائبي الذي يسمى مدينة "سلمية". ولن أستغرب كثيراً لو عرفت أيضاً بأن كثيراً من السلامنة أنفسهم، لم يكتشفوا سلمية حق الاكتشاف..

سلمية مدينة صحراوية نائية في عمق الصحراء. ومع ذلك فقد حظيت بمثقفين ونخب أدبية وفكرية وسياسية، أكثر من كبريات المدن السورية الكبرى، كحلب ودمشق وحمص وحماة، (نسبة إلى عدد سكانها الذي

يقارب سكان ضيعة أو بلدة صغيرة). في سلمية يوجد نصف الشعراء والأدباء السوريين. أما المشتغلون في السياسة والشأن السياسي، فلا يمكن عدهم، لأن كل سكان سلمية سياسيون، بما فيهم الرضع والذين لم يدخلوا المدرسة الابتدائية بعد.

سكان سلمية جميعاً من طبقة فقيرة، فبلدتهم الصحراوية، ذات الطابع الأقرب للبداوة، لم تتوافر لها ظروف ازدهار زراعي أو تجاري. بل لعل فقر المدينة هو أبرز ميزاتها وخصوصياتها، أما الوضع الديني والطوائفي في سلمية، فهو أغرب الغرائب وأعجب العجائب. ففي سلمية غالبية الأسر ينتمون إلى الطائفة الإسماعيلية، والبقية من السُنة وبعض العلويين والمسيحيين. لكن الحالة الطوائفية في سلمية لا تشبه الحالة الطوائفية، لا في سورية ولا في العالم أجمع. فالدين والطوائفية، بالنسبة للسلامنة، نوع من (هوية صغرى)، أدنى من العروبة والوطنية، بل وحتى العشائرية والعائلية. ولقد عاش النظام الأسدي تاريخياً، وهو شديد الحقد والغيظ من السلامنة، لسبب واحد؛ هو أنهم لم يرتقوا – مثله – بطوائفيتهم إلى حالة اصطفاف وهوية كبرى، تعلو على أي انتماء.

الإسماعيلي السلموني، حين يغضب من اسماعيلي مثله، بسبب خلاف على قطعة أرض أو بيع وشراء سيارة مثلاً، فإنه يتحول إلى المذهب السني "جكارة" به.. والسني حين يغضب من سني آخر، بسبب خلاف أو خصومة في خطبة امرأة أو زواج متعثر، فإنه يتحول إلى المذهب الإسماعيلي، "جكارة" به.. حتى الأطفال في سلمية قد يتحولون من المذهب الإسماعيلي الى المذهب السني، أو العكس، بسبب شجار على لعبة كرة القدم، أو الطابة في الحارة. ففي سلمية قد تجد العائلة الواحدة كالتالي: الأم سنية. الأب اسماعيلي. الأخوة العشرة نصفهم سنيون، ونصفهم اسماعيليون. ونصف أولادهم من شقهم الإسماعيلي سنة، ونصف الأولاد من الشق السني إسماعيليون. ولو رجعت بعد عشرة أعوام، لرأيت كل اصطفافات العائلة السابقة قد تغيرت. فأصبح بعض السنة اسماعيليين وبالعكس.

في سجن صيدنايا العسكري، كان من خيرة أصدقائي وأكثر من أعتز بمعرفتهم وصداقتهم في حياتي كلها، "فريد إدريس"، أبو علي. السني السلفي الأصولي، الحافظ للقرآن، والطيب والمحسن للجميع. وشقيقه

"رمزات إدريس"، أبو صخر. الإسماعيلي، اليساري البعثي اللاديني، والطيب المحسن للجميع ايضاً. ولم أجد في المجتمع السوري كله شقيقين متحابين متلاصقين متوائمين في كل شيء، ولم يختلفا يوماً من الأيام، أكثر من الشقيقين إدريس. الأول مثله الأعلى في هذه الحياة ابن تيمية وابن القيم وأبو الحسن الندوي وسيد قطب، والثاني مثله الأعلى في هذه الحياة ميشيل عفلق وصلاح البيطار وجلال السيد وياسين الحافظ. الأول أصدقاؤه كلهم متدينون ملتزمون محافظون. جميعهم يحبهم شقيقه أبو صخر، ويحبونه. ويتعاطف معهم ويساعدهم إلى درجة التضحية من أجلهم. والثاني أصدقاؤه كلهم من البعثيين واليساريين والقوميين والملحدين أحياناً. وجميعهم يحبهم شقيقه أبو علي، ويجلهم ويحترمهم، وهو مستعد للتضحية بكل ما يملك من أجل أصدقاء شقيقه رمزات، "أبو صخر".

أبو علي، فريد إدريس، كان دائب الاهتمام على مساعدة "الأخوة المتدينين الملتزمين" في الأجنحة الأخرى، يساعده – إلى حد المخاطرة والتفاني – في كل هذا النشاط وهذا الجهد لبذل كل ما يستطيع أن يساعدهم به، شقيقه رمزات، أبو صخر. ورمزات ادريس، أبو صخر، كان دائب الاهتمام على مساعدة "الرفاق القوميين واليساريين والشيوعيين المناضلين" في الأجنحة الأخرى، يساعده – إلى حد المخاطرة بنفسه والتفاني – في كل هذا النشاط، وهذا الجهد لبذل كل ما يستطيع أن يساعدهم به، شقيقه فريد، أبو علي. أبو علي لا يمكنه أن يكره سورياً مهما اختلف معه أو تباعدا في وجهة النظر السياسية والفكرية، وأبو صخر لا يمكنه أن يكره سورياً آخر مهما كان شأنه ومركزه السياسي وموضعه الطوائفي والحزبي والفكري..

وا أسفاه عليكِ يا سلمية.. و واحزناه عليكِ يا سورية.. أسفاً وحزناً لا عزاء بعده إلى الأبد.

– 6 –

أعود في كل مساء إلى المهجع، فأرى محسن، "أبو حلب"، رفيقي في مهجعي، وقد عاد من جولته المسائية. أبو حلب له جولتان يومياً؛ صباحية ومسائية. ولعله نال ذلك اللقب الذي غلب عليه، لأنه كان يعمل معاون باص هوب هوب، يظل ينادي عليه طيلة يومه؛ "شام حلب.. شام حلب"، ليجمع الركاب، وينبههم إلى فرصة مقاعد شاغرة، ما زالت تنتظرهم في باص الهوب الهوب. أسأله لأطمئن على أن أوضاعه على ما يرام:

– شو أبو حلب.. انشالله اليوم المحصلة جيدة؟

يكون أبو حلب قد غدا غدوة يزور فيها كل المهاجع، أو معظمها، وهو يستعطي ويُعطى دائماً. فيقول:

– كفاها المولى اليوم. الحمد لله. صار جمعنا من المهاجع أكثر من ثلاثين سيجارة. سأدخن نصفها وأدّخر البقية حتى غد.

يفرش أبو حلب بضاعته في أرض المهجع. معلبات، بعض الخضار والفواكه، وبعض الحلوى وأنواع من الأطعمة المختلفة، مناديل وقطع نقدية متنوعة، بعض الجرابات والألبسة، بضاعة أبي حلب اليومية تذكر بمنظر بسطات سوق الجمعة، المألوفة في كل مكان في سورية، أينما ذهبت.

تلك هي الحكاية. بل تلك هي حكاية الحكايات. حكاية اعتقال أبو حلب، وبقائه في السجن لفترة جاوزت الأربعة عشر عاماً، هي من فرائد السجن وطرائفه. بل الأصدق من غرائبه ومآسيه.

أبو حلب الذي يعمل معاون باص في أحد كاراجات الهوب هوب. لم يحلم يوماً بأن يترقى منزلةً، عن وظيفته تلك التي ارتضاها، وأحبها إلى حد العشق والتماهي بها. لم يكن أبو حلب إلا شخصاً آدمياً ممزوج اللحم والعظم والروح، بخبرة الكاراجات والصياح المتواصل في الليل والنهار: "شام حلب.. شام حلب".

وفي إحدى المرات، أتاه زائران غريبان مجهولان. وعرضا عليه عرضاً سخياً مقابل مبلغ من المال، وهو أن يحمل لهما "نملية" جديدة مشتراة، يبغيان أن يحملاها إلى مدينة دمشق، وأن يوصلاها إلى أحد العناوين في دمشق. مقابل

أجرٍ مجزٍ، لم يكن أبو حلب ليحلم به، أو يمنحه أيٌّ من زبائن الكاراج، مقابل مثل هذه الخدمة الصغيرة التي لا تكلف جهداً ولا وقتاً.

و"النملية" خزنة خشبية يُغطى سائرُها بغربال ناعم، يمنع الحشرات من الدخول إلى داخلها. وكانت تستعمل لغاية حفظ الأطعمة وتعريضها للهواء الطلق. كانت "النملية" في الماضي، تلعب الدور الذي كان يلعبه البراد اليوم، في الأثاث المنزلي. وتُسمى في بعض المناطق السورية: الشعرية، لكونها تغطى بغطاء غربالي دقيق كالشعر.

خطر ببال أبو حلب، أن العرض المالي الذي قدم له من قبل هذين الزبونين، هو في الحقيقة أكثر من مجزٍ ومغرٍ، إلى درجة أنه لن يمنعه مانع من السفر بنفسه، والعودة مباشرة إلى الكاراج في حلب، دون أن تقتضيه هذه المهمة غير الشاقة، إلا بضعة ساعات يعدل ربحها الذي عرض عليه، أكثر من المردود المادي الذي يجنيه في أيام.

وبعد موافقة "أبو حلب"، وحماسه للقيام بالمهمة، أحضر الرجلان تلك "النملية"، فوضعها أبو حلب فوق سطح الباص المسافر نحو دمشق. وقبض أجرته التي اتفق مع الرجلين عليها مقابل نقلها، وإيصالها إلى العنوان المطلوب، الذي زوّده الرجلان به.

وفوق ذلك، أعطاه الرجلان مفتاح الشقة، التي ينبغي أن يوصل "النملية" إليها، وبلَّغاه بأن الشقة فارغة. وما عليه سوى أن يركن "النملية" في أية زاوية يشاء، ثم يقفل الشقة، ويرجع عائداً من حيث أتى.

وصل الباص إلى دمشق، فأنزل أبو حلب نمليته، وأوقف شاحنة صغيرة لحملها نحو العنوان، الذي أعطي له من قبل الرجلين في حلب.

وما إنْ بلغ الشاب محسن، أبو حلب، إلى العنوان المطلوب، حتى حمل "النملية" وصعد بها درج البناية، وصولاً إلى الطابق الثالث، ثم أخرج المفتاح الذي بحوزته، وفتح الباب. آملاً أن يركن "النملية" في أي ركن من الشقة الخالية، ثم يقفل راجعاً إلى حلب. وهنالك كانت المفاجأة..

فالشقة كان يرابط فيها عدد من عناصر المخابرات، الذين داهموها باحثين عن مطلوبين. وهؤلاء المطلوبون للأمن – الذين ادعت السلطات أنهم كانوا يخططون لاغتيال وزير الخارجية السوري، عبد الحليم خدام – شعروا بالمداهمة، ففروا منها، وتركوها خالية. فاحتل عناصر الأمن الشقة، ولبثوا ينتظرون، متوقعين أن يدخل أحدٌ ما إليها.

إذن لم تكن النملية، وقصة إرسالها إلى تلك الشقة سوى خطة مبيتة، من أولئك الفارين من الشقة، وذلك لكي يختبروا أمراً: هل اكتشفت المخابرات شقتهم؟ وهل هنالك من يختبئ فيها؟ وما عليهم، للتأكد، إلا إرسال شخص بسيط، وضحية من فقراء الناس وضعفائهم، شخص ساذج، ودرويش من الدراويش، شبه مشرد، إرساله بحجة توصيل "النملية" إلى ذلك العنوان، مقابل أجرة بالغة الوفرة والكرم. فإن أوصل الأمانة بسلام إلى الشقة، فبها ونعمت. وهذا يعني أن الشقة في أمان، وأن المخابرات لم تتوصل إليها. وإن حصل، وجرى إلقاء القبض على الشخص المرسل بـ-"النملية" الأمانة، فهذا معناه أن الأخبار التي وصلتهم كانت صحيحة، لا كذب ولا مبالغة فيها.

وهكذا تم اعتقال "أبو حلب" المتشرد، الذي نشأ في ملجأ للأيتام، وتربى وكبر فيه، لا يعرف له أهلاً ولا عائلة ولا معيلاً. ووجهت التهمة لمحسن، أبو حلب، بأنه عضو في جماعة سياسية إجرامية، كانت تخطط لاغتيال وزير الخارجية، عبد الحليم خدام. وبما أن الأجهزة الأمنية قد أفلتت من يدها تلك المجموعة الهاربة، والتي فرت ولم يُلقَ القبض عليها، فما على الجهاز الأمني، سوى أن يتمسك بأبو حلب، ويعتبره الصيد الثمين الذي اصطاده، وحقق كل انتصاراته من خلاله.

وهكذا فقد اقترح بعض الأذكياء الاستخباراتيين، أن يُلقِّنوا "أبو حلب" سيناريو خطة العملية، وأن يظهر على ملأ من الناس، أمام شاشة التلفزيون، وهو يشرح ويفصِّل كيف خططوا، وكيف شرعوا في ارتكاب الجريمة، جريمة اغتيال وزير الخارجية، حتى يتم الانتهاء من تصوير فيلم تلفزيوني متكامل ومشوق، يُظهر براعة المخابرات، وسذاجة عصابة الأشرار التي كانت تخطط لاغتيال وزير الخارجية. عصابة الأشرار تلك التي كان بطلها ورئيسها "أبو حلب".

وقد وافق أبو حلب طبعاً، بعد أن أقنعوه، أنه ما إن ينهي تصوير المقابلة التلفزيونية المطلوبة، حتى يوصله ضابط الأمن بنفسه إلى الكراجات، وأنه بات على وشك العودة الى باص الهوب هوب وإلى كراجه.. إلى الشيء الوحيد الذي يحبه، والمهنة الوحيدة التي يعرفها: "شام.. حلب. شام.. حلب".

فشل أبو حلب في إتقان دوره، وفي حفظ السيناريو التلفزيوني كما

أريد منه. فهو جزئياً، يعاني من عته ولادي أو مكتسب، نتيجة الطفولة الشقية التي عاشها. ولا يستطيع بالكاد أن يحفظ اسمه، أو يلفظه بطريقة مرتاحة. ناهيك عن أن يتقن حفظ اسم غيره، أو مجموعة جمل متراكبة تراكباً منطقياً.

وكلما فشل أبو حلب في نطق السيناريو التلفزيوني الذي أريد تلقينه له، كلما زادوا جرعة الجلد والتعذيب، والضرب الشديد على سائر جسمه. فلم ينفكوا عن لبطه بالأحذية، وضربه بالمقارع والسياط، مع مواصلة الشتائم المقذعة بحق "أبو حلب". حتى يئسوا تماماً من أن "أبو حلب" لا يمكنه أن يصلح – تحت أي ظرف – لإتمام هذا اللقاء التلفزيوني المطلوب، وحين يئسوا منه ألغوا فكرة المقابلة التلفزيونية من أساسها، واستكملوا سيناريو المقابلات، بعد أن عثروا على ممثل آخر بديل عن "أبو حلب"، ليحفظ دوره ويكمل السيناريو، ويظهر أمام الجمهور بوصفه هو أبو حلب.

أعيد محسن، أبو حلب، إلى زنزانته، ثم رحلوه الى سجن عدرا المدني. وبعدها تم ترحيله إلى سجن تدمر العسكري. وحين وقعت مجزرة سجن تدمر الشهيرة، كان أبو حلب موجوداً في تدمر أثناء وقوع تلك المجزرة، لكن السلطات كانت قد وضعته في نفس المهجع الذي استثني من المجزرة، فكان أحد أفراد (مهجع جماعة المجزرة)، إضافة إلى الأشقاء الأربعة جوخدار، المتهمين بنفس التهمة. ذلك المهجع الذي لم يتجاوز عدده الخمسة عشر شخصاً، والذين تم استثناؤهم من الإعدام في تلك المجزرة الرهيبة.

حين افتُتِح سجن صيدنايا، وتم ترحيلنا إليه، كان لقاؤنا الأول بأبي حلب ومجموعته، التي كانت تسمى مجموعة المجزرة. وهكذا وصل أبو حلب إلى سجن صيدنايا، وقضى فيه قريباً من أربع سنوات أخرى. وعندما أطلق سراحنا من سجن صيدنايا، خرج أبو حلب مع بقية المفرج عنهم من السجن، بعد قضائه أربعة عشر عاماً بسبب تحميله ونقله لتلك "النملية" اللعينة..

لا ترى أبا حلب في أواخر أيامه، إلا تجد حيالك شخصاً مهدماً، مشوشاً وشبه متوحش، عيي النطق، لا يكاد يحسن نطق جملة صغيرة من الكلام، إلا بصعوبة ومشقة. ولا اهتمام له، إلا أن يخدم بعض

السجناء، أو يقدم لهم عوناً صغيراً، مقابل أجر بسيط: سكائر، بعض الألبسة والأطعمة والخضار والسكاكر، وقطع نقود صغيرة بسيطة. وقد اشتعل رأس أبي حلب بالشيب. وحفر الزمن وجهه بالأخاديد، وازداد توحشاً وإهمالاً لنفسه، كلما مضى عليه مزيدٌ من الوقت في السجن.

أكبر المصائب، أن السلطة التي أوقعت بأبي حلب كل هذا العقاب، وكل هذا العذاب، هي نفسها من أصدر بعد قلة من السنوات، المراسيم التشريعية التي حكمت على وزير الخارجية عبد الحليم خدام بالإعدام، واتهمته بالخيانة، وأهدرت دمه، وصدرت قرارات كثيرة بمصادرة أمواله، والتشهير به، بكل قبيح من القول.

تُرى هل فكرت تلك السلطة، التي شرعت تطارد عبد الحليم خدام لكي تعدمه، أن تراجع نفسها، وتقف عند ضميرها، وتحاكم شناعة ما أوقعته بأبي حلب، من أجل عبد الحليم خدام، الذي نكلت به وأسلمته الى أشنع مصير إنساني بحجة أنه خطط لاغتيال من سوف تعده تلك السلطات نفسها بعد حين، خائناً يستحق الموت والإعدام؟

لا أحسب أن أحداً بعد ذلك قد فطن لأبي حلب، أو فكّر في الاعتذار منه، بعد انقضاء كل ذلك الزمن..! فالواقع أن السوريين جميعاً، ومن بعض الأوجه، يشبهون أبا حلب، والمصير الذي أسلِم له وأوُقِع فيه أبو حلب. وأن سورية بأسرها تشبه إلى حدٍ بعيدٍ، "نملية" أبي حلب.

– 7 –

خليل الفلاح.. شاب ديري رائع. نظير الأم تيريزا، أو هو نسختها السورية، قضى أربعة عشر عاماً في السجن وقد نذر نفسه أن يساعد كل فقير أو مهموم أو مأزوم أو صاحب حاجة.

لا يكتفي" أبو الخل" بأن يوزع كل المال والثياب والطعام الذي يأتيه من طريق زيارة أهله له في سجن صيدنايا، بل كان دائماً يحاول أن يجمع من بعض الميسورين ما أمكن، من مال ودواء وثياب وطعام، فيعطي كل مضطر ومحتاج، ويَعدُ من لا يملك له عطاءً بأمل في موعد قريب. وحتى حين كان خليل يرى أن بعض السجناء، هم أحوج إلى دعم نفسي، منهم إلى مساعدة مادية، فقد كانت له مبادرات واجتهادات ومسعى دؤوب حيال كل مكتئب أو مهموم أو ذي مأساة أو احتياج خاص، فكان يلازمه ولا يتركه. يتحفه بالنكت والأمثال والأحاديث، ويظل

يحتال عليه، بكل حيلة ووسيلة يجتهد فيها، حتى يخرجه مما هو فيه.

كان خليل الفلاح صوفياً متديناً تديناً فطرياً، أمياً – تقريباً – لا يقرأ ولا يكتب إلا بصعوبة. لعل الأصدق أن "أبو الخل" كان يؤمن بدين إنساني خاص به، لا يشبه البشر وما هم عليه كثيراً. فقد وسّع دائرة "أعماله" ومساعداته، التي وصلت بمقاييس السجن والسجناء إلى حدود التهور والمخاطرة بالنفس كثيراً، لتشمل الأجنحة الأخرى، وأصبح شهيراً على مستوى السجن، ففي كل يوم تجد صاحب حاجة من أجنحة وتهم مختلفة: عرفاتيون، شيوعيون من حزب العمل، شيوعيون مكتب سياسي، أخوان مسلمون، جماعة الطليعة المقاتلة، كتائبيون، جنبلاطيون، ولبنانيون من جماعة الشيخ سعيد شعبان، ولبنانيون من جماعة الشيخ هاشم منقارا، ولبنانيون أحابيش.. جماعة بعث عراقي، وجماعة بعث ديمقراطي (جماعة صلاح جديد).. كان خليل الفلاح هو صدى "وامعتصماه" السجن، وأسطورته المجنونة.

ولعل ما كان يراهن عليه السجناء ويتوقعونه، من أن التقارير التي كانت تصل تباعاً إلى إدارة سجن صيدنايا، سوف تودي في وقت قريب بخليل إلى مصير أسود محتوم. فإدارة السجن تحيل تقاريرها عن السجناء إلى إدارة المخابرات العامة، والمخابرات لا يمكنها أن تفسر أي سلوك لسجين إلى بكونه ارتباطاً سياسياً، ولا حساب لديها لأي معنى أو سلوك إنساني.

كان خليل الفلاح مستعداً أن يخاطر بحياته من أجل الحصول على بضعة سكائر لـ "خرمان " مقطوع من الدخان، وأن يفعل المستحيل في سبيل الحصول على دواء لمريض انقطع عنه الدواء، أو يغامر بإخراج رسائل طمأنة لسجين تقطعت به السبل بطرقه السرية، ولم يكن لديه فارق أن يكون المحتاج في جناح آخر، وفي طابق من طوابق سجن صيدنايا. وحتى لو أخبروه أن طالب الحاجة هذا كتائبي، وزعموا بأنه متهم بقتل عدد من السوريين في لبنان، بل حتى لو كان المقتول على يد هذا الكتائبي هو شقيق خليل، أو ابن عمه.

انقسمت توقعات الجناح بشأن مصير خليل النهائي (الذي ينتظره كما يُتوقع) إلى آراء شتى، فهناك من توقع أن ينتهي خليل بتسفيره إلى سجن تدمر، وهناك من توقع أن خليل سوف تنتهي به " انغماسيته

واستشهاديته " إلى زنزانة فردية يقضي بها بقية عمره، أما المهولاتية والمتشائمون فكان لديهم شبه يقين أن خليل سوف يستدعى سراً إلى أحد فروع المخابرات، حيث ستتم تصفيته وإخفاء جثته عن الوجود.

فقط أصدقاؤه ومقربوه والمتعصبون له (وكنت منهم)، كنا نتوقع أن أقسى ما سيناله خليل هو تحويله كعقوبة مسلكية إلى الزنازين الفردية لبضعة شهور. هذا أقسى وأقصى ما نتوقع له.

وجاء اليوم المتوقع ذات عصر من الأعصر.

وقف مساعد السجن عند الشبك الخارجي، ورمانا بنظرة متأملة قرأنا فيها معانيَ. نظر إلى ورقة صغيرة بيده، وصاح بصوت عالٍ:

– خليل الفلاااااااااااح !؟

ارتعب السجن، فقد جاءت لحظة الحقيقة. وشعرنا بأن شيئاً ما، هو مزيج بين المعجزة والخطورة الداهمة، قد جعل يقترب حثيثاً، وأقبل أبو الخل باسماً ثابتاً قوياً كعادته نحو المساعد:

– نعم حضرة المساعد.

– أنت خليل الفلاح؟

– نعم.

– ضب اغراضك واقطع علاقتك بالجناح والسجن.

خلال دقائق كان خليل يغادرنا، وكان كل صاحب توقع قد انكفأ راجعاً إلى توقعاته، في إحيائية جديدة لمصير خليل الفلاح المشؤوم الأسود، فمنا من كان يتوقع أن خليلاً الآن في طريقه إلى تدمر، ومنا من بات على يقين أن خليلاً قد غيب في زنازين أفرع المخابرات، أو تمت تصفيته وشبع موتاً، أو أخضع لتحقيق جديد. حتى "فطيم" ، ذلك العجوز الشيطاني الخطير والشرير، والذي كان الجميع يحاذره ويتحاشى شره، راح يترحم على خليل(لكثرة فضائل خليل عليه)، ويشيد بمحاسنه عليه قائلاً:

– سيدنا خليل الفلاح رضي الله عنه.

بعد ثلاثة أيام فقط، جاء أهل أحد شباب دير الزور لزيارته. وما إن عاد من الزيارة حتى وقف مبهوراً مبهوتاً أمام باب الجناح، ومعظم القوم قد تحلقوا حوله وهو يهتف بهم:

– خليل الفلاح يسلم عليكم ياشباب. خليل طلع إخلاء سبيل، وهو

الآن ببيت أهله. أهلي زاروه في بيته ليسألوه عني. قال لهم سلموا لي على كل الشباب حين تذهبون إلى الزيارة. ولم يكد أحد يستوعب، أو يستفيق من هول المعجزة، ولا من صدمتها غير المتوقعة.

خليل، وبعد خروجه من السجن الذي قضى فيه فترة أربعة عشر عاماً، تزوج واستأجر كشكاً من البلدية على الرصيف، وكان سعيداً جداً بعمله وبكشكه الذي كان – كما وُصِف لي – بطول متر وعرض متر.

– 8 –

وأعود إلى صخب السجن في صيدنايا. فأتذكر ساعتي المعطلة، التي توقفت، قبل أربع سنوات، منذ أول أيام العطش في تدمر.

في ذلك اليوم، الذي قطعت فيه إدارة سجن تدمر عنّا صنبور الماء، وبدأت يومها رحلة العطش الرهيبة، فوجئت بساعة يدي وقد توقفت. تعطلت عقاربها الثلاثة. كنت قد اقتنيت هذه الساعة قبل اعتقالي بفترة وجيزة، لا تتعدى بضعة أشهر. ومن غرائب المصادفات، أنها لم تُصادر عبر كل مُدَّخَلات الفروع والسجون. رغم أنها تعتبر من الممنوعات، فهي فضلاً عن كونها تصنف في فروع المخابرات والسجون، بكونها آلة حادة، وزيادة على ذلك، تُعد بلورة الساعة من أشد الممنوعات التي يُحرص على مصادرتها، أو وضعها في الأمانات، أو رميها في حاوية القمامة. مع ذلك، لست أدري حتى اليوم، كيف لم تُعترض، ولم تحفظ في درج أمانات، ولا هي صودرت أو تمَّ إتلافها، أو غير ذلك مما هو متوقع.

أتأمل ميناءها الذهبي، وأحرف كلمة Orient التي تزينها، وتزيد من بهاء شكلها الأنيق. قررتُ مبدئياً، أن أحتفظ بها، حتى يحين الوقت الذي أغادر فيه المعتقل، وأنجو منه. هنالك – عندئذٍ – سوف يتحرك زمنان: زمن الحياة الحقيقية، خارج أسوار السجون، وزمن ساعتي Orient ، التي سوف أسارع إلى إصلاحها فور خروجي، لتعاود عقاربها السير الرتيب، نحو ذلك الشوط الأخير في مدرج الحياة، والذي لا أعرفه، ولست أدري أين سينتهي.

بعد انتقالنا من سجن تدمر العسكري، إلى سجن صيدنايا العسكري، في منتصف عام 1987، كان من بالغ سروري، أن تعرفتُ

على شاب رائع من أهالي الحفة في ريف اللاذقية، اسمه علي بيطار. وهو ضابط طيار، حديث العهد بالكلية الجوية. وقد اعتقل وطرد من الخدمة لاحقاً.

علي بيطار، شاب ذكي وشهم. مثقف موهوب. وجريء ذو شجاعة ومروءة. غير أن علي بيطار، كانت لديه مشكلة واحدة صغيرة. في الحق أنها ليست صغيرة. فقد كان يدّعي أنه "شاطر ومعلم"، في إصلاح الساعات اليدوية، على الأقل، كان ذلك إعلاناً مجهولاً، أو إشاعة مجهولة المصدر، رسخت لدى بعضهم، ومنهم أنا، بأنّ علي بيطار، لديه بعض الخبرات القديمة، والحديثة المكتسبة داخل السجن، بإصلاح الساعات اليدوية. هذه الشائعة انبثت وتطايرت في الجناح، الأمر الذي جعل علي بيطار في فترة قصيرة، ملاذاً لكل من تعطلت ساعته اليدوية مثلما هي حالتي.

راح سائر السجناء في الجناح، يتوافدون على علي لإصلاح ساعاتهم، وطبيعي أن أعداداً كثيرة من الساعات اليدوية لنزلاء الجناح، كانت معطلة أو تعاني من مشاكل. أما صديقي علي بيطار، فقد اعتاد أن يفرش أمامه قطعة قماش بيضاء. ولقد تخيّر علي لونها الأبيض الناصع، حتى تستبين وتتمايز قطع الساعات المفككة، الشديدة النعومة والدقة، على سطحها جيداً.

وشرع صديقي علي ببذر تلك القطع، التي يصل بعضُها في دقته، إلى قريب من دقة رأس الدبوس: مسننات كثيرة ناعمة، براغي أكثر نعومة منها، تحتاج إلى مكبرة لكي تلمس العين تفاصيلها. وعلي كان قد جهز نفسه بعدد من المفكات الناعمة الدقة، التي تلائم هذه القطع الناعمة.

في نهاية الأمر، كل ساعة يد كان يستلمها صديقي علي، ويشرع في تفكيكها قطعة قطعة، كان يفشل في إصلاحها في مآل الأمر، فيعيد تركيب تلك القطع الكثيرة المبذورة أمامه، واحدة واحدة، ولكن للأسف.. فقد كانت بعض القطع لا تجد لها – عند علي – مكاناً طبيعياً صحيحاً، فيعزلها ويضعها جانباً، ثم يغلق الساعة، ويردها إلى صاحبها، ولكن بعد أن يعطيه معها كومة صغيرة من القطع الناعمة، التي لم يعرف كيف يعيد تركيبها في مكانها الصحيح.

ثم يعلن لصاحب الساعة قائلاً:

– هذه هي الساعة استلمها. للأسف لم تتصلح كما ينبغي. فشلت في إصلاحها. وهذه كومة القطع الناعمة – آلات الساعة الدقيقة – كلها كانت زائدة داخل الساعة.

كان الجميع ينظرون بدهشة إلى علي. أحياناً كانت تُسمع بعض الضحكات هنا أو هناك. ويتساءلون:

– علي كيف يعني زيادة. ما فهمت عليك؟

– زيادة يعني زيادة. الشغلة ما بدها فهم كثير.

– يعني شركات الساعات، أورينت وسيتزن كانت تضع قطع غيار زيادة داخل الساعة.؟ قطع احتياطية مثلاً.؟ ولّا هذي القطع دخلت إلى الساعة بالغلط ومالها أي شغلة.؟

يجيب علي:

– والله هذا الطلع معي. الساعة ما تصلحت، وهذه الخردة الناعمة كلها طلعت معي (زيادة) داخل الساعة.

وهكذا رد لي علي ساعتي المعطلة، ومعها كومة من الخردة الدقيقة الناعمة. قطع الساعة الداخلية الزائدة عن احتياجات الساعة. حسب قول صديقي علي.

بعد أربع سنوات مضت في سجن صيدنايا، وحين أفرج عنا ومضينا في شوارع دمشق نلتمس وسيلة نقل إلى مدننا وقرانا، كان آخر صحبة لي مع الرائد عثمان أصفر، الذي كان دائم التشاؤم ونحن خلف جدران السجن. مسقطاً كل أمل بالخروج وإطلاق السراح، ومردداً على الدوام:

– الأمل عندي بان يطلق سراحنا، ويخلى سبيلنا.. لم يتجاوز يوماً ما، العشرة بالمائة.

فسألت عثمان وأنا أبتسم، وقد وصلنا تلك الليلة إلى ساحة كاراج العباسيين، بعد إطلاق سراحنا، وخروجنا من باب فرع التحقيق العسكري:

– ها قد صرنا خارج اسوار السجن.. أما يزال الأمل عندك بالحرية، لا يتجاوز العشرة بالمائة؟

فضحك وقال:

– لا.. هذه المرة ارتفعت نسبة الأمل.. أصبحت النسبة خمسة عشر بالمئة.

خاتمة

نمضي كما يمضي السائحون في الأرض. نموت على الطرقات فترثينا الجرائدُ والقصائد. وتُشيدُ المواقع الإلكترونية بفضائلنا، ويتوازع ما تبقى لنا من أحباءَ، فُضلةَ ذكرياتِنا، ويقتسمونها كميراثٍ بينهم. وتكتب الدوائر الرسمية في سجلاتها، بحروفٍ من يقينٍ، تبقى إلى يوم الدين: بأننا كنا لاجئين، وكنا خائبين رائعين. وكنا أفضل السيئين. وكنا متفائلين ويائسين.

وأننا جلسنا، ذات يوم، قرب أسلاك الحدود.. نحملُ بيدنا "الموبايل".. وهو قشة إنقاذِنا الأخير، وآخر فرص النجاة.. لنُرَبّيَ أملاً بفرجِ رب العالمين.

نمضي ونطوي في جيوب ذاكرتنا، آخرَ تفسيرٍ للأحلام، بوصول المنقذين والنبيين. ونخفي في ثيابنا الداخلية – خشيةً من تفتيشنا – كتاباً رسمياً ممهوراً بالأختام.. يُثبتُ أننا كنا مواطنين جيدين. ونازحين جيدين، ومضطهَدين جيدين.. حتى لا تكتبَ الدوائرُ الرسميةُ بأننا كنا مجاهدين.. وأننا لا نحفظُ من تاريخِنا، إلا لوعة الانتظار وسهاد الانتصار، آخر الزمان، على الكفار.. وعلى العالمين..

نمضي كما يمضي السائحون في الأرض.. نحمل أدعية الصباح والمساء والنوم.. والجواز المنتهي الصلاحية.. ونطلب العلمَ واللجوءَ ولو في الصين..

ففي هذه الحياة لحظاتٌ قليلة من الفرح، ودهرٌ طويلٌ من الحزن. حيث لم يعد ثمة ما يمكنُ فعله، إلا السير نحو النهايات التي لا يُدرى ماهي.

ها هي ذي ترسم تاريخَها الفاجعيَّ وهي تنأى مبتعدة. وها أنا ذا أرسم تاريخيَ الفاجعيَّ، وأنا أنأى مبتعداً. لي أشواقٌ وأمانٍ أحاول أن أقتلَها، وأن أسرق بطاقتها الشخصية. ولي وجهٌ يحاول أن يراني وأحاول أن أراه. وأن أخلق ممحاةً تمحو كلَّ ما لا أتمناه. وأن أخلقَ قلماً يكتبُ كلَّ شيءٍ حلمتُ به يوماً.

ها أنذا أغوصُ في عالمٍ طالما ارتابَ بنفسه أنه عالمٌ حرٌ. وهو يجبرنا أن نعتقد بشطرٍ من الحقيقة التي يعتقد، ويسعى لتحطيمنا جميعاً، لأنه يريد أن يجبرنا على الاعتقاد بشطر الحقيقة الآخر.

وها أنذا أسير نحو محطتي الأخيرة.. حاملاً – هديةً من أمي في آخر وداع – بيدٍ حقيبة المنفى، وباليد الأخرى كيسَ الدموع والأدعية من أمي. وأعضُّ بأسنان ذاكرتي على وصية شيخ الجامع، في حارتنا القديمة: "إن لم تجدْ ماءً تيممْ".

من وجهة نظر الأفعى، كل الأجساد تُعدُّ مستودعاً طيباً، ومكاناً ملائماً لكي تسكب سُمَّها وتودعه فيها. ومن وجهة نظر البعوضة، كلُّ الدم الذي تمتصه له طعمٌ واحد.

وتبقى محطات المنافي هي وحدها حصتي من وطني. ومنذ عام الفيل، نحن نُرمى بحجارةٍ من سجّيل. وبالبراميل..

لا أبرهةٌ بقادرٍ على هدم كعبة الوطن والحب في قلوبنا.

ولا قلوبنا تهمد وتستريح.. وتطويها الريح، كعصفٍ مأكولٍ.

– تمت –

فرنسا – كليرمون فِران – Clermont–Ferrand – 2019

الفهرس

إهـــــداء... - 5 -

حِبْرٌ على ورق... - 7 -

الفصل الأول: احتضان الهاوية .... - 9 -

الفصل الثاني: شعبان خطاب.. "للعقلِ ألفُ عينٍ، وللقلبِ عينٌ واحدة" .... - 35 -

الفصل الثالث: أنا الذي رأيت .... - 58 -

الفصل الرابع: الروح تحيا والكلماتُ تموت .... - 80 -

الفصل الخامس: تدمر جريمة العصر المعلنة .... - 105 -

الفصل السادس: مهجع 38 .... - 135 -

الفصل ا لسابع: مرارات الروح .... - 160 -

الفصل الثامن: أسطورة القطة العمياء.......................... - 185 -

الفصل التاسع: مهجع 29 وحقائب الذاكرة .... - 207 -

الفصل العاشر: صيدنايا وبقية عُمْر............................ - 233 -

خاتمة.. - 259 -

الفهرس... - 261 -

إصدرات الدار في عينتاب

اسم الكتاب	المؤلف	مادة الكتاب	سنة الإصدار
فوق ألسنة اللهب	د. محمد محمود	رواية	2015
حكايات سورية من زمن الاستبداد	خطيب بدلة وآخرون	قصص	2015
الخاتم الأعظم	زياد كمال حمامي	رواية	2015
ثلاثي المعارضة السورية من الولادة إلى الشيخوخة	مناف الحمد	دراسة	2015
السجين	علي عبد الله كولو	رواية	2015
سورية الخمسينيات	عدنان بدر حلو	دراسة	2015
إمبراطورية العبيد	قصي أبو قويدر	رواية	2016
الخبز الأحمر	قصي أبو قويدر	رواية	2016
بين الخيام	ابتسام شاكوش	قصص	2016
تحت مستوى الوعي	أيمن خالد	دراسة	2016
قبل الميلاد	محمود الوهب	رواية	2016
صرخات الضوء	ريبر هبون	شعر	2016
هدهد في زجاجة	أحمد عمر	قصص	2017
بوح امرأة عطشى	عقاب يحيى	رواية	2017
إنه قمري	شكران حاج درويش	قصة للأطفال	2017
المصاصة العجيبة	شكران حاج درويش	قصة للأطفال	2017
لمسة	شكران حاج درويش	قصة للأطفال	2017
الملحمة الصغرى/رحلة الخلود	أديب يوسف	رواية	2017
وطن في سوق النخاسة	مصعب الحمادي	دراسة	2017
مقدمات ثورات الربيع العربي ومآلاتها	د. عبد الله تركماني	دراسة	2017
السوريون منبطحاً	خطيب بدلة	قصص	2017
أطياف ورؤى	ريبر هبون	دراسة	2017

يوم اختفى قاسيون	نضال معلوف	رواية	2017
كاهن دورا	عبد العزيز الموسى	رواية	2017
الملحمة الوسطى/الأهوار المظلمة	أديب يوسف	رواية	2017
هذه ثورتي	محمد جلال	يوميات	2017
الثورة الموءودة	علي كولو	رواية	2018
علم النفس الجنسي العيادي	د. بسام عويل	علم نفس	2018
دفاتر المنفى	عدنان بدر حلو	سيرة ذاتية	2018
ناصية الشيطان	أديب يوسف	رواية	2018
وطن برسم البيع	منور فيصل الناجي	قصص	2018
ذكريات بعثرتها حرب	بتول أبرص	قصص	2018
العرب والعلمانية	أحمد برقاوي	دراسة	2018
حارات عينيها العتيقة	عبد الرحمن الإبراهيم	شعر	2018
في عرين الشيطان	قصي أبو قويدر	رواية	2018
حين تتحدّث الزنازين	مجموعة من المؤلفين	دراسة توثيقية	2018
زهور فوق الركام	مجموعة من المؤلفين	قصص	2018
ذاكرة العوسج والصبار	إسماعيل خليل الحسن	رواية	2018
حلب ويهودها	عبدو بكور	دراسة تاريخية	2018
العبور للمجتمع المدني النقابي	موسى الزعبي	دراسة	2108
قيامة البتول الأخيرة (الأناشيد السرية)	زياد حمّامي	رواية	2018
السماء تمطر عشقاً	علي عبدالله كولو	رواية	2019
بناء رقم /35/	آلاء فاعور	رواية	2019
أمانيكم	محمد محمود شباط	شعر	2019
المؤثرات الإسلامية في أدب لسان الدين بن الخطيب	د. أحمد علي عمر	دراسة	2019
ملكة الفوعة.. تلميذ بنّش	شعبان عبود	رواية	2019
نوافذ ملوّنة	مصطفى عبد الفتاح	قصائد للأطفال	2019
قبل حلول الظلام	معبد الحسون	رواية	2019

كان هنالك شاب عسكري مجند، تم اعتقاله أثناء الخدمة، بسبب تلفظه في لحظة انفعال طائش بعبارة: (الله أكبر.. الموت للطائفيين)، وذلك عقب ورود بعض أخبار أو إشاعات لمعارك يومية، كانت تحصل بين مقاتلي الطليعة المقاتلة، وبين قطعات من الجيش. كان ذلك الشاب دائم القلق، ورأيته يبكي مراراً أكثر من مرة. حاولنا تهدئته وطمأنته بأنه لن يحكم بالإعدام، وأن تهمته في أكثر الأحوال لن تتجاوز أبعد من السجن لعشر سنين، أو عشرين سنة على الأرجح. فلم يكن كل ذلك الحديث ليبعث الطمأنينة في نفسه، أو يريح أعصابه التالفة. كان قد طالب، أثناء التحقيق معه، بطبيب يثبت بأنه يعاني حالة، أو نوعاً من أنواع الصرع، ولقد زوده الطبيب بالتقرير كما أراد، وذلك بعد أن تضرع إليه ورجاه طويلاً. لم يكن ذلك الفتى يكف عن البكاء والنحيب، إما علانية أو بصمت، جزعاً وخوفاً من حكم الإعدام. ولم تكن توسلاتنا وتطميناتنا إلا لتخفف عنه بعض الوقت، وبشكل لحظي أثناء التحدث إليه. ولقد قال له الشاب الشيخ سعيد، وهو من مجموعة العميد شعبان خطاب، مرة:

- لا يبكي لدى انتشار الدفء إلا الجليد..وحين حضرت المحكمة العسكرية،

استدعي للمحاكمة، ولم يطل استغراق الأمر حول قضيته أكثر من دقائق معدودة. يسأله اللواء حسن قعقاع:

- ولك انت مانك خجلان من حالك ولاك.. ولك انت عربي سوري ولاك.؟فأجاب:

- سيدي أنا مسلم حلبي كلييسي.. من فصط الكلاسة..وبعد نطق الحكم بإعدامه، تم عزله من مهجعنا ونقله إلى الزنازين الفردية، كما جرت عليه العادة في مثل هذه الأحوال.